وِزَارَةُ التَّعْلِيمِ الْعَالِيِّ وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ
جَامِعَةُ الْجَزَائِرِ 2 - أَبُو الْقَاسِمِ سَعْد اللَّه
كُلِّيَّةُ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ
قِسَمُ التَّارِيخِ

الطَّائِفِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فِي بِلَادِ الشَّامِ خِلَالَ الْعَهْدِ الْعُثْمانِيِّ
(الْقَرْن 13هـ / 19م)
بَيْنَ الْمُؤَثِّرَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالسِّيَاسَةِ الدُوَلِيَةِ

مُذَكِّرَةُ مُقَدِّمَةٌ لِنَيْلِ شَهَادَة دُكْتورَاه عُلُوم فِي التَّارِيخِ الْحَديثِ وَالْمُعَاصِرِ

إعداد الطالب:
عبد الحفيظ دحدح

إشراف الأستاذ الدكتور:
أرزقي شويتام

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د/ مختار حساني	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	رئيسا
أ.د/ أرزقي شويتام	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مشرفا ومقررا
د/ محمد دراج	أستاذ محاضر-أ	جامعة الجزائر 2	عضوا مناقشا
دة/ أسماء مهيبل	أستاذة محاضرة -أ	جامعة الجزائر 2	عضوا مناقشا
أ.دة/ طرشون نادية	أستاذة التعليم العالي	جامعة المدية	عضوا مناقشا
د/ ياسين بودريعة	أستاذ محاضر-أ	جامعة البويرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2020 / 2021

وِزَارَةُ التَّعْلِيمِ الْعَالِيِّ وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ
جَامِعَةُ الْجَزَائِرِ 2 - أَبُو الْقَاسِمِ سَعْد اللَّه
كُلِّيَّةُ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ
قِسَمُ التَّارِيخِ

الطَّائِفِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فِي بِلَادِ الشَّامِ خِلَالَ الْعَهْدِ الْعُثْمانِيِّ
(الْقَرْن 13هـ / 19م)
بَيْنَ الْمُؤَثِّرَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالسِّيَاسَةِ الدُوَلِيَةِ

مُذَكِّرَةٌ مُقَدِّمَةٌ لِنَيْلِ شَهَادَة دُكْتورَاه عُلُوم فِي التَّارِيخِ الْحَديثِ وَالْمُعَاصِرِ

إعداد الطالب:
عبد الحفيظ دحدح

إشراف الأستاذ الدكتور:
أرزقي شويتام

السنة الدراسية 2020 / 2021

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

الآية 13 من سورة الحجرات

شُكْر وَامْتِنَانٌ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله.

أحمد الله وأستعينهُ وأستغفرهُ، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أُنيب. لا ينكرُ الفضلَ إلا جَاحد، ولا ينساه إلا مُتكبر، ونُكران الفضل وعدم الإقرار به سواء لله تعالى أو للنّاس سلوك مُشين، والاعتراف بالجميل والفضل لا ينقص من قدر المرء على الإطلاق، ولكنه ينمُ عن أصل طيّب وشخصية ملتزمة، ويدل على الحمد والخير.

عملا بالحديث الشريف (لا يشكُر الله من لا يشكُر الناس) يطيب لي أن اتوجّه بجزيل الشكر والامتنان والعرفان إلى الفاضل، الأستاذ الدكتور **أرزقي شويتام** على تفضله بالإشراف على هذا العمل. فقد كانت مواقفه وارشاداته القيّمة، وما بذله معي من جهد - رغم الكرب الذي ألمّ به - في التوجيه والتصويب والإرشاد المنهجي، هي الضوء الذي أنار لي الطريق للوصول بهذا العمل إلى الشكل الذي انتهى إليه.

وأنا الذي لا أملك لرد جميله وفضله إلا أن أسأل الله من عظيم لطفه، وكرمه، وستره الجميل، أن يشفيه ويمدّه بالصّحة والعافية وأن يحفظه، ويمنّ عليه، وعلى أهل بيته بالعافية والستر. كما ينبغي عليّ أيضا أن أسجّل تقديري وشكري لأساتذتي الأفاضل في قسم التاريخ بجامعة الجزائر 2، وكذا إداريي القسم، الذين لم يدّخروا الجهد لتسهيل المسائل الإدارية، وما يرتبط بها، وكذا دعمهم السّخي وتوجيهاتهم ونُصحهم، والله من وراء كل القصد.

الْإِهْدَاءُ

أُهدي هذا العمل إلى من كان سندًا وعونًا لي في مشوار حياتي وأحاطني بدفء الحنان والرّعاية... إلى روح والدي الحبيب **أحمد** رحمة الله عليه، الذي تعلمت منه أخلاق الوفاء والصِدق والقناعة ... داعيا الله أن يرحمه، ويجمعني وإياه في مستقر رحمته.

- إلى والدتي الحنون والغالية أطال الله في عمرها.
- إلى رفيقة دربي، حكيمة، وبناتي فلسطين، دُعاء وأسماء.
- إلى إخوتي وأخواتي: نوارة، حسينة، خليصة، بركاهم، محمد، عادل وصبرين.
- إلى كل من جمعتني به أيام الدراسة في كل مراحلها، وإلى كل زملائي في العمل.

قَائِمَةُ الْمُخْتَصِرَاتِ

المُختصرات العربية

- ج : الجزء.
- ج.م.ع : جمهورية مصر العربية.
- د . م . ن : دون مكان نشر.
- د . ن : دون ناشر.
- د .ت . ش : دون تاريخ نشر.
- د.د.ن: دون دار نشر.
- ط : الطبعة.
- ع : العدد.
- ف : الفصل.
- ق .م: قبل الميلاد
- ك1: الكتاب الأول.
- ك2: الكتاب الثاني.
- م . ل . ع: مُجمع اللغة العربية (مصر).
- مج : المجلد.

المختصرات الأجنبية Abréviations étrangers

- Édi : Éditions.
- L :Livre.
- S.D : Sans date.
- S.D.L.E : Sans date et lieu d'édition.
- Vol : Volume.
- D.É: Deuxième édition.
-T : Tome.
- M.A.É : Ministère des affaires étrangères.
- D.N° : Numéro de Document.

مقدمة

التعريف بالموضوع

إن الاختلافات والتمايُزات الطائفية والمذهبية والعِرقية ليست حالات وظواهر شرّ وسوء في حدّ ذاتها، مثلما هو رائج في مجتمعاتنا، بل هي أمر طبيعي، وسُنة من سُنن الله وآية من آياتـه، ويتجـلّى ذلك في قـوله عز وجل: **(يَا أَيُّـهَا النَّـاسُ إِنَّا خَلَقْـنَاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَـىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُـوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُـوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْـقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)**. فقد قدّر الله تعالى هذا التنوع في البشر، ولو شـاء **(لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)**.

لــم تعرف الحياة الإسلامية مصطلح الأقليات بمدلولاته المتعددة، وما يُنتجُه من نزعات طائفية ومذهبية، فالإسلام بنى أمة تُؤمن بالتنوع في داخلها، فقد كانت الطوائف غير الإسلامية جزء من الحضارة الإسلامية، ولم يسْعَ نظامها السياسي مُطلقا إلى جعلها جزءا من عقيدته. لهذا يجب التشديد هنا على أنّ هذه الطوائف المتنوعة والمختلفة ساهمت بقوة في هذا الصّرْح الحضاري، والرّقي به في مختلف المجالات.

ولــعقود من الزمن، شكّلت هذه الطوائف مصدرا من مصادر قوه هذه الحضارة وتألقها في جانب، وسبيلا يمنعُ الفُرقة والاختلاف والانقسام من الجانب الآخر. وعلى هذا فإننا نؤكد بقوة على أنّ التنوع هو صنف من الثراء البشري، ضمن هذه الحضارة، الذي يزيد الحياة قوة وحيوية.

يجب أن نعلم بيقين، أنّ الطائفية ليست من الدّين، إذ أنّ الانتماء إلى أيّ عقيدة يكون مبنيا على الإيمان بها وليس الإيمان بالجماعة البشرية التي تُؤمن بهذا الدّين وتعتنقه وتجتهد لنشره. فالجماعات العرقية التي دخلت في الإسلام أفواجا آمنت به اقتناعا، كمنهج رباني قويم وليس بالجماعة، وهم في هذه الحالة العرب، التي تحمّلت مسؤولية تبليغه ونشره في بداياته، فهي آمنت بالدّين وليس بالطائفة العرقية.

ولذا وَجَبَ التنبيه في هذا السياق إلى أنّ أيّ دين ينحو المنحى الطائفي، فإنه سوف يتحول حتمًا إلى مفهوم يحمل معـاني العشائرية والقبائلية، وحينها يصيـر هذا الدّين عامل

تفكيك وتفتيت للمجتمع، لا عامل توحيد وبناء.

لا ريب في أنّ أحد أخطر المُعضلات التي تُواجه أيّ دولة ناشئة، هي بناء الأساس الاجتماعي للدولة؛ بمعنى تحقيق الاندماج بين العناصر الطائفية والمذهبية والسُلالية التي تقع في إقليمها، وهو موقف يتطلب منها مواجهة الخطاب الطائفي، الذي إن هو طغى يصبح عاملا يُوتّرُ الأجواء ويقودها إلى التأزّم. ومن هذا المُنطلق، لم يَسْعَ العثمانيون في المراحل الأولى لدولتهم إلى تنمية الشعور بهويةٍ خاصةٍ تُميزهم عن غيرهم وتستبعدُهُم عنهم، فكانت قاعدة البناء التي لجأ إليه العثمانيون هي الإسلام.

ارتــكز نظام الحكم في الدولة العثمانية على الدّين الإسلامي منذ مرحلة التأسيس وكانت جميع أنظمتها وقوانينها مُستمدة من الشريعة الإسلامية. ومع مرور الوقت انتشرت هذه الدولة، واتسّع مَدَاها الجغرافي بفعل الفتوحات التي خاضتها شرقا وغربا، مما أدّى إلى تصاعد حجمها الجغرافي، وضم شعوب جديدة، وبأعداد ضخمة تحت سلطانها وإدارتها، لا سيما منذ القرن 10 هـ / 16 م. وهو الواقع الذي نتج عنه تنوع المجتمع العثماني في تراكيبه وأقلياته الإثنية والدينية.

وكانت حصيلة هذا النظام أن ساد التسامح الديني والتعايش السلمي بين مختلف الطوائف الدينية والمذهبية في المجتمع العثماني، ولم يكن بينها أي تمايُزات دينية أو مذهبية، ولم تكن علاقة هذه الطوائف بالدولة سوى علاقة محدودة ضيّقة للغاية. فقد رتّبت السلطة العثمانية شؤون وقضايا الطوائف بعيدا عن أي نزعة من نَزَعات التعصب سواء الديني أو المذهبي أو العرقي - على الأقل في عهودها الأولى - فكانت حريصة على بناء مجتمع مُتوازن طائفيا، عن طريق الوقوف بحزم ضد كل ما قد يُعكّر السّلم المجتمعي، ويُهدد التعايش الطائفي ويُفسِده.

فــي مُقابل ذلك، استهدف الغرب النصراني الدولة العثمانية من خلال التخطيط لصناعة الطائفية والترويج لها، خصوصا في بلاد الشام. فاجتهد هذا الغربُ في تصدير الأفكار القومية المُؤسَسَة على عنصرية بغيضة، بأسماء وعناوين مختلفة، وكانت أهم

ما ترمي إليه هو التقليل من شأن الآخر، بل وإلى رفضه، فتصاعد الوباء الطائفي وتفشّى. وبذلك تحوّلت تلك الاتجاهات إلى عامل تفتيت وانقسام للمجتمع، وواحداً من أمراضه الاجتماعية الخطيرة.

تـعتبر بلاد الشام مـن أكثر الأماكن التي يمكن أن يُـلاحظ فـيها المرء تـعدُدا وتنوُعًا طائفيا ومذهبيا فريدا، فهي تمثل أعلى مراحل الاستقطاب الطائفي، إذ يكاد لا يوجد نظير في العالم لهذا التنوع. فقد شكّلت هذه البلاد الإطار النموذجي على مستوى العالم الذي يحتضن مجموعة كبيرة من الطوائف الدينية والعرقية. ويرجع ذلك إلى كونها من أكثر المناطق حيوية في التاريخ القديم، وهو الأمر الذي جعل منها واحة كبيرة تعُج بالمكونات البشرية المختلفة والمتباينة.

لقد كانت بلاد الشام على مرّ التاريخ خزّان الديانات ومقر مقدساتها، ومجالا للصراع بين مختلف القوى السياسية، سواء المحلية أو الخارجية. الأمر الذي أدّى إلى توافد وتدفُق الكثير من الأعـراق والسـلالات والمذاهب الدينية إليها - وللأسف أصبحت هذه البلاد تمثل النموذج السيئ للطائفية والمذهبية في الوقت الرّاهن - وأيضا يَرى هذا المرء بوضوح أثر السياسات الدولية في تحريك النزعات الطائفية والمذهبية لخدمة مصالحها وضرب النسيج الاجتماعي للدولة.

لـقد حَمَلَ هذا الواقع المجتمع الشامي على اعتناقٍ سياسي خطير وغيرَ مسبوقٍ للـهويات الطائفية والمذهبية، وبروز ولاءات غير محلية. إذ انبعثت هذه الظواهر في مرحلة تاريخية تقاطعت فيها الإصلاحات العثمانية مع حضور أوربي مُتزايد خلال القرن 13 هـ / 19 م. ففي هذه الفترة بدأ الرحالة الأوربيون، وأغلبهم من المبشّرين، يترددون على بلاد الشام لاكتشاف الأرض المُقدسة، وتجسيد تعاليم كتابهم.

وعلى إثر ذلك، راح هؤلاء الرحالة يتحدثون في كتاباتهم عن الاختلافات السكانية من حيث العرق والدين والمذهب والثقافة، فبُعِثَت عن قصد قضية سياسية دولية نواتُها ومحورها مسيحيو الشرق. وقد جلبت كل تلك الظروف الانحصار والتمزق والتفكك ثُمّ

الزوال على الدولةَ العثمانية. وبقيت حقول الألغام التاريخية التي زُرعت في هذه الفترة وفي ما قبلها، تنفجر في بلاد الشام، بل و في مواطن مختلفة من بلادنا الإسلامية، بين لحظة و أخرى، كلما أُريد لها أنْ تنفجر. وهو واقع يدعو إلى الأسى والحسرة، بل وفي أحيان كثيرة إلى السخط على ما آلت إليه أوضاع بلداننا.

الإشكالية

إن أخطر ما يُواجه المجتمعات الإسلامية اليوم هو إشكالية الطائفية التي ألقت بظلالها وأضحت تحتل مساحةً خاصة من مجمل الخطاب السائد، وتُجسّد إحدى العُقد الحقيقية في مجتمعاتنا. وهو موضوع لم يتحول إلى إشكالية أو أزمة إلا في القرنين الأخيرين - خاصة القرن التاسع عشر الميلادي الذي يمثل عصر الحركات الوطنية في بلاد المغرب والمشرق - وذلك تحت تأثير عوامل داخلية وخارجية، في ظـرف تاريخي شائك وخطير ساعد على إحداث نوع من التفاعل بين العوامل الداخلية والمؤثرات الخارجية.

إنّ الاستغلال الخارجي في ضعف الداخل العُثماني في بلاد الشام، وهذا على الرغم مـن حقيقة وجود المؤامرات الأجنبية التي تعزف على الوتر الطائفي، وتُلوحُ بالأوراق الطائفية والمذهبية... لم يكن ليتحقق لولا وجود الأرضية الخصبة التي تقبل تلك البذور السيئة التي تمنح الفرصة للخارج لتحقيق مبتغاه.

ومن ثم فإنّ إشكالية هذا العمل الرئيسية تكمُن في **رصد الحالة الطائفية في بلاد الشام في القرن 13 هـ / 19 م، من خلال نشوئها وتطورها التاريخي، وإظهار دور السلطة العثمانية في جانب، والقوى الخارجية في الجانب الآخر في ولادة وصناعة الطائفية.** فالوباء الطائفي نتج في هذه الفترة من حياة الدولة العثمانية، عن تقاطع الاستعباد الداخلي والاستعمار الخارجي. وهي إشكالية تدفع بالضرورة إلى طرح جملة من القضايا والتساؤلات الفرعية وِفـق السياق التالي:

أولا: إنّ الاستعداد المحلي وقابلية البيئة الداخلية، بفقدانها الحصانة والمناعة وتعمُق الأحقاد الطائفية، هو الذي يُتيح المجال لنجاح المؤامرات الخارجية. فبروز الطائفية له

علاقة متينة بالسلطة التي تُدبِرُ الحُكم وتُديرهُ، والتي تتحوّل في مواطن كثيرة إلى أداة للظلم والقمع والاستبداد والانقسام.

لقد كان لصور الفساد السياسي والإداري، والتنظيم المِلّي أحد أهم أسباب الاضطرابات في بلاد الشام، وهي كلُّها حالات تُمثل الوجه الآخر للطائفية. الأمر الذي يقُود إلى الفشل في إدارة التنوع الطائفي الذي يخدُم المجتمع. فضعف السلطة المركزية العثمانية كان له دور هام في جعل الطائفية أداة لجمع الأتباع حول الطائفة بدلَ اجتماعهم تحت سلطتها. وهنا تُطرح إشكالية **تنظيم الدولة العثمانية لشؤون الطوائف الإدارية والدينية، وتدبيرها في بلاد الشام، وعلاقتها بنشوء الحالة الطائفية.**

ثانيا: إنّ الجنوح بالطوائف والمذاهب نحو التحوُل إلى وحدات سياسية داخل الدولة صيَّرَ المواطن خادِما لطائفته ومذهبه وموضع انتمائه، يلجأ إليها بحثًا عن الأمان الاجتماعي وتحصيل الحقوق. وهي بدورها تلجأ إلى الخارج تطلب منه العون والسّند وبسبب هذا الواقع لم تَتوَرَع القوى الأجنبية في اقتحام المجتمع الشامي عن طريق خلق الأزمات الثقافية والدينية والعرقية، وتَغْذِيتها في الأماكن المطلوبة والظروف المُواتية وخلق المغالطات التاريخية والثقافية بين طوائف المجتمع، وتشويه الحقائق وفق مخطط مرسوم إلى أن يصبح التدخل الأجنبي مطلوبا تستجديه هذه الطوائف نفسها.

فقد اجتهدت هذه القوى في صناعة وإنتاج عزلة ثقافية ودينية ما بين الطوائف وتقاسمت الأدوار في بلاد الشام لتزيد الشُقة بينها، حتى تحولت هذه المنطقة الى أكثر بقاع العالم يمكن أن يُشاهد فيها بجلاء أثر السياسة الدولية في تحريك النزعات الطائفية فهي نتيجة لسياسة أجنبية مُتعمدة مُرتكزة على القاعدة التقليدية (فرّق تَسُد). وبذلك تحولت الطائفية إلى مادة استعمارية تُوظفها الدول الكبرى لخدمة مصالحها في كامل البلاد العثمانية. **فالتدخل الأجنبي، وتأثيره الثقافي والسياسي في الواقع الطائفي شجّع على تأجيج النزعات الطائفية وطغيانها على الانتماءات الأخرى.**

ثالثا: لا شك أن الاختراق الذي عانت منه الدولة العثمانية وما صاحبه من تشرذُم طائفي ومذهبي كان من أهم عوامل الاضطراب السياسي في بلاد الشام. فاجتماع المؤثرات الداخلية والخارجية على تفكيك النسيج الاجتماعي في بلاد الشام أفرز مزيدا من الانحصار السياسي العثماني، ومزيدا من القطيعة بين المجتمع الشامي والسلطة الحاكمة سواء المحلية أو المركزية. ومن جهة أخرى مزيدا من المذابح والمجازر الطائفية والمذهبية، بل وداخل الطائفة الواحدة. **فتركت الطائفية آثارا جلية مُؤلمة على السلطة العثمانية، وكذا على المجتمع الشامي، على حد سواء.**

دوافع اختيار الموضوع

أولا: لم يكن التفكير في اختيار هذا الموضوع حصيلة المصادفة أو دون إعداد، وإنما سبقه استعداد نفسي وفكري منذ مرحلة الماجستير. فاستكمالا لموضوع العلاقات العثمانية الصفوية خلال النصف الأول من القرن 10 هـ / 16 م الذي كنت قد طرقته في مذكرة الماجستير، حيث ركزت في الموضوع المُثار على الحالة الطائفية المذهبية التي طبعت الصراع بين الدولتين العثمانية السُنية والصفوية الشيعية، فتولّدت لدي الرغبة، من خلال هذا العمل، في الاطلاع على الواقع الطائفي داخل بلاد الشام خلال العهد العثماني، في الفترة التي بدأ فيها التّهَاوي الفعلي للسلطنة خلال القرن 13 هـ / 19 م.

ثانيا: زيادة على ذلك، فإنّ الحالة الطائفية والمذهبية في بلاد الشام كانت تمثل نموذجا واضحا على خطورة الانقسام المُجتمعي على كيان الدولة العثمانية، وما ارتبط به من تدخلات ومؤامرات خارجية. ولا تزال هذه المنطقة، في الوقت الرّاهن، تعاني محنة الانقسام، في زمن بلغت فيه العتبة الطائفية مَداها، وصعود مفهومها بقوة، ضمن صراع يبدو للوهلة الأولى أنّ مُحرّكه الأساس طائفي، تُغذيه المصالح الخارجية المُتشابكة والمُتباينة.

ثالثا: لقد كان لميولي ونُزوعي الشخصي للدراسات والأبحاث التي تُعنى بالطوائف والمذاهب دور في اختياري لهذا الموضوع، فالساحة اليوم لا تكاد تخلو من حديث يصُبّ

في النشاط الطائفي والمذهبي الحثيث الذي يطبع واقعنا، ويُؤجج صور التعصب والغلو فيه. ويبقى، في نظري، أنّ إدراك الجذور التاريخية المرتبطة بالمراحل التي تعاقبت على أمتنا الإسلامية عموما، وبلاد الشام خصوصا، يمكن أن تكون حلولا آنية لوضع طائفي معقد، يُؤشِر لمستقبل، إن أُريد له أن يستمر، أكثر سَوادًا من الحاضر.

رابعا: إن من لا يملك رُؤية واضحة عن الماضي، لا يمكنه تكوين صورة صحيحة عن الحاضر، وطُرق التعامل معه، إذ أنّ فهم الحاضر يتطلب فهم الماضي، وهو بدوره ضروري لبناء المستقبل، فمن لا يتَعلّم من التاريخ محكوم عليه بتكرار مآسيه. فلا غَروَ في أنّ العودة إلى الماضي والرصد التاريخي حتمية منهجية لإدراك الحاضر واستشراق المستقبل، وتصور حلول النجاة والمخرج السليم من هذه المعضلة. فالمشكلة الطائفية التي تعيشها مجتمعاتنا، خصوصا بلاد الشام، وتُخيّم على شعور الناس وعواطفهم، سواء عن وعي أو في غيابه، ليست وليدة الحاضر، بل هي أمر تاريخي مُتجذر ومُزمن في جسد هذه الأمة.

أنّ أمتنا بحاجة ماسّة إلى دراسات مستفيضة تُتيح لها تحديد المخارج المناسبة والعملية للانقسامات الطائفية. ولا شك في أنّ هذا الموضوع قد صار عاملا رئيسيا في فهم الواقع الإسلامي، ومن ثمّ صار إلقاء الضوء على تاريخ الطائفية وتأصيله أمرا حيويا. ففهم المشكلة الطائفية وإدراكها يستعصي دون الرجوع إلى جذورها العميقة، فالكثير من مجتمعاتنا الإسلامية يموج داخلها صراع طائفي كامن لم ينفجر بعد، ويمكن أن يُعبر عن نفسه بأشكال مختلفة في أي لحظة، وكل ذلك يجعل من الاهتمام بالمسألة الطائفية أمرا مُلحا وضروريا، وهو ما سنجتهد لتبيانه في هذه الدراسة.

منهج البحث

تحتاج الدراسة والبحث في قضايا التاريخ إلى منهج معين، يكون واسطةً وطريقًا تَقودُ إلى الحقيقة والمعرفة السليمة، وفي هذه الدراسة سأجتهد لاتباع منهج تاريخي يرتكز أساسا على استقاء المادة من المصادر الأولية ثم المصادر الثانوية، والاعتماد على مناهج علمية تاريخية تُمكّنني من الإحاطة بمراحل الموضوع:

- المنهج الوصفي: هو منهج شائع الاستخدام في الدراسات التاريخية، يستند إلى تحديد خصائص الظاهرة ووصف طبيعتها، وسيتم توظيفه في سرد الأحداث التاريخية التي ميزت الحالة الطائفية في بلاد الشام في القرن 13 هـ / 19 م حسب تسلسلها الزمني ومحتويات ومضامين فصول البحث، وهكذا ستكون طوائف بلاد الشام محل وصف من حيث تعدادها ومناطق انتشارها.

- المنهج التحليلي: هو الأداة التي تسمح بدراسة وتحليل الوقائع والأحداث والعلاقات الطائفية بمُتغيراتها وتطوراتها. وفي هذه الحالة ستكون العلاقات بين الطوائف المُكونة للمجتمع الشامي، وبين هذه الطوائف والسلطة العثمانية، وكذا علاقاتها مع الخارج، محلّ التحليل ضمن الإطار الزمني المحدد في الدراسة. ونخُصُ بالتحليل أيضا دور هذه العلاقات المتشابكة في نشوء وولادة الطائفية.

- المنهج المقارن: إن القراءات الأولية للمصادر والمراجع التي تعرّضت للوضع الطائفي في بلاد الشام خلال القرن 13 هـ / 19 م، قادتني إلى الوقوف على بعض الاختلافات، والتحيُزات والقراءات البعيدة عن مطلب الموضوعية لدى عدد غير قليل من المُؤرخين، في عَرضِهم لبعض القضايا التاريخية التي تخُصُ تاريخ هذه الطوائف ووضعها وعلاقاتها، وهذا تبعًا للخلفية الدينية والفكرية لكل مُؤرخ، وبالتالي يصبح استخدام هذا المنهج ضروري لعرض مختلف تلك الآراء والمقارنة بينها.

زيادة على ذلك، التزمنا في هذا العمل باستخدام التاريخين الهجري والميلادي في كل مراحله، والهدف من ذلك هو إعادة الاعتبار إلى التدوين التاريخي الذي يعتني باستخدام التاريخ الهجري الذي يُعدّ رمزا لهوية الأمة، وأحد مرجعياتها الحضارية، إذ لا يخفى على كل ذي بصيرة ذُيُوع استخدام التاريخ الميلادي بين المسلمين، ليس فقط في الحياة العامة، بل وفي الدراسات التاريخية، مُقابل إقصاء نظيره الهجري والاستغناء عنه. إلى جانب ذلك، التزمنا بتعريف الأعلام والأماكن التي وردت في المذكرة، مع كتابة ما كان منها غير عربي باللّغة الأجنبية.

خطة الموضوع

للإجابة على الإشكالية الرئيسية وما يرتبط بها من إشكاليات فرعية، ارتأيت تقسيم الموضوع محل البحث إلى مقدمة وفصل تمهيدي وثلاث فصول وخاتمة. ففي المقدمة تعرّضت إلى الإطار العام الذي يندرج ضمنه موضوع البحث، وهو الطائفية كظاهرة استحكمت في واقع بلاد الشام في هذه الحقبة الزمنية، ثم تحوّلها مع مرور الوقت إلى أخطر الهموم والأزمات والعُقد الحقيقة، ليس في هذه البلاد وحسب، بل في كل زوايا عالمنا الإسلامي.

يُعنى الفصل التمهيدي بتقديم البيئة التاريخية الداخلية والخارجية التي عاشت فيها الدولة العثمانية خلال القرن 13 هـ / 19 م، على اعتبار أنها الدائرة التاريخية الأولى في موضوعنا. وفي الفصل الأول قدّمتُ بلاد الشام، من حيث التحديد الجغرافي والمفاصل التاريخية الرئيسية التي سبقت انضواء بلاد الشام تحت الحكم العثماني، وهذا من منطلق أنّ بلاد الشام تمثل الدائرة التاريخية الثانية للموضوع بعد الدائرة العثمانية.

وكرّستُ الفصل الثاني لرصد الحالة الطائفية والمذهبية وواقعها في بلاد الشام وعلاقاتها بالسلطة العثمانية الحاكمة، من خلال البناء الإداري والمِلّي، ودور السياسة الدولية وآلياتها في تغذية المُيُول الطائفية. أمّا الفصل الثالث فيستعرض آثار الحالة الطائفية والمذهبية على الدولة العثمانية، وكذا على المجتمع الشامي. ويُختتمُ الموضوع بخاتمة تحوي جملة من الاستنتاجات والخُلاصات على ضوء فصول البحث في جميع أطواره.

الدراسات السابقة

تستند هذه الدراسة في متابعة فصولها إلى مجموعة متنوعة من المصادر والمراجع وفق طبيعة الحادثة المراد دراستها، وكذا طبيعة مضامين كل فصل، على أن تكون هذه المواد مُعاصرة للحادثة أو قريبة منها. إذ لا شك في أنّ الكتابة التاريخية الصحيحة لا يمكن ان تَـنْبَـني إلا بالنظر لهذه المواد، ولمّا كانت المدّة التاريخية للموضوع تمتد لأزيد من قرن من الزمن، فقد تعددت مصادر الموضوع ومراجعه، وعلى هذا اخترنا

مجموعة منها في هذا السياق، على أن تكون من المواد التي ساعدتنا وأفادتنا أكثر من غيرها:

أولا: الوثائق

-لا يمكن التحدث عن المواد التاريخية للبحث دون ذكر الوثائق التي أُتِيحَت لنا، إذ تبرز أهميتها في كونها تُؤرّخ لحقبة من تاريخ بلاد الشام، وتُقدم صورة عن وضع المجتمع الشامي في هذه المرحلة وعلاقات السلطة بطوائفه، وكذلك صور عن التدخلات الخارجية لحماية الأقليات الدينية. وهذه الوثائق ترجع إلى الجهات التالية:

- Ministère des Affaires étrangères Française**, Documents diplomatiques français**

- Qatar National Library**,** (http://www.qnl.qa/)

ثانيا: المصادر العربية

- إسكندر بن يعقوب ابكاريوس، **نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان،** وتكمن أهمية هذا المصدر في أنّ صاحبه تحدّث عن الوقائع التي شاهدها بنفسه. وقد أفادني في الحوادث التي جرت في بلاد الشام، خاصة في جبل لبنان، وكذا في دراسة العديد من الطوائف المشكلة للمجتمع الشامي.

- محمد كرد علي، **خطط الشام،** وتبرز أهمية هذا الكتاب، المُوزع على ست أجزاء، في كونه يؤرخ لحقبة طويلة من تاريخ بلاد الشام. وقد أفادني في استعراض وضع هذه البلاد عبر مختلف العصور، خصوصا الأحداث التي رافقت مرحلة الانتداب.

ثالثا: الرسائل الجامعية

- غانية بعيو، **التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية (الشام والعراق نموذجا 1839-1876م)**، واستعنت بهذه الرسالة الجامعية في عرض مختلف ظروف الإصلاحات العثمانية، وردود الفعل المحلية والدولية منها، وكذا بعض أدوات التأثير الأجنبي في طوائف بلاد الشام.

- عبد الفتاح إسماعيل غراب، **العمل التنصيري في العالم العربي، رصد لأهم مراحله التاريخية والمعاصرة،** وقد أفادتني هذه الرسالة في استعراض الأدوات التي استخدمت في التغلغل في بلاد الشام لزرع بذور الطائفية.

رابعا: المقالات

- محمد أحمد، **" الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني 1876-1918 "**. وهو مقال ورد في مجلة جامعة دمشق، يستعرض فيه صاحبه البُعد التاريخي لمدينة دمشق وحياة الطوائف وعلاقاتها.

- مسعود ظاهر، **"الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني، نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن 19"**، وهو من بين المقالات التي اعتمدت عليها في الحديث عن ظروف وعوامل التمركز الجغرافي للطوائف.

خامسا: المراجع العربية

- فيليب حتي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين،** وهو كتاب ذو قيمة تاريخية كبيرة لأنه شمل حقب مختلفة من تاريخ بلاد الشام، زيادة على الصراعات الطائفية التي كانت تشهدها بلاد الشام بين مختلف مكوناتها الطائفية والمذهبية.

- عبد الرؤوف سنو، **النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1877-1884 وتناول** فيه مرحلة ضعف الدولة العثمانية والتدخلات الأجنبية التي نجم عنها اتجاهات قومية، ودعوات الاستقلال والانفصال.

سادسا: المصادر الأجنبية

-Edwards, Richard**, La Syrie 1840-1862, histoire, politique, administration, population, religions et moeurs, événements de 1860.**

هو كتاب شامل، يستعرض فيه المؤلف مكونات المجتمع الشامي العرقية والمذهبية وأيضا مختلف الأحداث والصراعات الداخلية بين الطوائف النصرانية وغير النصرانية. وقد أفادني كثيرا في التعريف بالطوائف، وأعداد أتباع كل واحدة منها.

-Saint-Marc Girardin, **La Syrie en 1861. Condition des chrétiens en Orient.** وهو كتاب يتناول وضع المسيحيين في الشرق وفق القوانين التي أقرتها السلطة العثمانية في حركة الإصلاحات والتنظيمات في القرن التاسع عشر الميلادي.

وأخيرا، أتمنى أن يكون هذا العمل إسهاما في حقل الدراسات التاريخية لِفَهم أعمق ووعي أكثر للظاهرة الطائفية للتخلص من السَّوَاد الذي يَلُفُ حاضرنا، ويُعيق حركتنا ونُعيد البريق والتألق الذي فقدته أمتنا منذ زمن. وآمل أيضا أن يُساهم مُستقبلا في تسليط أضواء جديدة على المسألة الطائفية. كما أراني مَدين بفضل كثير، وعرفان وامتنان لأستاذي الكبير أرزقي شويتام على ما بذله من جهد في التوجيه والتّصويب، وأني لا أملك لرد جميله وفضله إلا إبداء مشاعر الامتنان والعرفان، ودعائي أن يحفظه الله تعالى ويمـنّ عليه، وعلى أهل بيته بالعافية والعمر المديد. كما أتقدم بالشكر الجزيل لجامعة الجزائر 2 ممثلة في قسم التاريخ بإدارته وهيئة التدريس فيه، والتي كان لها يد كريمة في وصول هذا العمل إلى مُبتغاهُ.

الفـَصلُ التمهِيدِيّ

العَوَاملُ المُؤَثّرَة في الوَضعِ العَامِّ للدَّولَةِ العُثمَانِيَة في القَرنِ 13 هـ / 19 م

المبحث الأول: العوامل الداخلية المؤثرة في الوضع العام للدولة العثمانية.

1- الحركة الوهابية.
2- ثورة اليونان.
3- حركة محمد علي في مصر.
4- ثورات البلقان الأخرى.
5- حركة الإصلاح والتنظيمات.

المبحث الثاني: العوامل الخارجية المؤثرة في الوضع العام للدولة العثمانية.

1- الجبهة الإيرانية.
2- الحملة الفرنسية على مصر.
3- الغزو الاستعماري (الجزائر – تونس – مصر).
4- حروب القرم.
5- مؤتمر برلين.

ظـلّت الدولة العثمانية واحدة من عدة قوى عُظمى أسّسَت لأعمدة خريطة ومُقومات التوازنات السياسية التقليدية في العالم. فـمنذ القـرن 10 هـ / 16 صَعَدت هذه الدولة وارتقت وبلغت شأوا رفيعا في المجد.

فقد امتدّ نفوذها ليشمل مساحات شاسعة من قارات العالم القديم: أوروبا وآسيا وإفريقيا. بَيْدَ أنّه بعد دور العظمة والقوة، لم تستطع هذه الدولة الصمُود أمام التحديات والتهديدات المُتعاظمة، والمؤامرات الداخلية والخارجية المتلاحقة التي بدأت تعصف بها.

ضف إلى الحالة السابقة، ذلك القُصُور في مُلاحقة ومُواكبة المتغيّرات الدولية الكبرى منذ القرن 12 هـ / 18 م، إن على الصعيد العلمي والسياسي أو الصعيد الاقتصادي والتنظيمي. فقد ظلّ العثمانيون يلتزمون الجمود والركود، ويَتَلَهَوْن ويَتَبَاهُون بالأمجاد الماضية التي صنعها السلاطين العظام.

ولأجل ذلك يعتبر القرن 13 هـ / 19 م في تاريخ هذا الدولة هو قرن الحركات الانفصالية والثورات الاستقلالية. فقد باتت هذه الدولة غير قادرة على البقاء لولا عدم اتفاق القوى الكبرى على شروط تقسيمها، وكان هذا هو الموضوع الأساسي لما أطلق عليه المسألة الشرقية.

المبحث الأول: العوامل الداخلية المؤثرة في الوضع العام للدولة العثمانية.

1-الحركة الوهابية في الجزيرة العربية.

انكفأت الدولة العثمانية وانصرفت عن ما كان يجري في قلب الجزيرة العربية وركّزت اهتمامها وانشغالها على المناطق الساحلية، خصوصا الحجاز الذي كان يمثل منطقة استراتيجية دينية وسياسية. ولهذا سيطرت الزعامات المحلية على الوضع في وسط الجزيرة.

مـع بدء ظهور وانـتشار دعـوة التوحيد والإصلاح الديني في منطقة نجد[1] خلال منتصف الـقرن 12 هـ / 18 م[2] - والتي أُطلـق عليها اسـم (الدعوة الوهابية)[3] - في الجزيرة العربية، حدث تصادم ديني وعسكري وسياسي مع الدولة العثمانية، التي كانت تعتبر نفسها دولة دينية، والوريث الشرعي للخلافة الإسلامية، ولها الحق في رعاية المقدسات الدينية. كما أنّ تاريخها يُشكّل محطة فاصلة وحاسمة في فترات المِحن والشدائد التي تعاقبت على العالم الإسلامي[4].

كان التعارُض بين الطرفين عميقا، والفرق بين النهجين واسعا وكبيرا. ولتثبيت دعائمها وترسيخها، وطرح منهجها بديلا لما كان سائدا، اعتبرت الحركة الوهابية السلطنة العثمانية دولـة كُفرية[5]، تحـارب عقيـدة التوحيد لإمعانها في نشـر الـتصوُف

---

[1] نجـد: اسم لأرض مرتفعة في جزيـرة العرب، تمتد بين أرض الـبصرة شمالا والطـائف جنوبا و الأحساء شرقا والحجاز غربا. تحتل اليوم القسم الأوسط من المملكة العربية السعودية. أنظر: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر أبي الفداء، **تقويم البلدان**، دارالطباعة السلطانية، باريس 1820، ص 79. و أنظر أيضا حسين محمد نصار وآخرون، **الموسوعة العربية الميسرة**، مج 4، ط 1، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 2010، ص 1839. و كذلك
Bouillet Marie-Nicolas, Dictionnaire universel d'histoire et de geographie, 26ème Édi librairie Hachette, Paris, 1878, p. 1335.

[2] سانت جون فيلبي، بعثة إلى نجد، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، ط 2، مكتبة العبيكان، الرياض 1998، ص 9.

[3] حسين بن غنّام، تاريخ نجد، تحقيق ناصرالدين الأسد، ط 4، دار الشروق، بيروت-القاهرة، 1994 ص81. و للتـوسُع في تاريخ الحركة الوهابية وسيرة مؤسسها محمد بن عـبد الوهـاب، والأحداث التي رافقت انتشارها. يُراجع : عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي، عنوان المجد في تاريخ نجد تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، ط 4، ج 1، دار الملك عبد العزيز، 1982.

[4] إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط 1، مكتبة العبيكان، الرياض 1996، ص7. وأنظر أيضا عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية: دولة إسلامية مفترى عليها ج1، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، 1980، ص54.

[5] حمد بن علي بن عتيق، النجاة و الفكاك من موالاة المرتدين و أهل الإشراك، تصحيح ومراجعة إسماعيل بن سعـد بن عتيـق، ط 7، مجلس إدارة البحـوث العلمية والإفـتاء، الريـاض، 2002 ص17-18. وأنظر أيضا سليمان بن سحمان، ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان، تصحيح عبد الرحمن بن سليمان الرويشد، مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية، د.ت.ن، ص 191.
قدّمت الدولة العثمانية خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، ولا يُنكر هذا الأمر إلا مُتحيّز أو مُتعصب جاحد، فقد أوصلت الإسلام إلى شرق أوربا، ووحدت المسلمين، ووقفت ضد الحملات الاستعمارية على

وشيوخها حُماة الشرك ورُعاتهُ[1]، فصيَّرَ هذا الاعتقاد الدولة العثمانية إلى الخصم الأول للحركة، ليس على قاعدة سياسية فحسب، بل دينية مذهبية أيضا.

اســتشعر أمير مكة مسعود بن سعيد[2] خطر الحركة الوهابية، فرَاسل الحكومة العثمانية مُحذرا من صاحبها محمد بن عبد الوهاب[3] واجتهاداته المُخالفة للمذاهب

=المشرق والمغرب في أوائل القرن 10 هـ / 16 م، ومنعت التشيُع الصفوي من الانتشار والتمدُد. وبالمقابل لم يذكر لنا التاريخ أن الحركة الوهابية فتحت أرضا أو صدّت عدوانا على بلاد الإسلام، فكل ما كان منها أنها اعتبرت المسلمين في شبه الجزيرة العربية مشركون، أجازت قِتالهم وقَتلهم وسلب ما لديهم على أنه غنيمة. وإنّ أعظم ما عُرفت به هذه الحركة، هو تكفير المُخالفين حتى في المسائل الاجتهادية الفرعية. وانتشار هذا الفكر في الوقت الرّاهن - مُعتمدا في ذلك على قوة السلطان والمال - هو أحد الأسباب الجوهرية للتمزُق الإسلامي، ومنبع ما نشاهده من تناحُر واحتراب بين الفرق الإسلامية في أنحاء متفرقة من بلاد المسلمين. وبذلك أضحت العقائد الوهابية رديفة للتكفير والتفسيق والتبديع للمُخالف، لدى جمهور المسلمين الذين يشكلون أغلب الأمة الإسلامية. إلى جانب ذلك، فقد ساهمت بريطانيا في وقت مُبكّر في تفتيت المسلمين، وتحويلهم إلى فئات متصارعة بين يدي هدفها الأكبر، وهو القضاء على الخلافة العثمانية. فمن يقرأ كتاب أعمدة الحكمة السبعة يُدرك أن الخطة البريطانية كانت تقتضي غرس إسفين المشروع الديني السياسي في الجزيرة العربية للقضاء على الخـلافة العثمانية الجامعة والطوق الأخير للأمة الذي يضمن وحدتها وأمانها برغم ما كان يعتري هذه الخلافة من ضعف ووهن. وللاطلاع على ما سلف عرضه لدور بريطانيا الخطير في دفع هذه الحركة إلى حمل السيف في وجه الخلافة العثمانية. يُراجع: توماس إدوارد لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة محمد نجّار، ط 1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1998. كما يُنصح بالرجوع إلى كتاب مستشار الملك عبد العزيز آل سعود، حافظ وهبه، للوقوف على دور بريطانيا في التآمر على الدولة العثمانية لصالح آل سعود. أنظر: حافظ وهبه، جزيرة العرب في القرن العشرين، دار المصري للطباعة، الهرم، د.ت.ن، ص 244 -249.

[1] عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، الدرر السُنية في الأجوبة النجدية، ط 6 ج 1، د.م.ن، 1996، ص 405.

[2] مسعود بن سعيد: تولى إمارة مكة في الفترة (1145 هـ/ 1733 م – 1165 هـ/1752 م).أنظر: إسماعيل حقّي جارشلي، أشراف مكة و أمرائها في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، ط 1 الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003، ص 179.

[3] محمد بن عبد الوهاب(1115-1206 هـ / 1703-1792 م): مصلح ديني، وُلد في عُيَيْنة بالمملكة العربية السعودية، أسس الحركة الوهابية، دعا إلى الأخذ بالكتاب والسنة، وطرح كل ماليس له أصل فيهما. أنظر: منير البعلبكي، مُعجم أعلام المورد، ط 1، مج 1، دار الملايين، بيروت، 1992، ص 419.

السُنية وتعاليمه المُضلِّلة للنّاس، فأمرته الحكومة بمناقشته لبيان خطأ ما يدعو إليه فإنْ هو أصرّ، وجبَ التصدّي له بحزم[1].

وجـد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ملاذا في بلدة الدرعية[2]، وسندا من أميرها محمد بن سعود[3]، ففي سنة 1157 هـ / 1744 م[4] قام حلف ديني سياسي بين الشيخ والأمير[5]. ثم أمر محمد بن عبد الوهاب أتباعه بالجهاد، وبدأت بعدها سلسلة طويلة من الغزوات[6] على السكان المخالفين في شتى المناطق[7].

---

[1] جارشلي، مرجع سابق، ص 179.

[2] الدرعية: بلدة أنشأها جد آل سعود مانع المريدي سنة 1139 هـ / 1446 م. أنظر: فيلبي، مصدر سابق، ص 9.

[3] محمد بن سعود: حاكم الدرعية في الفترة (1139 هـ/ 1726م حتى وفاته 1179 هـ/1765 م) ومؤسس الدولة السعودية الأولى. أنظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط 15، ج 6، دار العلم للملايين بيروت، 2002، ص 138. وأنظر أيضا فيلبي، ص 13.

[4] فيلبي، ص 14.

[5] حسن بن جمال بن أحمد الرّيكي، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، تحقيق عبد الله الصّالح العثيمين، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2005، ص73. وأنظر أيضا فيلبي، مصدر سابق ص 14.

[6] بن غنّام، مصدر سابق، ص 95 و ما بعدها.

يروي حسين بن غنّام - وهو مؤرخ معاصر للحركة الوهابية وأحد أنصارها - أن شيعة محمد بن عبد الوهاب وأتباعه ارتكبوا مذابح وفظائع في معظم المناطق التي أغاروا عليها ودخلوها سواء عنوةً أو سِلمًا، وأبادوا قرى بكاملها تحت راية الجهاد في سبيل الله! مما يدل على أن القتال كان قتال كُفار! كما قتلوا بعض أمراء المدن المجاورة غيلة داخل المساجد. إذ أنهم كانوا يتهمون من يخالف طريقتهم ومذهبهم بالشرك والارتداد، وبلادهم دار كفر، بينما تَسمُوا هم بالمسلمين الذين يحملون رسالة التوحيد الذي اختفي - بزعمهم - من الجزيرة العربية وبلاد المسلمين. ويتضح ممّا سبق أن غزوات الوهابيين لم تكن لتتِمّ دون مبرّر شرعي، وكان التكفير هو المُسوّغ لما كان يصاحب غزواتهم من جرائم. ولا ريب أننا هنا نسُوقُ هذه الروايات والوقائع الواردة في الكتاب المذكور بعيدا عن العصبية العمياء والرغبة في التشهير والتجريح، بل نريد أن نقف على حقيقة هذه الحركة ومنطلقاتها ومنهجها حتى يتسنّى لنا إدراك الجذور الفكرية و العقائدية التي تُؤجج الاحتراب الداخلي في مجتمعاتنا الإسلامية في الوقت الرّاهن.

[7] بن بشر، مصدر سابق، ص 45.

تمكنت الحركة من الاستيلاء على الجزيرة العربية وتوحيدها بما فيها الحجاز ودخلت الأماكن المُقدسة تحت رايتها[1]. ولعل أهم عامل ساعد في انتشار الدعوة الوهابية، وأكسبها القدرة على التمدُد، أنها انبعثت في أرض بعيدة عن سلطة الأمراء والجيوش، وبعيداً عن رقابة الدولة العثمانية. كما اِستغلت الحركة الأزمات التي ألمّت بهذه الدولة، والصراعات الناشبة بين سلاطينها والإنكشارية، وهو ما جعل محمد بن سعود يفكّر في مُزاحمة الدولة العثمانية بالمُطالبة بالخلافة، وراح يتطلّع إلى تأسيسها[2].

فـي هذه الأثناء بدأ توجّسَ وتَخوُف علماء أهل السنة في الجزيرة، الذين ارتابوا من نشاط الوهابيين ودعوتهم، فاتصلوا بوالي بغداد سليمان باشا لتخديره من عقائد الحركة الوهابية، وأيضا من أجل **" إيقاظ الدولة العثمانية من غفلتها وسباتها العميق"**[3]. فكاتب والي بغداد الأمير السعودي يُهدده ويتوعده، فردّ عليه الأمير بنفي الافتراءات التي بلغته، واعتبرها وشاية. ورغم ان الوالي العثماني قام بتجهيز حملة على الدرعية، إلا أنه تراجع عن إيفادها[4].

بعد استكمال توحيد الجزيرة العربية، تطلعت الحركة إلى حدودها الشمالية. ففي سنة 1212 هـ / 1797 م غزا الوهابيون شرق بلاد الشام وصولا إلى نابلس وانتصروا وغنموا[5].

---

[1] محمد المانع، توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة عبد الله العثيمين، ط 2، د.د.ن، السعودية 1415 هـ، ص 30. وأنظر أيضا جوهان لودفيج بوركهارت، مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، جامعة الملك سعود، د.م.ن، د.ت.ن، ص 68. وكذلك إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص 129.

[2] أيوب صبري، تاريخ الوهابيين، ترجمة مسعد بن سويلم الشامان، دار ترجمان حقيقت، د.م.ن د.ت.ن، ص 13.

[3] صبري، مرجع سابق، ص 14-15.

[4] نفسه ، ص 16.

[5] بن بشر، مصدر سابق، ص 309.

وفي عام 1216 هـ / 1801 م هاجموا كربلاء ونازلوا سكانها وهزموهم، وهدَموا فيها قبة موضوعة على قبر الحسين، واستوْلوا على كل ما وجدوه في البلد[1]. وفي عام 1222 هـ / 1807 م غزُوا البصرة، وهدّدوا كامل ولاية العراق العثمانية بعد هزيمة واليها سليمان باشا[2]. أضف إلى ذلك أنهم كانوا يعترضون قوافل الحُجاج، وينهبونها، فتوقف الناس عن الحج[3].

غـداة فشل محاولات ولاة العراق والشام في استئصال دعوة الوهابيين واجتثاثها، وسحق الطموح السياسي للسعوديين، والقضاء على دولتهم، قرّر السلطان العثماني محمود الثاني[4] تكليف محمد علي باشا[5] والي مصر للقيام بمهمة مواجهة الحركة الوهابية، والقضاء على الدولة السعودية، حيث كانت ظروف الدولة لا تتحمّل المواجهة مع الحركة الوهابية بإرسال الجيش العثماني[6].

بعـد حملات متعددة، تمكّن والي مصر محمد علي من إخراج السعوديين من مكة والمدينة سنة 1233 هـ / 1818 م، وافتكاك معقلهم الأول الدرعية[7]. وأعاد الحكم العثماني إلى منطقة الحجاز، وشتّت شمل الوهابيين في أطراف الجزيرة العربية.

---

[1] بن بشر، مصدر سابق ، ص 257-258. وأنظر أيضا الرّيكي، مصدر سابق، ص 157.

[2] أيوب صبري، ص 17. وأنظر أيضا بوركهارت، مصدر سابق، ص 70.

[3] ابراهيم أفندي، مصباح الساري ونزهة القاري، ط 1، د.ن، بيروت، 1272 هـ، ص 31.

[4] محمود الثاني: سلطان عثماني، حكم في الفترة (1222 - 1254 هـ / 1808 - 1839 م). أحدث إصلاحات في الإدارة والجيش، وقضى على الإنكشارية. أنظر: نصار وآخرون، مج 6، مرجع سابق ص 3060. وأنظر أيضا البعلبكي، مرجع سابق، ص 420.

[5] محمد علي: والي مصر في الفترة (1219- 1265هـ / 1805- 1849م). أنظر: البعلبكي، ص 420. وأنظر أيضا نصار وآخرون، مج 6، ص 3053.

[6] الميرالاي إسمعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، تقديم حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت 1988، ص 370.

[7] بن بشر، مصدر سابق، ص 331.

ولكنّ الوضع بقي سجالا بين الطرفين في حملات كرٍ وفرٍ[1]، حتى نجح السعوديون في إعلان قيام دولتهم، وتأسيس مُلكهم في الجزيرة العربية عام 1351 هـ / 1932 م[2].

إننا في هذه المحاولة التقييمية للحركة الوهابية وعلاقاتها السياسية والعقائدية بالدولة العثمانية، نبحث، من منطلق استقراء الحقيقة والالتزام بها قدْرَ ما تُسعِفُنا بها روح المؤرخ الباحث المُنصف، في الآثار الخطيرة والقاسية التي أحدثتها هذه الحركة في كيان الخلافة (الرجل المريض) التي كانت تتربص بها القوى المُعادية في أوربا للإجهاز عليها. ولا بأس هنا أن نورد بعض تلك الآثار:

أولا: لاقَت دعوة محمد بن عبد الوهاب التي حملتها أسلحة آل سعود أنصارا كُثُرا ليس في الجزيرة العربية فحسب، بل وخارجها، حيث تغلغلت الدعوة في الشام والعراق.

ومع انتشار تعاليم الحركة، ووضْعِ يدها على الأماكن المقدسة في الحجار وقع التصادم مع هذه التعاليم[3] المتعارضة في بعضها مع المذاهب السُنية التي كانت منتشرة في البلاد العثمانية، بما فيها المذهب الحنفي، مذهب الدولة الرسمي.

وكان هذا الأمر يمثل تهديدا للسلطة الدينية والمعنوية للدولة العثمانية، إذ أن حرمانها من الإشراف على الحرمين يُفقدها الزعامة التي كانت تتمتع بها في العالم الإسلامي.

---

[1] للمزيد حول الحملات المصرية في الجزيرة العربية و سيرها و أحداثها، أنظر: عبد الفتاح حسن أبو علية، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، ط 2، دار المريخ، الرياض، 1991، ص 67 و ما بعدها. وأنظر أيضا الرّيكي، مصدر سابق، ص ص 193-210.

[2] محمد المانع، مرجع سابق، ص 238.

[3] للاطلاع على تعاليم الدعوة الوهابية، والرد عليها. أنظر: أحمد بن السيّد زيني دحلان، الدّرر السُنية في الرد على الوهابية، ط 1، دار غار حراء، دمشق، 2003، ص 104 وما بعدها.

ثانيا: رافق التمدُد الديني الوهّابي تمدُدا سياسيا سعُوديا، وكان ذلك تحديا أثّر على الوضع السياسي للدولة العثمانية المُتهاوية في تلك الفترة الصعبة من تاريخها وإجهادا لها في ظل ضعف كان يستشري في مفاصلها، ويَحُدُّ من قدرتها على الإصلاح والتحديث، وإيقاف مسار التدهور، إذ ساهم انتشار الحركة واتساعها في تنامي عملية التفكيك والانهيار.

ثالثا: لقد فرض الواقع الجديد الذي نتج عن الحركة الوهابية ورؤيتها الجديدة للتوحيد والشرك، تَوزُع المجهود العثماني بين هذه الحركة والثورات الانفصالية الأخرى خصوصا في البلقان[1]. وأربك نشاط العثمانيين في التصدّي لها.

2- ثورة اليونان.

في مطلع القرن 13 هـ / 19 م كان الشطر الأكبر من البلقان وشعوبه النصرانية يشكل جزءا من الدولة العثمانية. وكانت بهذا الحُضور تحتل موقعا استراتيجياً وحسّاسا، جعل وجودها ومصيرها أمراً حيوياً يستقطب اهتمام القوى الكبرى.

فتح العثمانيون اليونان في عهد السلطان محمد الثاني[2]، وتمتّعت - كسائر البلاد العثمانية - بروح التسامح الديني والمُعاملة الحسنة والأمن، وازدهرت التجارة في

[1] البلقان: شبه جزيرة جنوب أوربا، بين البحر الأسود شرقا، والبوسفور وبحر مرمرة والدردنيل وبحر إيجة جنوبا، وبحر أيونيا والبحرالأدرياتيكي غربا، ونهرا السافا والدانوب شمالا. أخذت اسمها من جبال البلقان التي تمتد شرق بلغاريا، وتمتد حتى البحر الأسود. أنظر:
Malte-Brun, Précis de la géographie universelle, T 4, Bureau des blications llustrées, Paris, 1845, p. 296.
وأنظر أيضا: نصار وآخرون، مرجع سابق 308، ص 762.

[2] محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقّي، ط 1، دار النفائس بيروت، 1981، ص 175.

يد اليونانيين[1].

ولكن الأفكار الوطنية والقومية التي أنتجتها الحروب التوسعية النابليونية، والتدخل الأوربي المباشر لا سيما من قِبل روسيا التي أوعزت للقساوسة اليونانيين بتشكيل الجمعيات الثورية، وشجعت على الثورة[2]. ودفع كلّ ذلك باليونانيين نحو التحرّك للمطالبة بالاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية[3].

في 20 ربيع الثاني 1236هـ / 25 جانفي 1821 م أعلن أحد القساوسة اليونان الأرثوذكس بأنّ الوقت قد حان لتحرير البلاد من السيطرة العثمانية[4]. ومنذئذ أخذت الجمعيات الوطنية ذات الأهداف الثورية تتشكّل وتظهر، وراحت تنشر الأفكار الثورية المعادية للدولة العثمانية والمسلمين.

اتخذت الجمعيات الثورية اليونانية من روسيا والنمسا مراكز لها لتكون على اتصال وثيق بالحكومات الأوربية، وبعيدا عن الرقابة العثمانية[5]. كما لاقَت هذه الجمعيات تعاطفا وعونًا من لدُن الرأي العام في الغرب، خاصة الأرستقراطية

[1] مصطفى كامل، المسألة الشرقية، ط 1، ج 1، مطبعة الآداب، مصر، 1898، ص 50-51. وأنظر أيضا محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 411.

[2] سرهنك، مصدر سابق، ص 274. وأنظر أيضا محمد فريد بك ، ص 412.

[3] علي حسّون، العثمانيون و الرّوس، ط 1، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، 1982،ص 92.

[4] Alexander Mikaberidze, Conflict and Conquest in the Islamic World: A Historical Encyclopedia, V 1, ABC-CLIO, California, 2011, p. 349.

[5] محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة، ط 2، دار النفائس بيروت، 2008، ص 337.

والبورجوازية الأوربية المُتأثرة بالثقافة اليونانية[1]. وأيضا بسبب تبني هذه الجمعيات فكرة إحياء الإمبراطورية البيزنطية، وإخراج العثمانيين من كامل أوربا[2].

بدأت الثورة[3] في المورة (Morée)[4] جنوب اليونان في 1 جمادي الثاني 1236هـ / 6 مارس 1821 م[5]، ورافقتها أعمال الانتقام والاضطهاد ضد المسلمين[6]. ومع وتزايُد الإمدادات الخارجية من جانب، وفشل السلطة العثمانية في إخمادها من الجانب الآخر، تفاقم أمر الثورة وانتشرت في كامل أرجاء اليونان[7].

كان من الصعب على السلطان محمود الثاني استعادة السيطرة على اليونان بسبب المِحن والمشاكل الداخلية، خاصة وأنه كان يعيش تحت رحمة الجيش الإنكشاري، ويستعد لتوجيه الضربة القاضية له، فَعَهِدَ إلى محمد علي واليه على

---

[1] حقي العظم، تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان، ط 1، مطبعة التّرقي، مصر، 1902، ص 9. وأنظر أيضا محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 415. وكذلك طقوش، ص 338. و كذلك روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ط 1،ج 2، دار الفكر، القاهرة، 1993، ص 43.

[2] يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، ط 1، مج 1، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1988، ص 672.

[3] للتوسع في مجريات الثورة اليونانية و تفاصيلها، تُراجع مذكرات أحد قادتها وزعمائها:
Contantin Métaxa, Souvenirs de la guerre de l'indépendance de la Grèce (1821-1830),Traduit du grec par Jules Blancard, Ernest leroux editeur, Paris 1888.

[4] المورة: شبه جزيرة في اليونان، اسمها القديم (به لوبونيز)، و سُمِيت بالمورة في القرون الوسطى. أنظر: العظم، ص 7.

[5] Raffenel, Claude-Denis, Histoire des événémens de la Grèce, Dondey-Dupré père et fils, Paris, 1822, p. 19..

[6] إبراهيم أفندي، مصدر سابق، ص 265.

[7] سرهنك، مصدر سابق، ص 374. وأنظر أيضا أوزتونا، ص 673.

مصر اخماد الثورة فيها. ووافق الوالي طامعًا في إلحاق كريت (Crète)[1] والمورة بحكمه في مصر[2].

جــهّز محمد علي أسطولا ضخما تحت قيادة ابنه، وتوجّه إلى جزيرة المورة في 1239هـ / 1824 م[3]، وخاض معارك برية وبحرية، إلى أن تمكّن من توقيف حركة التمرد. واستعادت القوات العثمانية أثينا في ذو الحجة 1242هـ / جوان 1827 م[4].

أثارت العمليات العسكرية العثمانية المصرية في اليونان غضب واِستياء أوربا خاصة في كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا، وزادت من قناعاتها بضرورة التحرّك لوضع حد لما كان يجري.

التأمت هذه الدول في مؤتمر لندن بتاريخ 30 ذو القعدة 1241هـ / 6 جويلية 1826 م أقرّت فيه إرسال أسطول مشترك ليضع حدا للتدخل المصري - العثماني في اليونان، وإلزام الباب العالي منحها استقلالا إداريا ضمن سيادته، وإلاّ لجأت إلى القوة لتنفيذه[5].

رفض السلطان محمود الثاني بقوة هذه المطالب، لأنه ليس من حق دول أوربا التدخل في الشؤون العثمانية[6]. كما أرسل إلى محمد عليّ يُخبره بهذا الرفض ويحُثُّه على مواصلة العمليات العسكرية في اليونان.

في غضون ذلك كانت الدول الأوروبية لا تفتأ تُعين اليونانيين وتُمدُهم بكل ما يحتاجون إليه لإنقاذ ثورتهم من جهة، وتتفاوض مع السلطان العثماني لقبُول مطالبها

---

[1] كريت: من بين أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط، تقع قُبالة مدخل بحر إيجة. أنظر:
Bouillet, op.cit., p. 476.

[2] مانتران، مرجع سابق، ص 42.

[3] Mikaberidze, op.cit., p. 349.

[4] مانتران، ص 43.

[5] سرهنك، مصدر سابق، ص 292.

[6] نفسه، ص 292.

في الجهة الأخرى. إذ لـم يرُق لها الانتصارات العثمانية التي تحققت على أرض اليونان.

تدخلت القوى الاوربية تحت غطاء المسألة الشرقية[1]، وحاصرت الأسطولين العثماني والمصري في ميناء نافارين (Navarin)[2]، وسلّطت عليهما نيران مدافع أساطيلها المتحالفة[3]، ودمرتهُما تماما بتاريخ 29 ربيع الأول سنة 1243 هـ / 20 أكتوبر 1827 م[4].

كانـت الخسائر المصرية في هذه الحرب فادحة، تزامنت مع ضغوط أوربية شديدة، أجبرت الوالي المصري على الانسحاب من اليونان، وأيضا حَذَت به إلى التفكير في النأي بنفسه عن السياسة العثمانية[5]. وبعد سلسلة من المؤتمرات الأوربية أجبرت الدولة العثمانية على الاعتراف باستقلال اليونان[6]. ووقّع السلطان محمود الثاني الاتفاق الذي يعترف فيه بالاستقلال رسميا في 22 صفر 1248هـ / 21 جويلية 1832 م[7].

---

[1] المسألة الشرقية: أزمة النزاع بين أوربا و الدولة العثمانية بخصوص البلاد الواقعة تحت سلطتها. أو هي مسألة الوجود العثماني ذاته في أوربا. أنظر: مصطفى كامل، مصدر سابق، ص 5.

[2] نافارين: مدينة في المورة اليونانية، عُرفت بالواقعة التي دُمّر فيها الأسطول العثماني المصري. أنظر: العظم، مصدر سابق، ص 9.

[3] كان أسطول التحالف الأوربي مُكوّنا من روسيا و إنكلترا و فرنسا، في حين كان الأسطول العثماني الرّاسي في نافارين مُشكّل من: الأسطول العثماني والمصري والجزائري والتونسي. أنظر: سرهنك مصدر سابق، ص 292. أما بقية المصادر و المراجع التي استعنّا بها في هذه الواقعة فاكتفت بذكر دور الاسطولين العثماني والمصري، ولم تأت على أيّ ذكرلدور الأسطولين الجزائري والتونسي في هذه المعركة.

[4] العظم، ص 10. وأنظر أيضا مانتران، ص 45.

[5] عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، ط 5، دار المعارف، القاهرة، 1989، ص 213 و أنظر أيضا طقوش، مرجع سابق، ص 343.

[6] العظم، ص10.

[7] Mikaberidze, op.cit., p. 349.

كشفت الظروف والوقائع التاريخية التي مرّت بها الثورة اليونانية عن قضايا أساسية تحكمت - ولا تزال فيما يبدو- في علاقات الشرق الإسلامي والغرب النصراني عبر التاريخ، ولهذا يعتبر الصراع العثماني الأوربي امتدادا طبيعيا لتلك العلاقات على مستوي المحركات والدوافع. ونُوجز تلك الحقائق في النقاط التالية:

أولا: أحاطت أوربا ثورة اليونانيين بهالة من القداسة الدينية والتاريخية، واكَبَهَا حماس شديد وقوي، وإرادة جامحة في الانتقام من العثمانيين المسلمين في أوربا من خلال مساعدة اليونانيين باسم الأخوة المسيحية، والسعي الحثيث لاستئصالهم وإعادة نصب الصليب في آيا صوفيا[1].

لـيس المُراد هنا إقصاء أو إغفال المحرّكات والعوامل القومية والأطماع السياسية والاقتصادية، إذ لا شك أن الصراع ينطوي على استراتيجية للهيمنة وإيديولوجية للإخضاع والانتشار والسيادة العالمية. غير أنّه يبدو أن عامل الدين كان يُستحضر بقوة ليُمثل أحد أهم مُدخلات الصراع، والتي برزت بشكل جلي في التحريض على ما سُمي بالبربرية الإسلامية[2].

لقد انتشرت في أوربا حينها صورة نمطية عرقية وثقافية تُظهر العثماني في صورة الوضيع والفاسد والبربري الماكر[3]. كما حُشد الناس وراء الكنيسة وقساوستها الذين كانوا هم الأوائل الداعين إلى الثورة[4]، هذا زيادة على الحركات الوطنية الاخرى.

---

[1] Tèophile L'avallee, L'empire ottoman depuis les temps anciens jusqu'à nos jours, Garnier frères,librairie éditeurs,paris, 1855. p. 468.

[2] Alfred Lemaître, Musulmans et chrétiens : notes sur la guerre de l’indépendance grecque, Librairie G.Martin, Paris, 1895, p. 3.

[3] أسامة المقدسي، ثقافة الطائفية، ترجمة ثائر ديب، ط 1، دار الآداب، بيروت، 2005، ص 28.

[4] إبراهيم أفندي، مصدر سابق، ص 265. وأنظر أيضا الرافعي، مرجع سابق، ص 191.

ثانيا: تردَّد كثيرًا في الأدبيات الأوربية خلال هذه الفترة الحديث عن الفكر الفلهيليني أو (محبة الإغريق) الذي ذاع بين المثقفين والأدباء والشعراء في مدن أوربا للدفاع عن حق الشعب اليوناني في التحرر من الاحتلال العثماني[1]. وصوّروا ثورته على أنها صراع بين المُثل العليا لليونان وحضارتها العريقة، وبين الأتراك القُساة[2].

لــم يكن غريبا عن تلك الاتجاهات الأدبية التي كانت في عمومها ذات صبغة لبرالية أن تعْمدَ هي الأخرى إلى الدين لتحريك المشاعر، وتجنيد الجماهير في أوربا. فقد عبّر أحد رُوَادها عن **" مبلغ الخجل الذي يشعر به، وفظاعة ما يحدث وهو يرى شعبا وإيمانا يرزحان تحت وطأة الهلال"**[3].

لا غَرْوَ إذا عَمَدنا من خلال ما سلف إلى ترتيب العامل الديني والتاريخي في رأس وصدارة المحرّكات التي جعلت أوربا مُجتمعةً - برغم خلافاتها العميقة تُجاه قضايا تلك الفترة، وفي مقدمتها الأزمة المصرية - تقف بحزم في وجه الدولة العثمانية لافتكاك اليونان منها.

3- حركة محمد علي في مصر.

أدّت موقعة نافارين إلى فُتور العلاقة بين والي مصر والسلطان العثماني، إذ سُرعان ما دخلت مرحلة التعقد عندما رفض الباب العالي تقديم تعويضات لمحمد علي عن الخسائر الجسيمة والمُكْلفة التي تكبّدها في معركة نافارين[4].

---

[1] Bibliothèque Nationale de France, Le centenaire de Navarin 1827-1927, Édition Albert Morancé, Paris, 1927, p. 4.

[2] نصري ذياب خاطر، تاريخ أوربا الحديث، ط 1، الجنادرية للنشر والتوزيع، عمّان، 2011، ص 97-98.

[3] Lemaître, op.cit., p. 4 .

[4] الرافعي، مرجع سابق، ص 217.

على إثر خلاف نشب بين والي مصر ووالي عكا[1]، أمر محمد علي بتجهيز حملة على بلاد الشام، والتوغل في الأناضول (Anatolie)[2]، مستغلا ضعف السلطان العثماني محمود الثاني، وانشغاله بتكوين جيش جديد بدلا من الإنكشارية[3].

خرج محمد علي عن طاعة السلطنة، وبدأ في ابتلاع ممتلكاتها. فحاصرت القوات المصرية عكا برًا وبحرًا، ودخلتها عُنوة - رغم مناعتها - بتاريخ 27 ذي القعدة 1247 هـ / 28 أفريل, 1832 م[4].

إنّ الانتصارات المتتالية التي حققها محمد علي على الباب العالي في بلاد الشام ثم الاناضول لاحقا، إنّما تعود إلى أن الجيش المصري كان أكثر تنظيما وتسليحا وأيضا تجربةً من خلال سلسلة الحملات التي كان قد قام بها في جِوار مصر[5].

اعتبرت السلطة العثمانية هذا العمل عصيانا وتمردا[6]. ثم اندفعت هذه القوات صوب مدن الشام الأخرى واقتحمتها الواحدة تلو الأخرى[7]. واستمرّت في زحفها

---

[1] للاطلاع على حيثيات و تفاصيل هذا الخلاف الذي كان فاتحة الحرب بين مصر و الدولة العثمانية. يُراجع: محمد اديب آل تقي الدين الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق، ج 1، المطبعة الحديثة، دمشق 1927، ص 259. وأنظر أيضا محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 449. وكذلك مصطفى كامل مصدر سابق، ص 87 وكذلك أوزتونا، مرجع سابق، ص 15.

[2] الأناضول: يسمى أيضا آسيا الصغرى، يشكل نقطة التقاء آسيا بأوربا. وهو عبارة عن هضبة جبلية عالية تُشكِل الجزء الأكبر من دولة تركيا اليوم، فيها العاصمة أنقرة. أنظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، مج 1، ط 3، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ص 377. وأنظر أيضا نصار وآخرون، مرجع سابق، ص 308.

[3] مصطفى كامل، مصدر سابق، ص 8. وأنظر أيضا أوزتونا، مرجع سابق، ص 15.

[4] مؤلف مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، ط 1، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، 1900، ص 47. وأنظر أيضا الرافعي، مرجع سابق، ص 224.

[5] سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، ط 1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، 1997، ص 326.

[6] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 450.

[7] لتتبُع تفاصيل عمليات الجيش المصري العسكرية في الشام و الأناضول. أنظر: مؤلف مجهول مصدر سابق، ص 47 و ما بعدها. وأنظر أيضا الرافعي، ص ص 223-255، و كذلك
L'avallee , op.cit., p. 49.

وصولا إلى الأناضول، وأضحت استانبول مفتوحة أمام محمد علي، وكاد أن يُدرك أسوارها، ويحتلها لولا تدخل القوى الأوربية التي أكرهتهُ على التراجع.

كان من نتائج هذا الواقع الذي فرضته العمليات العسكرية المصرية، انقسام البلاد العثمانية عمليا إلى قسمين: قسم تحت سلطة الباب العالي، والقسم الآخر بيد محمد علي[1]. وهو ما استدعى تدخل القوى الأوربية لفرض حلول المسألة على الطرفين المسلمين.

استعــان السلطان محمود الثاني بالقوات الروسية لحمايته من الخطر الذي أصبح على مشارف عاصمة دولته[2]. الأمر الذي دفع بالطرف المصري إلى الموافقة على صلح كوتاهية (Kütahya)[3] بتاريخ 24 ذي الحجة 1248 هـ / 14 ماي 1833 م[4].

لــم يكن لهذا الصلح أن يُعمّـِرَ طويلا، فقد قَبِل به والي مصر على مضض، إذ لم يكن ليرضى بأن تذهب الانتصارات التي حققها سُدى[5]. في حين كان السلطان العثماني يَستعدُ لجولة أخرى ليكسر شوكة تابعه وخصمه العنيد بمؤازرة بريطانيا.

جهـز السلطان جيشا آملا في الظفر بالجيش المصري، فيمْحو ما لحقه من العار والهزيمة[6]، ويسترد ما انتزعه محمد على من أراضي السلطنة[1]. وفي هذه الأثناء

---

[1] الجميل، مرجع سابق، ص 328.

[2] سرهنك، مصدر سابق، ص303.

[3] كوتاهية: مدينة تركية تقع في الشطرالآسيوي. في الجنوب الشرقي لاستانبول. أنظر:
Bouillet, op.cit., p. 1012.

[4] للاطلاع على بنود و مضامين الصلح المُوقع في كوتاهية بين الطرفين المصري والعثماني. أنظر: مؤلف مجهول، مصدر سابق، ص 63. وأنظر أيضا
Édouard Gouin, L'Égypte au XIXe siècle, histoire militaire et politique, anecdotique et pittoresque de Méhémet-Ali, Ibrahim Pacha, Soliman Pacha, Paul Boizard, Paris, 1847, p. 423.

[5] Ibidem, p. 425.

[6] سرهنك، مصدر سابق، ص303.

توفي السلطان محمود الثاني قبل أن يعْلم بأخبار الهزيمة النكراء التي لحقت بجيشه في معركة نيزيب (Nézib)[2] بتاريخ 11 ربيع الثاني 1255هـ / 24 جوان 1839 م[3].

أثـارت انتصارات محمد علي المتتالية على السلطان العثماني حنق الدول الأوربية وخشيتها من ازدياد نفوذه، ورغبته الجامحة في بناء دولة قوية تُعوّض الدولة العثمانية المريضة، وتكون مصدرا يهدد التوازنات الدولية[4].

ولهذا قامت هذه الدول بإرغامه، على إثر مؤتمر لندن 15جمادي الأول 1256هـ / 15 جويلية 1840، على وقف عملياته العسكرية والعودة إلى مصر، وبقاء سلطته فيها له ولأولاده، يرثون حكمها بعده[5]. وفي جانب آخر كان هذا الخروج المصري من بلاد الشام هزيمة سياسية كبيرة لفرنسا التي أيّدت خطواته ومساعيه، ورافقته لتحقيق طموحاته الجامحة.

مـن خلال استعراضنا العام للأزمة المصرية ومُجرياتها، يمكن أن نخلُص إلى جملة من الاستنتاجات، نُلَخِصُهَا في النقاط التالية:

أولا: لم يكن الخلاف الذي نَشَبَ بين محمد علي ووالي عكا سوى ذريعة لاكتساح الشام، وُصُولاً إلى مشارف استانبول. فقد كان هذا الرجل يرى في نفسه

---

[1] الرافعي، ص 270.

[2] نيزيب: مدينة تركية تقع في الشطر الآسيوي، بجوار مدينة حلب السورية. اسمها الأصلي نصيبين وتمّ تحريفه في اللغات الأجنبية إبى نيزيب. أنظر: الرافعي، مرجع سابق، ص 274. وأنظرأيضا سرهنك، مصدر سابق، ص 304. وكذلك

Bouillet, op.cit., p. 1344.

[3] أوزتونا، مرجع سابق، ص 18. وأنظر أيضا

Gouin, op.cit., p. 427

[4] مصطفى كامل، مصدر سابق، ص 102. وأنظر أيضا

L'avallee, op.cit., p. 494

[5] الرافعي، ص 290.

الأحق بقيادة إمبراطورية قوية[1] يَبْنِيهَا على أنقاض الدولة العثمانية المريضة[2]. فقد صرّح يوما قائلا: **" ...إن الشعب في كافة الإمبراطورية (العثمانية) قد فقد ثقته في حكومة الباب العالي، وهو متعلق بي"**[3].

إن محمد علي بخروجه عن السلطة المركزية، وحَمْلِه السلاح ضدّها تَسبّبَ في مصائب كثيرة تساقطت على مصر والدولة العثمانية على حدٍ سواء. الأمر الذي يمكننا معه اعتبار الأزمة المصرية محطة فارقة في تاريخ الطرفين خلال القرن 13 هـ / 19 م.

لقد كان لهذه المحطة أثرها الظاهر على الكيان الإسلامي بقيادة الدولة العثمانية، وعلى قدرته في مُجابهة التحديات والتهديدات الحضارية والسياسية التي فرضها الغرب. زيادة على ذلك، فإن الازمة المصرية وما تبعها من حروب وانقسامات أضرّت بحركة الإصلاحات الوليدة.

ثانيا: أصبح من الثوابت والمسلّمات، بل من المُقدسات لدى عدد ليس بالقليل من الباحثين والمؤرخين الذين اهتموا بدراسة تاريخ مصر في عهد محمد علي بأنه باني الدولة المصرية الحديثة وباعث نهضتها. إلا أن هذا الحكم - فيما يبدو - يحمل الكثير من التزييف والمُغالطات والتشوُهات، التي تُعاكِس كلها منطق الحقيقة التاريخية.

إنّ النهضة المنسوبةَ لوالي مصر عجزت عن بناء دولة قوية، لها من المقومات ما يجعلها تمتد وتُعمّر في التاريخ، وتحفظ لمصر سيادتها على الأقل

[1] مؤلف مجهول، مصدر سابق، ص 10. وأنظر أيضا محمد رفعت عبد العزيز، الجيش المصري و حروب الشام الأولى - دراسة في وثائق عابدين، ط 1، عين للدراسات، القاهرة، 1999، ص 15.

[2] L'avallee, op.cit., p. 493.

[3] الجميل، مرجع سابق، ص 325.

لقرون. فبعد سنوات يسيرة من وفاة محمد علي بدأت المخططات الخارجية تعصف بمصر، لينتهي بها المطاف الى يد الاستعمار بأيسر الطرق.

رابعا: يبقى أن نذكر في هذا السّياق أنّ عهد الإصلاح في اليابان، والذي يطلق عليه العهد الميجي (1868- 1912 م)، قد بدأ بعد فترة من انطلاق نهضة مصر بقيادة محمد علي. وواضح أنّ تورّطه في الخروج عن السلطة العثمانية كلّفه الكثير من الجهد والمال والوقت، كان يمكن توظيفها في بناء نهضة حقيقية، تُحوّل مصر إلى قلعة منيعة، تنعم بالتطور والازدهار.

رابعا: لقد انصبّ جُهد محمد علي في بناء أسرة قوية تتوارث حكم مصر فتعاظم دور وسطوة (الأسرة الدولة) والنخبة الموالية لها، ولم تكن إصلاحاته موجهة صوب الشعب المصري الذي كان يُكابد الجهل والبؤس، ويعاني الظلم والاستبداد. والحقيقة التي يُقرّها تاريخ النهضات، أنّ أساس إطلاقها وإنجاحها الأول هو الإنسان، وهو ما لم نعثر له على أثر في حركة محمد علي الإصلاحية.

ويجب أن نُشيرُ هنا، إلى أنّ كل ما كان يتم في مصر إبّان حكم محمد علي، إنْ على المستوى السياسي والاقتصادي أو على المستوى التنظيمي لمختلف شؤون الدولة كان يتم تحت الرعاية الفرنسية الكاملة.

فقد كانت فرنسا معه طالما هو معها[1] خاضعا ومطيعا لمشوراتها. وهو الأمر الذي تكشف عنه واحدة من مراسلاته[2] إلى ملك فرنسا لويس فيليب[3]. بل إن هناك

[1] مؤلف مجهول، مصدر سابق، ص 10.

[2] لمطالعة تفاصيل الرسالة. أنظر: مصطفى كامل مصدر سابق، ص ص 105-109.

[3] لويس فيليب (1773-1850م): ملك فرنسا في الفترة (1830-1848م). تولّى الحُكم بعد ثورة 1830م التي أطاحت بالملك شارل العاشر. أنظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 395.

من يرى أن حملاته العسكرية في الشام كانت بإيعاز منها حتى تصرِف نظر الدولة العثمانية وتُشغلها عن احتلالها للجزائر[1].

4- ثورات البلقان الأخرى.

- الصّرب: دخلت بلاد الصرب تحت سلطة الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح سنة 860 هـ / 1456 م[2]. غير أن الأوضاع فيها لم تهدأ بسبب حِرص وُلاَتِها على الاستقلال[3]. فنشبت فيها ثورات ابتداء من سنة 1220 هـ / 1806 م، مدفوعة بالأفكار القومية التي نشرتها الثورة الفرنسية، والمُعاملة القاسية للسكان من قِبل الإنكشارية[4].

في سنة 1254هـ / 1839 م عُقدت معاهدة أدرنة بين الباب العالي وروسيا حَصَلَ بموجبها الصرب على الاستقلال تحت السيادة العثمانية[5]. إلا انّ ذلك لم يكن ليُرضي آمالهم، فلجأوا إلى التنكيل بالمسلمين لإرغامهم على النزوح من البلاد[6].

إلى جانب ذلك، عقد الصرب حلفا في 23 جمادي الأول 1293هـ / 16 جوان 1876م مع الجبل الأسود هدفه تحرير كامل النصارى الخاضعين لسلطة العثمانيين، وتولى قيادة قوات الحلف جنرال روسي[7]، لكنها مُنيت بهزيمة قاسية على يد الجيش

---

[1] محمد رفعت، مرجع سابق، ص 11.

[2] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 168. وأنظر أيضا أوزتونا، مرجع سابق، ص 150.

[3] أحمد فارس الشدياق، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، جمعه سليم فارس الشدياق، ط 1، ج 6 مطبعة الجوائب، الأستانة، 1295 هـ، ص 370.

[4] أوزتونا، ص 655. وأنظر أيضا طقوش، مرجع سابق، ص 334.

[5] الشدياق، ص371. وأنظر أيضا سرهنك، مصدر سابق، ص 299.

[6] علي حسّون، مرجع سابق، ص 119.

[7] مصطفى كامل، ج 1، مصدر سابق، ص 150. وأنظر أيضا محمد فريد بك، ص 610.

العثماني[1]. وتحت ضغط القوى الكبرى لاسيما روسيا، والأزمات التي كانت تمُرُ بها الدولة، نال الصرب استقلالهم في 1283 هـ / 1876 م[2].

- الجبل الأسود: فتح العثمانيُون هذه البلاد عام 901 هـ / 1496 م، ولكنهم آثروا الاكتفاء بالتبعية الاسمية ودفع الجزية. وفي 1274 هـ / 1858م وقعت اضطرابات بين الحامية العثمانية والسكّان، وتمكن الثوار من دحر الفرق العثمانية. وانتهى الأمر بتوقيف القتال بعد مفاوضات بين الطرفين[3].

اغتنم أمير الجبل الأسود انصراف السلطة العثمانية إلى أزماتها، وأعلن الثورة عليها، غير أنه هُزم وأُجبر على توقيع الصلح الذي تعهّد فيه بالبقاء ضمن السيادة العثمانية. لكن الأمير عاد وتنكّر للصلح بتحريض من دول أوربا، فلم يجد الباب العالي بُدا من التخلي عن هذا الإقليم ومنحه الاستقلال سنة 1280 هـ / 1864 م[4].

- الأفلاق و البغدان: تمكن السلطان محمد الفاتح سنة 859 هـ / 1455 م من اخضاع هذا الإقليم[5]. وبعد نشوب أزمات البلقان، سمح الباب العالي بتوحيد الإمارتين تحت سلطة أمير ينتخبه السكان. لكن الأمير تجاوز الصلاحيات التي مُنحت له في إدارة الولاية، وأمام عجزها عن ردعه، أنهت سيطرتها على الإقليم[6].

- البوسنة والهرسك: خضعت للحكم العثماني في عهد السلطان محمد الفاتح سنة 868 هـ / 1464م[7]. وفي 1874 م حدثت ضائقة زراعية بسبب رداءة المحصول

---

[1] Yves Tomić, La Serbie du prince Miloš à Milošević, 2ème édi,Presses Inter-universitaires Européennes, Bruxelles, 2004, p. 33.

[2] سرهنك، مصدر سابق، ص 326-327. وأنظر أيضا علي حسون، مرجع سابق، ص 120.

[3] طقوش، مرجع سابق، ص 412.

[4] سرهنك، ص 326.

[5] أوزتونا، مرجع سابق، ص 150.

[6] مصطفى كامل، مصدر سابق، ص 120-121.

[7] نفسه، ج 1، ص 153.

ولجوء الدولة إلى فرض مزيد من الضرائب[1]، فاشعل الفلاحون الثورة في جوان-جويلية 1875 م ضد مُحصلي الضرائب بتشجيع من الصّرب وروسيا والنمسا[2]. ورغم الإصلاحات التي اتخذتها السلطة العثمانية بإكراهٍ من روسيا والنمسا[3] أصرّ الثوار على رحيل القوات العثمانية. وانتهت سيادة العثمانيين على هذا الإقليم في 1876 م[4].

- ثورة البلغار: خضعت بلاد البلغار للسلطة العثمانية منذ 771هـ / 1370 م[5] بعد اعتراف ملكها بتبعيته للسلطان مراد الأول[6]. وبدأت الثورة في هذه المُقاطعة سنة 1293هـ / 1876 م، ورافقتها مذابح في حق المسلمين[7].

ردّت السلطة العثمانية بقسوة، وقتلت أعدادا من الثوار، مما أدّى إلى انتشار حالة من الغضب في الصحافة الأوربية[8]. فهاج الرأي العام في أوربا خصوصا في بريطانيا[9]، وفُرِض على السلطنة التخلّي عن الإقليم في 1295هـ / 1878 م.

---

[1] Tomić, op.cit., p. 33.

[2] طقوش، مرجع سابق، ص 414. وأنظر أيضا

Yves Tomić, op.cit., p. 32

[3] مصطفى كامل، ص 144. وأنظر أيضا طقوش، مرجع سابق، ص 414-415.

[4] Tomić, op.cit., p. 35.

[5] أوزتونا، ص 99.

[6] مراد الأول(1326-1389م): سلطان عثماني حكم في الفترة (1360-1989م). شهد عهده توسع الدولة في البلقان و الأناضول. أنظر البعلبكي، مرجع سابق، ص 421.

[7] مدحت باشا، مذكرات مدحت باشا، تعريب يوسف كمال بك حتاته، ط 1، مطبعة هندية، القاهرة د.ت.ن، ص 148. وأنظر أيضا محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 605.

[8] Tomić, op.cit., p. 33.

[9] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 606.

إن الحروب التي خاضها العثمانيون مع بداية القرن 13 هـ / 19 م كانت كلها تقريبا خاسرة، أوْصَلَتهُم إلى فقدانهم للسلطنة قسمًا تِلوَ قِسم. والحالُ أنّ الدولة العثمانية وجدت نفسها ضحية هزات كبرى اجتاحت ممتلكاتها في البلقان المعروف بتعدد قومياته ومذاهبه الدينية.

ولقد تعاضدت جملة من العوامل ساهمت في إيقاد الثورات في المنطقة، وفي مقدمتها الضعف الذي آلت إليه الدولة، وتعاظُم الأزمات الداخلية في كل أطرافها. زيادة على ذلك انتشار الأفكار القومية المترافقة مع الاسناد الخارجي تحت مُسمّى المسألة الشرقية.

يبقى أن نذكر هنا أن الدسائس الأوربية كانت العامل الحاسم في ثورات البلقان ونجاحها، إذ كانت الدولة العثمانية لا تزال حتى ذلك الوقت - رغم ما اعتراها من ضعف شديد - قادرة على سحق الحركات الانفصالية رغم كثرتها وتزامنها.

5- حركة الإصلاح والتنظيمات.

أحدث الوضع المُتهاوي الذي آلت إليه الدولة العثمانية في القرن 13 هـ / 19 م غياب الاستقرار الداخلي، بعد أن تعاظمت واسْتَعَرت حركات العصيان في صفوف فرَق الإنكشارية والولاة على السلطة المركزية[1].

وبالإضافة إلى تلك الانكسارات العسكرية أمام القوى الخارجية، وتردّي الأحوال الاقتصادية. فبات الإصلاح ضرورة وحاجة مُلحة، فرضت على السلاطين العثمانيين التعجيل به لتدارك الأوضاع وتقويمها.

[1] E. De Valmy, Réformes de l'empire ottoman(leur influence sur les progrès de la civilisation et le maintien de l'équilibre européen), Imprimerie de soye, Paris, 1850, p. 9.

إنّ دعوات الإصلاح في الدولة العثمانية ظهرت في وقت مُبكّر، فقد استشفّ العثمانيُ عُمر طَالِبْ سنة 1062 هـ / 1652 م مستقبل الدولة بعد أن انتبهَ إلى تقدم أوربا في ساحات البحرية والتجارة بفعل حركة الكشوفات الجغرافية.

كما نبّه هذا العثمانيُ إلى أنّ الغفلة عن التقدم الحاصل في أوربا سيوقِعُ العثمانيين في الهزيمة، ويتسلّط الأوربيون على بلاد الإسلام في وقت لن يكون بعيدا[1]. وقد صدق توقُّع الرجل ونبوءته.

أخذت محاولات الإصلاح الأولى والفعلية تشق طريقها بصعوبة أمام العقبات الذهنية العتيقة، في عهد السلطان سليم الثالث[2]، والذي اعتمد على المِثال أو النموذج الأوربي في التغيير والتحديث[3]، خصوصا في المجال العسكري[4]. ولهذا انصبّ الإصلاح أولا على الأداة العسكرية وبناء نظام جديد.

فقد بدأ بعض العثمانيين يؤمنون بأنه إذا لم تنهض الدولة وتستفيق، فسوف تنهار عمّا قريب أمام التقدم الذي أحرزته أوربا، خاصة في المجال العسكري، وهو الظرف الذي ساعدها على الارتقاء والتوسع. وكانت هذه التجربة هي التي استوحى منها العثمانيون مبادئ الإصلاح وخططه، واجتهدوا لتنزيلها على الواقع العثماني.

لقد كان الإصلاح والتحديث[5] يستوجب البدء بالإنكشارية لما لها من تأثير[6] بعد أن أصبحت فرقها تقليدية، أصابها الضعف والفساد، والتمرد على الأنظمة

---

[1] خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوربي، ط 1، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، 1981، ص 31.

[2] سليم الثالث (1808 -1761 م): سلطان عثماني حكم في الفترة (1808-1789 م). عُرف عهده بالإصلاحات الإدارية والعسكرية. خلعه خصوم الإصلاح، وسجنوه إلى أن مات مقتولا. أنظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 241.

[3] زيادة، مرجع سابق، ص 54.

[4] عبد الفتاح حسن أبوعلية، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير، دار المريخ، الرياض، 2008 ص 319. وأنظر أيضا زيادة، ص 34.

[5] لمطالعة تفاصيل إصلاحات السلطان سليم الثالث. يُراجع محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 371.

[6] المرجع السابق، ص 320.

العسكرية[1]. لكن الإنكشارية سارعت إلى العصيان والتمرّد، وقامت بقتل كل من كان يؤيّد إصلاحها وتعويضها بفرق نظامية حديثة، من الوزراء والمستشارين[2].

إن تحرّك الإنكشارية كان بقيادة مُفتي السلطنة الذي أصدر فتوى تنص على أنّ السلطان سليم الثالث تشبّه بالكفار[3]، وأتى بما يُنافي القرآن، ولا يجب أن يبقى في السلطة[4]. ورغم أنّ السلطان أصدر أمرا يُبطِل فيه إصلاحاته، إلا أنّ الإنكشارية يقودهم المُفتي أصرّوا على خلعه.

وإذا كانت الإصلاحات قد مُنيت بالفشل في عهد السلطان سليم الثالث، فإن أشد ما يستوقِفنا هو العوامل التي يمكن أن نُعلّل بها هذا الإخفاق. فالثابت أنّ الإنكشارية وعلماء الدين كانا الخطان المعاديان للإصلاح[5].

لقد غرق هؤلاء العلماء في وهْم أنّ مُباشرة السلاطين للإصلاح هو توجُه نحو عقيدة النّصارى، وأنّ كل ما يَفِدُ من مفاهيم ونُظُم من الغرب هو ضد الإسلام، يهدد معتقدات المجتمع[6]. فأخذوا على عواتقهم مهمة التحذير من ما كانوا يرونه تهديدا،

---

[1] أبوعلية، الدولة العثمانية والوطن...، ص 320.

[2] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 393. وأنظر أيضا

L'avallee, op.cit., p. 452.

[3] سرهنك، مصدر سابق، ص 260.

[4] L'avallee, op.cit., p. 453

[5] أبو علية، مرجع سابق، ص 321.

[6] أوزتونا، مرجع سابق، ص 658. وأنظر أيضا زيادة، مرجع سابق، ص 103.
مرّت أمتنا عبر تاريخها بمثل هذه المواقف، التي لا يمكن نعتُها إلا بالبلادة الفكرية، والعجز التام عن إدراك الحقائق الواقعة على الأرض. هذا النوع من الذهنيات الذي انتشر وامتد في عالمنا الإسلامي عبر مراحل مختلفة - ولا يزال ضاربا أطنابه بيننا - يسعى باسم الدين تارة، وباسم الخوف على المجتمع وهويته تارة أخرى، إلى وضع سُدود بين هذه الأمة وحركة بقية العالم، الذي قطع أشواطا في كل مجالات الحياة، بما فيها قضايا الحقوق الفردية والجماعية التي نرى - فيما يبدو لنا - الأساس الأول والضروري للبناء والحداثة، وتقليص الفارق الحضاري الكبير الذي يفصلنا عن الآخرين. ولكن يظهر أن هذا الهدف يبقى بعيد المنال، إذا علمنا أن هناك، إلى اليوم، من يُحرّم الصورة والتصوير، في عالم أصبحت فيه الصورة لغة، وأداة من أدوات العلم والمعرفة. وتزامنا مع الدور المشار إليه، أصبحت تلك الذهنيات تَرْنُو إلى إدامة وصايتها واستمرارها، وباسم الدين أيضا، على الناس سياسيا واجتماعيا

ونسوُقُ هنا مثالا عن بعض تصرفاتهم السخيفة في حق الإصلاح، فعندما أوفد السلطان سنة 1827 م أربعة طلبة عثمانيين للدراسة في باريس، لقيَ القرار معارضة رجال الدين، هذ على الرّغم من انّ والي مصر محمد علي كان قد سبق السلطة العثمانية إلى مثل هذه الإصلاحات منذ زمن طويل[1]. وأمّا بالنسبة للإنكشارية، فقد أثار الإصلاح الوارد من أوربا مخاوفها، فهو يتعارض مع مصالحها وامتيازاتها[2].

هكذا تعطّل مشروع الإصلاح إلى أن تولّى السلطان محمود الثاني مقاليد الخلافة، والذي كان قد أفاد كثيرا من مكوثه مع السلطان سليم الثالث في إقامته الجبرية بالقصر، حيث أسرّ إليه هذا الأخير بخططه للإصلاح[3].

في بداية حكمه سايرَ السلطان محمود الثاني أعداء الإصلاح، خصوصا وأنّ بداية عهده شهدت انفجار الأزمات السابقة التي أشرنا إليها في الصفحات السابقة من هذه الدراسة، وكان هذا السلطان على يقين بأن مشروع إصلاحاته[4] - والمُسماة

=ودينيا. ومع شيوع ظلم واستبداد النظُم السياسية -أولياء الأمر بالتعبير الديني- وحاجتهم إلى المبررات وإلى من يُصدر لهم تلك المبررات، ويفتي بجوازها وحلالها، تحوَّل المسلم إلى فرد صاحب عقل تائه وغافل، يركنُ للظلم ويرضى به، ويلعن الحرية والديموقراطية، ويُعادي التغيير مهما كانت طبيعته ودواعيه، وينأى بنفسه عن السير في الركب الحضاري للبشرية. ونتيجة كل ذلك هو مزيد من القهر السياسي والجمود الحضاري، والذي سَتَليهِ حتما العدمية والفناء.

[1] محمد الناصر النفزاوي، التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية (1839-1918)، ط 1، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، صفاقص، 2001، ص 56.

[2] زيادة، مرجع سابق، ص 103.

[3] أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط 1، دار الشروق، القاهرة، 2003، ص 187.

[4] لمطالعة تفاصيل الإصلاحات التي وردت في الأمر السلطاني الذي أنفذهُ السلطان محمود الثاني. يُراجع ابراهيم أفندي، مصدر سابق، ص 271.

التنظيمات الخيرية - لن يتمّ إلا بالتخلُّص من فرق الإنكشارية، وهو ما أنجزه في 1242 هـ / 1826 م. كما أمر بحل الطريقة البكتاشية[1] التي ترتبط بها[2].

إنّ المُتأمل في واقع الإصلاحات العثمانية ومسارها، يمكنه استخلاص الحقائق الأساسية التالية:

أولا: إن أي مشروع للإصلاح والتحديث يستلزم أن يكون مبنيا على قاعدة اجتماعية واسعة، تستشعر معه الرغبة والمنفعة في عملية التغيير. فيكون هذا الجهد الجماعي رافعة تحمل الإصلاح وتُنجزه، وهذا ما كانت تفتقر إليه الحالة محل الدراسة.

فما حدث في الدولة العثمانية من إصلاح لم يكن في حقيقته سوى رغبة من سلطة مُتداعية تسعى إلى تحصين نفسها، في ظل مجتمع يزداد فيه الوباء الطائفي والقومي، وتتنامى فيه الحركات الاستقلالية. إلى جانب تقهقر عسكري خارجي مُتعاظم يهدد هذه السلطة بالسقوط. ولهذا يمكننا التأكيد على أنّ حركة الإصلاحات العثمانية لم يكن مآلها الفشل فحسب، بل انها زادت الوضع سوءً، ليستمر معه الانحدار والسقوط[3].

---

[1] البكتاشية: فرقة صوفية تركية، تُنسب إلى محمد بن إبراهيم آتا الشهير بالحاج بكتاش المتوفي سنة 1336 م. وهو من بارك الإنكشارية أثناء تأسيسها في عهد السلطان أورخان، ثمّ تسلّطت هذه الطريقة على الإنكشارية حتى انها أخذت اسمها. أنظر: نصار وآخرون، مج 2، مرجع سابق، ص 341.

[2] أبو علية، الدولة العثمانية والوطن...، ص 325.

[3] « COMMUNICATION DE L'AMBASSADE DE Grande-Bretagne », Ministère des affaires étrangères, Documents diplomatiques français 1871-1914, 1er série (1871-1900), T XIII, Imprimerie Nationale, Paris, pp. 2-4.

هذه الوثيقة عبارة عن بيان من بريطانيا موجه الى الحكومة الفرنسية. وهي تشير إلى الوضع الذي صارت إليه الدولة العثمانية، والأخطار التي تهدد أوربا في حالة انهيارها، ووجوب العمل على حمايتها. كما أنها تستعرض حالة النصارى تحت سلطة الباب العالي، ومعاناتهم من تصرفات السلطة أو بقية الطوائف.

ثانيا: من الواضح أن القوى الخارجية كان لها دور خطير في الضغط على السلطة العثمانية - بدعوى أنها حاملة للرسالة الحضارية - الحاكمة للمسارعة بالإصلاح[1]، بعد أن تحوّلت هذه الدولة، المنعوتة بالرجل المريض، إلى عبء على نفسها وعلى أوربا.

ولذلك يجب التنويه إلى أنّ مشاريع الإصلاح والتحديث التي فُرضت على العثمانيين - والمتوارية خلف المقاصِد الدينية تجاه طوائف بعينها في المجتمع العثماني - لم يكن مُرادها تجديد قواعد الدولة المختلفة وتحديثها وفق ما كان سائدا في هذه المرحلة في أوربا، بل كانت مُدخلات وممرات لزيادة النفوذ داخل الدولة إمعانا في اضعافها وتدميرها.

إنّ الاضطرابات الطائفية التي كانت تحدث في البلاد العثمانية، وتستهدف النصارى، هي التي جرّت القوى الكبرى إلى فرض الإصلاح على الدولة العثمانية - التي يرعاها سلاطين كانوا يعيشون في غفلة من الزمن - رغبة منها في حمايتهم وتغيير القوانين التي كانت تحدُّ من حرياتهم في المجالات الدينية السياسية[2].

ثالثا: إنّ انشغال تركيا بحروبها الدفاعية، وإخماد الثورات والحركات الانفصالية عطّلَ حركة الإصلاح، خاصة وأنّ هذا الواقع كان يفرض على الدولة صرف أموال طائلة، كان من الممكن أن تكون عاملا يُنجِحُ الإصلاح ويُنجزه، ويدفع به إلى الأمام.

---

[1] غانية بعيو، التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية (الشام والعراق نموذجا 1839-1876م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2009، ص 53.

[2] E. De Valmy, op.cit., p p. 5-8.

المبحث الثاني: العوامل الخارجية المؤثرة في الوضع العام للدولة العثمانية.

1- الجبهة الإيرانية.

إنّ الصراع العثماني الإيراني قديم، يعود إلى القرن 13هـ/ 16 م، تاريخ ظهور الدولة الصفوية الشيعية، والتي فرضت على العثمانيين صِداما ضاريا، كان من بين أهم مُحرّكاته وبواعثه، فيما كان يبدو، الطائفية المذهبية[1]. واستمرّ السجال بين الطرفين بعد سقوط الأسرة الصفوية، واعتلاء أُسَر أخرى الحكم في بلاد فارس.

أثناء انشغال الدولة العثمانية بإخماد الثورة التي اندلعت في اليونان[2]، وتحولّها إلى قضية أوربية مبدئية وأساسية، هاجم القاجاريون[3] أراضي السلطنة في شرق الأناضول والعراق[4]. فالمناطق المقدسة لدى الشيعة في العراق كانت دوما أحد أبرز

---

[1] للاستزادة في موضوع تاريخ العلاقات بين الدولتين العثمانية والصفوية، ودوافع الصراع بينهما وآثاره. أنظر: عبد الحفيظ دحدح، العلاقات السياسية العثمانية الصفوية خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2016.
إنّ ما يجب التشديد عليه هنا، هو أنّ الطائفية المذهبية بالنسبة للدولتين العثمانية والصفوية لم تكن سوى وسيلة لحشد الأنصار وراء الحكّام في كلٍ منهما. إذ توسّل هؤلاء في تبرير هذا الصراع التعبئة الدينية، الأمر الذي أعطى لهذا الصِدّام صبغة طائفية دينية مذهبية.
لقد تَوَارت المصالح السياسية والاقتصادية والتجارية الخاصة وراء ستار المذهب، فراجت الفتاوى التكفيرية المتبادلة بين الطرفين العثماني والصفوي، والتي كانت حينها خاضعة للضغط السياسي، وهي الحالة عينها لا تزال تشهدها ساحتنا الإسلامية، وكانت حصيلتة تعمُق الشِقاق والقطيعة بين السنة والشيعة، واستعارها وتحولها إلى مواجهات عسكرية قاسية، أزهقت الكثير من الأرواح. كما استنزف هذا الخلاف المُتعِب قِوى الأمة وامكانيتها التي كان يجب أن تُوظف في التصدّي للنفوذ الأجنبي الذي بدأ يتمدّد في المنطقة، ويَقوى في تلك الفترة من تاريخنا الإسلامي.

[2] Mikaberidze, op.cit., p. 301.

[3] القاجاريون: سلالة تركية قدِمت إلى إيران مع الموجات التركية الأولى. استولت على الحكم في إيران بعد سقوط الأسرة الصفوية، وحكمت في الفترة 1794- 1925 م. انتهى حكمها بعد أن بادر ضابط الجيش رضا خان بهلوي إلى تنصيب نفسه شاه لإيران، ليبدأ معه حكم الأسرة البهلوية. أنظر: حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ط 6، ج 17، دار التعارف للمطبوعات، بيروت 2002، ص 303. وأنظر أيضا أيرام لابيداس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة فاضل جتكر ط 2، مج 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 2011، ص 748.

[4] Mikaberidze, op.cit., p. 301.

أسباب الخلاف والصراع بين الطرفين[1]. واندلعت الحرب بين القوتين الإسلاميتين في 29 صفر1237هـ / 15 نوفمبر1821 م[2].

انتهى الهجوم الإيراني بهزيمة عثمانية، وتوقيع اتفاقية صلح بين الطرفين بتاريخ 8 رمضان 1430هـ / 28 جويلية 1823 م[3] في أرضروم[4]. وقضى هذا الصلح بالتزام كلٍ منهما بعدم التدخل في شؤون الطرف الآخر، وحرية دخول التجار والحجاج الإيرانيين إلى الأراضي العثمانية[5].

لم تصمُد هذه المعاهدة طويلا، فبعد أن تكرّرت حركات العصيان في الأقاليم الكردية بإيعاز من شاه إيران[6]، هاجمت القوات العثمانية بعض المواقع الإيرانية الحدودية، فردّت إيران باحتلال مدينة السليمانية[7] في 1256هـ / 1840 م بتحريض كل من بريطانيا وروسيا[8].

---

1 Joseph Marie Jouannin et Jules Van Gaver, Turquie, Firmin Didot frères, Paris, 1840, p. 365.

2 يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الأمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري، ترجمة عدنان محمود سلمان، ط 1، مج 2، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2010، ص 670.

3 Stanford. J. Shaw & Ezel Kural Shaw, History of the ottoman empire and modern turkey, 1st Édi, v 2, Cambridge University Press, New York, 1977, p. 16.

4 أرضروم: مدينة في الجزء الآسيوي من تركيا، قريبة من منابع الفرات. تقع على مرتفع تحيط به الجبال. بناها أحد العسكريين اليونان. أنظر:

Malte-Brun, op.cit, p 459; Bouillet, op.cit, p. 614.

5 Stanford et Kural, op.cit, p. 16.

6 Edmund A. Ghareeb, Historical Dictionary of Iraq, Scarecrow Press, Maryland (USA), 2004, p. 68.

7 السليمانية: مدينة في شرق العراق. تأسست في سنة 1203 هـ / 1789 م، وسُميت بالسليمانية نسبة إلى سليمان باشا الكبير والي بغداد. أغلب سكانها من الاكراد. أنظر: نصار وآخرون، مج 4، مرجع سابق، ص 1883.

8 Ghareeb, op.cit., p. 68.

في عام 1259 هـ / 1843 م شكّل الجانبان العثماني والإيراني لجنة لرسم الحدود بينهما[1]. وتُوجت قرارات هذه اللجنة بتوقيع معاهدة أرضروم الثانية بتاريخ 13 ربيع الثاني 1263هـ / 31 مارس 1847 م[2]. وبمقتضى هذه المعاهدة تخلّت إيران عن مُطالباتها بالسليمانية، مقابل السماح لها بحرية الملاحة في شط العرب[3].

انحصر الصراع العثماني الإيراني في هذه الفترة في العوامل الجغرافية والسياسية، بعد أن خَفّ دور العامل المذهبي. فتداخل الحدود والعشائر هو الذي كان يقف وراء النزاعات بين الدولتين، إلى أن وصلت العلاقات بين الطرفين إلى حالة من التأزم عام 1265 هـ / 1849 م، وكادت الحرب أن تقع بينهما لولا تدخل بريطانيا وروسيا للوساطة[4].

وتجدُر الإشارة هنا إلى أنّ عجز الطرفين الإسلاميين عن التفاهم، وتوحيد الصف، وانشغالهما بالمشاكل السياسية والعسكرية الداخلية والخارجية، هو الظرف الذي شجّع روسيا على الاجتراء عليهما، واقتطاع أجزاء كبيرة من أراضي وممتلكات الدولتين[5].

---

[1] Ghareeb, op.cit., p. 68.

[2] أحمد نوري النعيمي، السياسة الخارجية الإيرانية 1979-2011، ط 1، دار الجنان للنشر والتوزيع عمّان، 2012، ص 224.

[3] Ghareeb, op.cit., p. 68.

[4] النعيمي، ص 225.

[5] أوزتونا، موسوعة تاريخ...، ص 670.

إنّ ما يستوقفنا هنا، هو أنّ الانقسام الإسلامي هو الذي أفضى إلى هذا الوضع. والعجيب أن البرتغاليين خلال بداية انتشارهم في المنطقة الإسلامية في شطرها الشرقي، منذ القرن 10 هـ / 16 م، وظّفوا الصراع الدّامي العثماني الصفوي لصالحهم في تحقيق مكاسب جمّة، خصوصا في شبه الجزيرة العربية. بل إنهم تجرّأوا وهدّدوا المقدسات الإسلامية فيها، وخطّطوا لنبش قبر النبي صلّى الله عليه وسلّم، ومُقايضة المسلمين برُفاته مقابل مدينة القُدس. (أنظر: دحدح، مرجع سابق، ص 107). وتكرّرت هذه التجربة في هذه المرحلة من القرن 13 هـ / 19 م. فكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الشّقاق إلى توزُع القوة الإسلامية بين صراع إيراني وروسي لاتشترك فيه الدولة العثمانية، وآخر ما بين روسيا والدولة العثمانية لا تنخرط فيه إيران. وهي التجربة عَيْنها تتكرّر أمامنا اليوم. فأضحت أمّتنا فاقدة للبصيرة التاريخية، وأبَت ولا تزال إلا أن تُدير ظهرها للتجارب الزمنية الماضية، وعِبر التاريخ

2- الحملة الفرنسية على مصر.

تطلّعت المطامع الاستعمارية الفرنسية إلى الشرق لتحصيل نصيبها من تركة الدولة العثمانية[1]. وبدأت التحضيرات للحملة في طولون دون الإعلان عن وجهتها لإبعاد الأنظار عنها[2]. ولهذا ساد الاعتقاد لدى الباب العالي العثماني أنه ربّما تكون الحملة الفرنسية تستهدف اليونان لاستثارة شعبها ضدّهُ[3].

وكانت بريطانيا قد وقّعت معاهدة امتيازات تجارية مع مماليك مصر في عام 1208 هـ / 1794 م، منحتها تسهيلات هامة، ممّا أثار نقمة فرنسا، لاسيما بعد أنْ قامت بريطانيا بتحريض حكام مصر على التُجار الفرنسيين، وأيضا على رفض عقد اتفاقية مع فرنسا مماثلة لتلك التي وقّعوها معها[4]. ونتيجةً لذلك راسلَ القنصل الفرنسي حكومته، يلح عليها بالردّ عسكريا[5].

في 3 ذو الحجة 1212هـ / 19 ماي 1798 م[6] أبحر الأسطول الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت[7]، مُتوجها صوب مصر[8]، لتحقيق الأحلام الاستعمارية، والأمجاد

= ومخزونه. وحرّمت على نفسها أن تدرك تاريخها وأن تعتبر به، فأصبحت لا تعقل أهمية الوعي التاريخي، لذا نراها تُغامر بتكرير الأخطاء. فدراسة التاريخ لا تعني البتة رواية الأحداث والوقائع - كما نتعامل مع هذا العلم اليوم - بقدر ماهيَ اكتساب وتحصيل تجارب ودروس، تُوظف من أجل مُعالجة الحاضر وبناء المستقبل. وتُتيح انتشال كيانها من المآسي والانقسامات التي تتخبط فيها، وتُعيد لوجودها وحضارتها البريق والتألّق المفقودين منذ زمن.

1 L'avallee, op.cit., p. 427.

2 Jouannin et Van Gaver , op.cit., p. 365.

3 Ibidem.

4 طقوش، مرجع سابق، ص 307.

5 نفسه. ص 307.

6 Jouannin et Van Gaver , op.cit., p. 365.

7 نابليون بونابرت(1769-1821 م): إمبراطور فرنسا في الفترة (1804-1815 م). أحدث تغييرات هائله بتوسعاته في قارة اوربا وخارجها. انظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 450.

8 محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 373. وأنظر أيضا أوزتونا، تاريخ الدولة...، ص 649.

القومية والشخصية، التي لطالما راودت ساسة فرنسا، وعدد لا بأس به من رحّالتها وسفراءها منذ أمد[1].

فقبل تسيير الحملة، انتشرت مذكرات ومراسلات هؤلاء الرحالة والسفراء والتي تضمنت أبحاثا ودراسات تُشيرُ إلى مدى أهمية الطريق بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وعن فُرص الربط بينهما. وكانت تلك الكتابات تنصحُ الحكومات الفرنسية بوضع يدها على مصر[2].

حين بلغت أخبار وصول بونابرت إلى الاسكندرية، أمر السلطان العثماني بسجن السفير الفرنسي، وشرع في التواصل مع دول أوربا لبناء تحالف ضد فرنسا. وقد تمكّن السلطان من عقد اتفاق مع روسيا العدو التقليدي للسلطنة العثمانية في 24 شوال 1214هـ / 21 مارس 1800 م حصل من خلاله على التزام روسيا بالوقُوف إلى جانبه في هذه المحنة، وهذا مقابل تنازلات قدّمتها الدولة العثمانية[3].

وصل الجيش الفرنسي إلى الاسكندرية، ومنها زحف باتجاه القاهرة، وتمكّن من إنزال هزيمة قاسية بالمماليك في معركة الأهرامات الدامية بتاريخ 7 صفر1213 هـ / 21 جويلية 1798 م. ودخل القاهرة، حيث أعلن بأنه لم يقدَم إلى مصر غازيا أو عدوا للدين الإسلامي، بل حليفا للسلطان العثماني لتوطيد سُلطانه وتخليص شعبها من سطوة وظُلم المماليك[4].

تعدّدت دوافع الحملة الفرنسية على مصر[5] - هذا على الرّغم من أنّ الهدف الذي أعلنتهُ، هو تأديب المماليك الذين طغوا واستبدوا بشعب مصر، وأهانوا التُجار

---

[1] طقوش، مرجع سابق، ص 307.

[2] الأمين، مرجع سابق، ص ص 146- 148.

[3] Jouannin et Van Gaver, op.cit., p. 366.

[4] طقوش، ص 310.

[5] للوقوف على تفاصيل الحملة ومراحلها، تُراجع مذكرات ضابط فرنسي شارك في الحملة: جوزيف ماري مواريه، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، المجلس الأعلى

الفرنسيين[1] - فمنها: مواجهة بريطانيا ضمن المنافسة التي كانت قائمة على أشدّها بين أكبر دولتين استعماريتين آنذاك.

فاستيلاء فرنسا على مصر سوف يُؤدي إلى التشويش على بريطانيا، وضرب مسالك مواصلاتها البرية والبحرية الحيوية. إذ سيقطع عليها الطريق المؤدّي إلى الهند التي كانت بالنسبة لبريطانيا بمثابة الروح من الجسد، ودُرّة تاجها، وأحد ركائز تجارتها وقوتِها[2]، وهذا مقابل المزايا التي ستجنيها فرنسا، والاستفادة من مكانة مصر الجغرافية في المجالات التجارية والعسكرية، واتخاذها مركزا للتوسع والانتشار.

وأمّا الخطورة الموالية لاحتلال مصر، فكانت التوجُه من البحر الأحمر نحو الهند نفسها لافتكاكها من بريطانيا[3]. زيادة على ذلك تعويض الخسائر التي مُنِيت بها فرنسا في العالم الجديد[4].

= للثقافة، 2000. وأنظر أيضا عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والاخبار، ج 3 المطبعة العامرية الشرفية، مصر، 1322 هـ (1904م).

قدّم الضابط الفرنسي أثناء تنقُله بين المدن المصرية وصفا كئيبا ومُزريا للإنسان المصري، ناعتا إياهُ بأبشع الأوصاف، فهو كريه وهمجي وجاهل بائس. كما حظيت المرأة المصرية بدورها بنصيب من استخفاف وتجريح هذا الضابط.

ولا غرو أن نظرة التعالي والتفُوق تلك، ليست سوى ثمرة انحرافات العقلية الاستعمارية العنصرية التي نشأت عن عقيدة غربية تُروّج لفكرة أنّ الغرب هو محور الوجود، وبَانِي الحضارات البشرية منذ بداياتها، وغيرهُ مجرّد قطيع من البشر المُتوحشين والعبيد، ليست له قيمة. ونفس هذه النظرة الدّونِية سوف نقف عليها في المباحث اللاحقة، ولكن هذه المرّة في بلاد الشام. ولمطالعة ما سُقناهُ من ملاحظات حول ما أورده هذا الضابط. أنظر مذكراته، ص ص 34-37.

[1] ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط 1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988، ص 191. وأنظر أيضا مواريه، مصدر سابق، ص 31.

[2] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 373.

[3] نقولا الترك، ذكر تملّك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الإسلامية، ط 1، دار الفارابي بيروت، 1990، ص 27. وأنظر أيضا مواريه، ص 20. وكذلك الأمين، مرجع سابق، ص 148.

[4] مواريه، ص 28.

بعد إتمام سيطرته على مصر، زحف الجيش الفرنسي على بلاد الشام بقصد الاستحواذ على سواحلها التي كانت استراتيجيا تمثل خط الدفاع الحيوي، ومصدر أمان وسلامة الوجود الفرنسي في مصر[1]، لا سيما بعد ورود أخبار تحرّك الجيش العثماني نحو بلاد الشام. وبعد انتصارات حققها في طريقه إليها، انهزمت القوات الفرنسية، بعد انكسارها على أصوار عكا[2].

تلي هذا الفشل نكسات قاسية أصابت الجيش، تسبب فيها الأمراض والتحالف العثماني البريطاني الرّوسي الذي وقف ضدّهُ[3]. زيادة على ذلك الهزيمة البحرية التي مُني بها الأسطول الفرنسي أمام نظيره البريطاني في أبو قير قرب الاسكندرية في ربيع الأول 1213هـ / أوت 1798 م[4].

كان لهذه الهزيمة البحرية أثر نفسي كبير على بونابرت وجيشه، فقد قطعت عليه الاتصالات مع فرنسا، وسبّبت أزمة في المؤونة والذخيرة. وفي ظل هذه الظروف القاسية، أجبر على الانسحاب من مصر في 6 مُحرم 1216هـ / 19 ماي 1801 م[5].

لم تكن الحملة الفرنسية سوى فصلا من فصول المسألة الشرقية، تركت أثرا جسيما على الدولة العثمانية، وزادت من الضغوط والمساومات عليها. فخلال هذه المحنة أجبرت بريطانيا السلطان العثماني على تسليم الاستحكامات العثمانية على

[1] الأمين، ج 14، مرجع سابق، ص 147.

[2] Mikaberidze, op.cit., p. 292.

[3] Edward S. Creasy, History Of The Ottoman Turks, 1st Édi, Henry Holt And Company, New York, 1878, p 461.

[4] Mikaberidze, op.cit., p. 292.

[5] Jouannin et Van Gaver , op.cit., p. 365.

الدردنيل، وأيضا تسليم الأفلاق والبغدان لروسيا، وهذا مقابل معاونته على التصدّي للفرنسيين، وإخراجهم من مصر[1].

3- الغزو الاستعماري (الجزائر – تونس – مصر).

من بين السّمات البارزة والظاهرة للقرن 13 هـ / 19 م أنه كان حقبة ارتقاء الثورة الصناعية في أوربا وانتشارها. وهي الحالة التي ساعدت على اتساع الموجة الاستعمارية للحصول على المستعمرات.

لقد كان الجهد الأوربي يصبو إلى حل المشاكل العديدة التي أفرزتها هذه الثورة وكذلك التخلص من المشاكل السياسية التي كانت تُؤرّق النظم السياسية بسبب التحولات الفكرية في المجتمعات الأوربية. هذا زيادة على مرجعيات أخرى، منها الدينية والقومية.

- الجزائر:

تعرّضت الجزائر إلى ضغط مسيحي على نطاق واسع، وحملات مُدمّرة خصوصا على سواحلها[2]، وهذا غداة نجاح حروب الاسترداد[3] في الأندلس، فاحتلت

[1] ابراهيم بك، مصدر سابق، ص 162. وأنظر أيضا محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 375.
تكاد الكثير من الكتابات التاريخية، على الأقل تلك التي رجعنا إليها في هذه الدراسة وغيرها، والتي تعرضت للحملة الفرنسية على مصر، أنْ تُجمِع على تأثيرها الكبير في النهضة العربية الحديثة، وفتحها الباب أمام تحولات عديدة، أهمها انكشاف حجم الفارق الحضاري بين الشرق وأوربا، وهو عرض يبدو لنا صحيحا وواقعيا إلى حدٍ ما. فالتواصل والاحتكاك بالثقافات الأخرى يكون في الكثير من الحالات والمواقع - ولكنّ شيئا ثابتا يجب ذكره هنا، وهو أنّه لا يجدرُ بنا اتخاذ هذا الأمر كقاعدة للتعميم، تُبرّر الاستعمار وتعتبره عملا تنويريا - مصدرا للصدمة الحضارية، وأيضا إرهاصات ومقدمات تقود إلى إنهاض وتحريك الإرادات والعزائم للتخلص من الجمود والرّكود، وصعود سلالم الحضارة. ولكن بالمقابل أحجمت الكثير من تلك الكتابات عن التعرض للأثر العظيم والجسيم الذي تركته الحملة على وضع الدولة العثمانية المُتهاوي، وما تبِع ذلك من غُبْن لحق المسلمين.

[2] أوزتونا، تاريخ الدولة...،ص 245.

[3] حروب الاسترداد: ظهر هذا الاصطلاح في القرن 13 هـ / 19 م، ويقصد به الحملات النصرانية في جزيرة إيبيريا لطرد المسلمين، الذين يعود تاريخ وجودهم فيها إلى سنة 92 هـ / 711 م، بعد دخول

إسبانيا أجزاء واسعة من سواحلها، فاحتمى أهلها بالدولة العثمانية التي لبّتهُم وأغاثتهُم، وألحفتهُم بسلطانها في 922 هـ / 1516 م[1].

مع بداية الفرن 13 هـ / 19 م بلغت الجزائر مستوى من الضعف تسبّب فيه الركود الاقتصادي، والضيق الاجتماعي، وانفراد الأتراك بثروات البلاد ومواردها والضرائب التي كانت تُفرض على الناس[2].

إن هذا الوضع هو الذي أوجد قطيعة بين السكان وحكامهم من الأتراك. الأمر الذي يفسّر - في رأينا - حالة الخُمول التي سادت المجتمع الجزائري آنذاك، وأيضا السقوط المبكّر للمقاومة الرسمية، واستسلام الحكام، ثم تخليهم عن البلاد ورحيلهم عنها. ولهذا تحمّل الشعب في المراحل اللاحقة، الدفاع عن الأرض والعرض.

يمثل استعمار فرنسا للجزائر تعبيرا جليا عن مبلغ ما وصلت إليه الدول العظمى من استخفاف بالسلطنة العثمانية المتهاوية[3]، وفي مقدمتها فرنسا التي ظلت علاقاتها مع العثمانيين على جانب كبير من الودّ والتفاهم.

قد تكون مقولة أنّ التاريخ يعيد نفسه صحيحة في حالات معينة، ومنها الحالة قيد الدراسة، إذا علمنا أنّ مبرّر الحملة الفرنسية على مصر، هو عينه مبرّر الحملة على الجزائر. فهذه الأخيرة ادّعى أصحابها بأنها ستكون تأديبية انتقامية من داي الجزائر الذي أساء إلى شرف فرنسا، بيد أن هذه الحملة تحوّلت إلى عقاب جماعي لشعب برُمّته، دامت مآسيها لأزيد من قرن.

=الفاتحين المسلمين إليها، بقيادة طارق بن زياد، حتى سقوط إمارة غرناطة، آخر معقل للمسلمين في 1 ربيع الأول 897 هـ / 2 جانفي 1492 م. أنظر:

Mikaberidze, op.cit., p p. 737-745.

[1] ابراهيم بك، مصدر سابق، ص 227. و أنظر أيضا طقوش، مرجع سابق، ص 218.

[2] الجميل، مرجع سابق، ص 468.

3 مانتران، مرجع سابق، ص 49.

تذرّعت فرنسا بحادثة المروحة[1] 3 شوال 1242هـ / 30 أفريل 1827 م لتبرير تدخلها في الجزائر، واعتبرتها إذلال لا يمكن غفرانه. إلى جانب ذلك زعمت فرنسا بأنها ترمي من وراء حملتها تحرير الجزائر من نَير الحكم التركي[2].

بعد حصار بحري فرضته فرنسا لمدة ثلاث سنوات، أنزلت قواتها في الجزائر وأجبرت الداي على الاستسلام في 14مُحرم 1246هـ / 5 جويلية 1830 م. وصيّرت الجزائر من ممتلكاتها، واعتبرتها جزءاً منها، هذا على الرّغم من المقاومة التي أبداها أهل البلد[3].

عجزت السلطة العثمانية عن تقديم العون، لانشغالها بأزماتها الداخلية والخارجية المُتفاقمة[4]، واكتفت بانتهاج سبُل السلم والتفاوض مع الفرنسيين، فأرسلت مبعوثين لهذا الغرض، إلا أنّ هذه السُبل قابلها إصرار فرنسي على استكمال المشروع الاستعماري في الجزائر[5].

- تونس:

خضعت تونس للحكم الحفصي الذي اتصف بالعجز في صدّ الاعتداءات الأوربية على البلاد، وكان نتيجة هذا العجز، تحالفه مع القوى النصرانية، الأمر الذي أغضب السكان والدولة العثمانية[6].

---

[1] لا يسعُنا هنا الإسهاب والاشباع في الحديث عن تفاصيل الحملة الفرنسية، والمضمون التاريخي لهذه الحادثة. ولذا نُحيلُ إلى أحد شهود العيان للوقوف على تفاصيلها ووقائعها وأسبابها وتداعياتها، وأيضا الواقع الذي فرضه الاستعمارالفرنسي، والمقاومة الوطنية في سنواتها الأولى. أنظر: حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2006، ص ص 139-147.

[2] Creasy, op.cit., p. 521.

[3] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 448.

[4] مانتران، مرجع سابق، ص 50.

[5] سرهنك، مصدر سابق، ص 390.

[6] طقوش، مرجع سابق، ص 221.

استغاث السكان بالسلطان العثماني [1] لتخليصهم من هذه الحالة، فأرسل أسطولا إلى تونس في 941 هـ / 1534 م، فهرب الحاكم الحفصي. لكن إسبانيا سارعت إلى نجدة حليفها، وإعادته إلى السلطة. فقام السكان بمعاونة العثمانيين بحملات لمقاومة الإسبان، إلى أنْ انهارت سلطة الحفصيين في 948 هـ / 1541 م[2].

منذ أن نجحت فرنسا في الاستحواذ على الجزائر، بدأت في التخطيط لاحتلال تونس، وإتمام مشروعها الاستعماري في شمال إفريقيا. ولهذا الغرض أنشأت المصارف المالية، وأغدقت على الباي بالمال[3].

وغرقت تونس في أزمة ديون حادّة تورّط فيها حُكامها[4]، فشكّلت دول أوربا لجنة دولية للإشراف على الوضع المالي ومراقبته في تونس. ومع تعاظم المنافسة الاستعمارية أسرعت فرنسا إلى الادّعاء بتعرُض حدود مستعمرتها الجزائر إلى غارات قامت بها القبائل من الجانب التونسي[5].

دخلت القوات الفرنسية برا إلى تونس في 24 جمادي الأولى 1298 هـ / 24 أفريل 1881 م، كما أنزلت قواتها في بنزرت على الساحل التونسي[6]، وفرضت على الباي معاهدة الحماية المعروفة باسم القصر السعيد (باردو) في 12جمادي الثاني 1298هـ / 12 ماي 1881 م[7]. ومنذ عام 1300 هـ / 1883 م استخدمت فرنسا لفظ الحماية في وصف وتحديد علاقاتها بتونس[8].

---

[1] سرهنك، ص 85. وأنظر أيضا ابراهيم بك، مصدر سابق، ص 227.

[2] طقوش، مرجع سابق، ص 222.

[3] Stanford et Kural, op.cit., p. 192.

[4] الجميل، مرجع سابق، ص 485.

[5] Stanford et Kural, op.cit., p. 193; Mikaberidze, op.cit., p. 195.

[6] الجميل، ص 485. وأنظر أيضا طقوش، ص 449.

[7] Mikaberidze, op.cit., p. 195.

[8] طقوش، ص 449.

أبْقَت فرنسا بموجب هذه المعاهدة الباي في الحكم، لكنه لم يكن يملك من هذا الحكم إلا الاسم والرّسم. وعلى الرغم من الاحتجاجات العثمانية لدى الدول الكبرى التي نصحتها بالإضراب عن مسألة تونس[1]، اضطر الباب العالي إلى القبول بالأمر الواقع، وأنْ يستسلم له.

- مصر:

التحقت مصر بالدولة العثمانية، بعد هزائم المماليك المتتالية أمام الجيوش العثمانية، كان آخرها في معركة الريدانية 28 ذي الحجة 922 هـ / 22 جانفي 1517 م[2].

وكان للتحالف الخفيّ الذي بَناهُ المماليك مع الدولة الصفوية الشيعية في إيران ضد الخصم القوي المُشترك (الدولة العثمانية)، وإحجامهم - رغم مطالب العثمانيين المتكررة - عن التحالف مع العثمانيين السُنّة، الدافع القوي لتوجُه هذا السلطان لفتح مصر[3].

اقترضت مصر مبالغ مالية ضخمة من فرنسا وبريطانيا[4]، للإنفاق على مشروع قناة السويس، وحياة البذخ التي يعيشها الحكام. وعجزت مصر عن تسديدها رغم بيعها لأسهمها في القناة[5] في 1292 هـ / 1875 م. وهي وضعية شبيهة بما حدث في تونس من قبل، وأيضا شبيهة لها في نتائجها وتداعياتها[6].

---

[1] ابراهيم بك، مصدر سابق، ص 245.

[2] طقوش، مرجع سابق، ص 171.

[3] ابراهيم بك، ص 83. وأنظر أيضا دحدح، مرجع سابق، ص ص 91-95.

[4] سرهنك، مصدر سابق، ص 342.

[5] الجميل، مرجع سابق، ص 490.

[6] Stanford et Kural, op.cit., p.193.

وبدأ الدائنون يلحُون بطلب تسديد ديونهم[1]، وبدأت الضغوط الخارجية تتوالى على مصر، فرضخت مصر وأجْرَت إصلاحات عسكرية، تركّزت أساسا على تقليص عدد أفراد الجيش[2]. زيادة على رفع الضرائب، واشراف لجنة دولية على تحصيلها، واستخدامها في تسديد الديون[3].

في ظل انهيار الأوضاع المالية في مصر، سعت بريطانيا لتمكين مشروعها الاستعماري في مصر، فادّعت أنّ حياة النصارى والأوربيين مهددة، وعليها واجب حمايتهم. فاستغلت فوضى دامية حدثت ضد الأوربيين في الاسكندرية[4]، وأصيب فيها قناصل أجانب.

قام الأسطول البريطاني بقصف مدينة الاسكندرية في 24 شعبان 1299هـ/ 11 جويلية 1882 م[5]. وعلى الرّغم من أنّ السلطة في مصر تمكنت من توقيف هذه الفوضى، وإعادة الهدوء إلى المدينة، إلا أنّ قائد الأسطول البريطاني واصل القصف وتواصلت معه المجزرة في حق سكان المدينة، وبرّر ذلك بأن فرقة عسكرية مصرية تهدد أسطوله، ويجب تدميرها[6]. وهو ما يثبت أن القلائل في الاسكندرية لم تكن سوى ذريعة تُخفي المطامع الاستعمارية.

---

[1] لقد كانت ظاهرة تسهيل تدفُق الديون وسيلة للتسرّب التجاري والمالي، وأداة يطعن بها الاستعمار ضحاياه. إذ كلما زاد الإقراض زادت معه الضغوط والتدخلات. ولم تكن تلك الديون توظف في مشاريع نافعة أو لتحسين أحوال الناس، بل تُهدرُفي إنفاقٍ سفيهٍ يرعاهُ حكام لا هَمَّ لهم سوى إشباع نزواتهم وبناء أمجاد شخصية وهْمية، فضيّعوا بلدانهم وشعوبهم. ولا تزال هذه الظاهرة ممتدة في واقع أوطاننا الحاضر، وإنْ بمسميات وعناوين، وكذا مبررات جديدة.

[2] أوزتونا، مج 3، موسوعة تاريخ...، ص 134.

[3] Stanford et Kural, op.cit., p. 193.

[4] الجميل، مرجع سابق، ص 492.

[5] نفسه، ص 492.

[6] *« M. DE NOAILLES, AMBASSADEUR DE FRANCE À BERLIN,À M. HANOTAUX », MINISTRE DES AFFAIRES ÉTRANGÈRES* , N° 37, Documents diplomatiques français, op.cit., p p. 165-167.

احتلّ البريطانيون الاسكندرية، ومنها زحفوا صوب القاهرة، واقتحموها في 28 شوال 1299هـ / 12 سبتمبر 1882 م. لتدخل بذلك مصر ضمن ممتلكات بريطانيا الاستعمارية[1].

4- حرب القرم[2].

بَنَت روسيا سياستها في علاقاتها مع الدولة العثمانية على أساس أنها هي الأحق بميراث الإمبراطورية البيزنطية[3]. ولذا كانت تُنافس على ممتلكات الرجل المريض وهو على قيد الحياة، وتستعجل تقسيمها، خاصة وهي ترى بانزعاج محاولات الإصلاح التي ترمي إلى إنقاذ الدولة العثمانية من الوضع الذي آلت إليه.

إن نجاح حركة الإصلاح العثمانية سوف يحُولُ بين روسيا وبين الوصول إلى المياه الدافئة[4]. وكل تلك الظروف هي التي تفسّر استحكام العداء بين الطرفين.

---

[1] أوزتونا، مج 3، موسوعة تاريخ...، ص 135.

[2] القرم: شبه جزيرة في روسيا الأوربية، تقع في الساحل الشرقي من البحر الأسود. أخذت تسميتها من هضبة القرم. سكانها الأصليون هم التتار. وهي اليوم جمهورية مستقلة ضمن دولة أوكرانيا أنظر: نصار وآخرون، مج 5، مرجع سابق، ص 2552. وأنظر أيضا

Bouillet, op.cit., p. 477.

[3] يوسف البستاني، تاريخ حرب البلقان الأولى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص 31.

كان اهتمام روسيا بهذا الميراث الديني والتاريخي يتمفصل حول مدينة القسطنطينية، لموقعها الطبيعي وممراتها البحرية المُغرية. فهي تربط بين القارتين الأوربية والآسيوية من جهة، وبين البحر الأسود والأبيض المتوسط عن طريق المضائق من الجهة الأخرى.

وأمّا عن أهميتها الدينية، فهي مركز أساسي ومعتبر، ارتبط تاريخيا بالكنيسة الرّوسية. ولهذا عندما فتح العثمانيون المدينة، اهتزّت أوربا لهذا الحدث العظيم، وتجنّدت لاسترجاعها، لكنها فشلت أمام استماتة العثمانيين. وكانت محاولاتها تتجدّد بين الحين والآخر، وصُولا إلى القرن 13 هـ / 19 م. حيث أوكلت روسيا لنفسها مهمة استعادة المدينة إلى حظيرة النصرانية، مدفوعة بذلك بالاعياء الذي تمكّن من الدولة العثمانية، والمصائب التي توالت ضرباتها عليها في هذه الفترة من تاريخها.

ولهذا لا نستغرب الحملات الروسية - التي وقفنا على جزء منها في المبحث السابق - لاستثارة النصارى في البلقان على أساس الوحدة المذهبية، ليكونوا ساعدها وسلاحها لتحقيق مآربها وأهدافها. وإن ما يزيد تأكيد ما ذكرناه، هي وصية بطرس الأكبر لخلفائه، التي حثهم فيها على مواصلة استهداف الدولة العثمانية. أنظر: أحمد جودت باشا، تاريخ جودت باشا، مطبعة جريدة بيروت، بيروت، 1308 هـ (1890م)، ص ص 395-398.

[4] أوزتونا، مج 2، تاريخ الدولة...، ص 46.

وأيضا يفسّر سلسلة الحروب التي شغلت فترة متطاولة من تاريخ العلاقات بين الدولتين، بالخصوص خلال القرن 13 هـ / 19 م[1].

بعد أن حدث خلاف بين روسيا وفرنسا حول المقدسات الدينية في بلاد الشام وحماية النصارى فيها[2]، وإلحاح الروس على تغيير الوضع لصالح الأرثوذكس. تشدّدت فرنسا في التمسّك بحقوقها الدينية السابقة.

آثرت السلطة العثمانية الوقوف في صفّ فرنسا[3]، ورفضت المطالب الروسية وأصدرت لذلك قرار في 1268 هـ/ 1852 م. فاستاءت روسيا لهذا الرفض وأعلنت الحرب على الباب العالي[4]، ثمّ أرسلت قواتها لاحتلال إقليم الأفلاق والبغدان[5].

من جانبها أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا بتاريخ 13 مُحرم 1270 هـ / 16 أكتوبر 1853 م. ثم تبعتها بريطانيا وفرنسا في إعلان الحرب عليها

---

[1] إنّ ما ينبغي ذكرُهُ هنا هو أنّ تحديد عامل بعينه ووضعه في صدارة الأسباب التي أدّت إلى تفجير حرب القرم يبدو أمرا عسيرا. إذ ذهب البعض إلى حصرها في المُعاكسات والخلافات الدينية المذهبية بين القوى الأوربية، ومسألة حماية الأقليات النصرانية داخل أراضي الدولة العثمانية. في حين رأى آخرون أنّ المنافع الاقتصادية والسياسية المُتضاربة بين هذه الدول هي التي أججت هذا الصراع وجرّتها إلى هذه الحرب. فانقسام دول أوربا آنذاك بين طامع في تقسيم الدولة العثمانية، وبين راغب في المحافظة عليها، لم يكن أبدا عطفا أو خوفا على مصير الرجل المريض، بل هي مصلحة المراحل التي كانت تقتضي الوقوف في وجه الأطماع الروسية، التي كانت ترمي إلى الاستئثار بالحصة الأكبر من التركة العثمانية، وإبعادها عن المنافسة الأوربية.
ولهذا فإننا نقول: إن امتزاج العناوين الدينية ونزاعاتها بالاعتبارات الاقتصادية والسياسية هو الذي حرّك الأطراف الأوربية إلى خوض غمار حرب قاسية ومؤلمة، كلّفتها الكثير من الخسائر البشرية والمادية. ومع هذا وجب التذكير أيضا، بأنه لا خلاف في أن الإعياء آخذ في التعاظم في كيان الدولة العثمانية، وكان من البديهي جدا أن يكون ذلك هو منطلق هذا التكالب الأوربي في كفّة، وعلّة الحروب الأوربية الأوربية في الكفّة الاخرى.

[2] الشدياق، ج 6، مصدر سابق، ص 160.

[3] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 492.

[4] مصطفى كامل، مصدر سابق، ص 111-112.

[5] Mikaberidze, op.cit., p. 253.

في جمادي الثاني 1270هـ / مارس 1854 م رغبةً منهما في المحافظة على التوازن داخل أوربا، والذي بدأ يختل بعد الهزائم المتلاحقة للجيش العثماني[1].

اصطدمت الأطماع الروسية بالموقف القوّي الذي اتخذته الدول الأوربية التي اصطفّت إلى جانب الدولة العثمانية[2]، لخشيتها الدائمة من امتداد النفوذ الروسي واتساعه[3]. فلم يكن هدف الدول المتحالفة صيانة الدولة العثمانية، والدفاع عنها بقدر ما كان إضعاف الدور الرّوسي، ووضع حد لطموحاته السياسية التي تتعارض مع مصالحها، والتوازن داخل القارة الأوربية.

مع توالي الهزائم والنكبات التي لحقت بجيشها خلال زهاء ثلاث سنوات من الحرب -وأهم تلك الهزائم، سقوط سباستبول (Sébastopol)[4] التي استمرّ حصارها طيلة الفترة الزمنية الممتدة بين ذو الحجة 1270هـ - ذو الحجة 1271هـ / سبتمبر 1854 م - سبتمبر 1855 م[5] - تحققت روسيا من عدم الفوز، سارعت إلى إظهار ميلها للصلح. ولم تجد بُداً من توقيف هذه الحرب، والتسليم بالشروط التي أقرّها مؤتمر باريس في 18 جمادي الثانية 1272 هـ / 25 فيفري 1856م[6].

---

[1] Mikaberidze, op.cit., p. 253.

[2] لقد سعى التحالف الأوربي إلى تحجيم الدور الروسي، وكبح جماح اندفاعه لتدمير الدولة العثملنية وتفكيكها. ولاشكّ في أنّ هذا الموقف - الذي كان ثمنُهُ تقديم السلطنة لتنازلات استراتيجية لدول التحالف - أعطى الباب العالي دفعة جديدة من الحياة للبقاء والاستمرار، ساعده على تأخير الانهيار التام الذي بات وشيكا، وقادما لا محالة.

إلى جانب ذلك، بقيت معها مسألة مصير هذه الدولة وتركَتِها تحتل مكانة بارزة في السياسة الأوربية خلال القرن 13 هـ / 19 م، والتحالفات التي نشأت في هذه المرحلة، مشكلة بذلك مُحددات خريطة أوربا والعالم، وتوازناتها السياسية في القرن القادم.

[3] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 495.

[4] سباستبول: مدينة روسية تقع في أقصى جنوب القرم. تأسست عام 1200 هـ / 1786 م، في عهد كاترين الثانية، على أنقاض قرية تتارية كانت تحمل اسم أكتيار.وهي اليوم تقع ضمن جمهورية أوكرانيا أنظر: نصار وآخرون، مج 4، مرجع سابق، ص 1842. وأنظر أيضا

Bouillet,V 2, op.cit., p. 229-230.

[5] L'avallee, op.cit., p. 538.

[6] علي حسون، مرجع سابق، ص 116 .

وبعد تراجع خطر روسيا على الدولة العثمانية إثر حرب القرم، وإجبارها على التسليم بقرارات مؤتمر باريس، سادت مرحلة مؤقتة من الهدوء والسلم في العلاقات بين الدولتين.

بقيت روسيا تتربص وتترقّب لاقتناص الفرصة المناسبة، للتملص من هذه القرارات، والعودة إلى المطالبة بتسريع تفكيك وتقسيم تركة الرجل المريض، وهو ما تَمَّ في حروب 1294- 1295 هـ / 1877 - 1878م.

انتهت هذه السلسلة من الحروب، بتوقيع الدولة العثمانية وروسيا لمعاهدة سان ستيفانو(San Stefano)[1] بقرية ستيفانو قرب استانبول بتاريخ 1295هـ / 1878 م. وأفضت هذه المعاهدة إلى تنازل الباب العالي عن الكثير من الأراضي، ومنح الاستقلال للعديد من الأقاليم الأوربية. وهو الأمر الذي أزعج القوى الأوربية الاخرى[2].

لم تكتف روسيا بهذه المكاسب، إذ نها بعد أن تحققت من تأييد ألمانيا والنمسا لمشاريعها ونواياها تجاه الدولة العثمانية، إلى جانب ضمانها حياد فرنسا التي خرجت ضعيفة من حربها مع ألمانيا، بدأت في تهييج شعوب البلقان ضد السلطة العثمانية[3]، ممّا استدعى تنظيم مؤتمر، ينظر في معاهدة سان ستيفانو، وأيضا في مشاكل البلقان.

= لمطالعة البنود التي وردت في نصوص معاهدة باريس. يراجع: علي حسون، ص 116-118. وأنظر أيضا محمد فريد بك، ص ص 513- 521. وكذلك نصار وآخرون، مج 6، ص 602.

[1] سان ستيفانو: هي قرية تقع في ضواحي استانبول، تُسمى اليوم يزيلكوي. أنظر: نصار وآخرون، مج 4، مرجع سابق، ص 1784.

[2] نصار وآخرون، ص 1784.

[3] إبراهيم بك، مصدر سابق، ص 143.

5- مؤتمر برلين.

ظلّت روسيا وفية وملتزمة بسياستها التقليدية تُجاه الدولة العثمانية. فبعد انتهاء حروب القرم بهزيمة نكراء وقاسية أبعدتها ولو لفترة مؤقتة عن الساحة الأوربية ومُنازلاتها الاستعمارية، عادت مرة أخرى للتدخل في شؤون الدولة العثمانية وتعلن عليها الحرب، مستغلة حركات التمرّد والعصيان التي انفجرت في البلقان بتحريض منها[1].

تمكّنت روسيا من إحداث تغيّرات هائلة في وضع البلقان[2]، وهو ما أثار القلق والتوتر في أوربا. فدعت ألمانيا إلى عقد مؤتمر تُحلُ فيه مشكلات القارة لتفادي المواجهات الدموية، وعَرضت استفاضة هذا المؤتمر، وهو ما تَمَّ فعلا في 22 جمادي الثاني 1295 هـ / 23 جوان 1878 م[3].

انتهى المؤتمر باتخاذ قرارات[4] مكّنت من تغيير معظم ما فرضتهُ روسيا في اتفاقية سان ستيفانو. وأعادت رسم خريطة البلقان، تلبية لمصالح دول أوربا التي كانت كل واحدة منها، خلال المؤتمر، تسعى إلى الحصول على ما أمكنها من أراضي الدولة العثمانية، بوسائل تآمُرِيه[5].

لقد كشفت قرارات المؤتمر عن حقيقة جارحة، وهي أنّ التدخلات الأوربية في شؤون الدولة العثمانية، وتوزيع ممتلكاتها، واستقطاع أراضيها لتُبنى عليها دول جديدة، أضحى أمرا عاديا وطبيعيا، وكأنّه حق مشروع تطالب به هذه الدول لإشباع نهمها السياسي والاقتصادي.

---

[1] إبراهيم بك، مصدر سابق، ص 143.

[2] سرهنك، مصدر سابق، ص 375.

[3] طقوش، مرجع سابق، ص 441.

[4] لمطالعة تفاصيل القرارات التي أنجزها مؤتمر برلين. يراجع: الشدياق، ج 6، مصدر سابق، ص ص 330- 354.

[5] طقوش، ص 441.

لم يعُد أمام الدولة العثمانية، بعد تخلي كلٍ من بريطانيا وفرنسا عنها، سوى الاقتراب من ألمانيا، الدولة الوليدة، فأخذت تستعين بالمستشارين الألمان، وتشتري سلاحها. واستمرت هذه العلاقة في التطور حتى مطلع القرن 14 هـ / 20 م، الذي بدأت معه دورة تاريخية جديدة، أبرز ما ميّزها، هو الظروف التي بدأت تَلوحُ في الأفق، مُنذرة بحرب كونية.

تعرّضت الدولة العثمانية خلال القرن 13 هـ / 19 م إلى اضطرابات خطيرة ومؤثرة، لم يكن مَبْعَثُها الوحيد هو الأزمات الداخلية، والحركات الانفصالية والاستقلالية التي حرّكتها التيارات والنزعات ذات المنشأ القومي والعرقي خصوصا في أقاليمها الأوربية.

فقد تقاطع هذا الوضع مع رغبة تآمريه أوربية، مدفوعة بأحقاد دينية وتاريخية وقومية، وأهداف اقتصادية ومنافع تجارية، ومصالح سياسية تراوحت بين مقاصد وطنية وشخصية، لتصفية الدولة العثمانية التي كانت تمثل حينها واجهة للعالم الإسلامي وقائدة له - على ضعفها وعجزها - وهذا وفق المضامين التاريخية لما عرف في التاريخ بالمسألة الشرقية.

الفصلُ الأوّل

جُغرَافِيَةُ وَتَارِيخُ بِلَادِ الشَّامِ

المبحث الأول: جغرافيةُ بلاد الشام.

1- أهمية بلاد الشام الجغرافية والحضارية.
2- تسميات بلاد الشام.
3- الحدود الجغرافية لبلاد الشام.

المبحث الثاني: تاريخُ بلاد الشام.

1- بلاد الشام في القديم.
2- الفتح الإسلامي لبلاد الشام.
3- الفتح العثماني لبلاد الشام.

إنّ من تقاليد الكتابة التاريخية التي دأَب عليها المؤرخون، والباحثون أيضا أنهم إذا رغِبوا في تدوين تاريخ بلد ما، قدّموا له بتفصيلِ جغرافيته وتاريخه، حتى يكون إدراك الموضوع المُثار الذي تَصَدّوا له في كتاباتهم إدراكا راسخا. فلا شك في أنّ التدوين التاريخي لا يكون نافعًا وماتعًا من دون الانطلاق من نظرة واضحة وفهمٍ صحيح للأرض وجغرافيتها وتاريخها بوجه عام، وهو ما نسعى إليه من خلال مضامين ومحتويات هذا المبحث.

حَظِيَت بلاد الشام بنصيب وافرٍ من تعاقبٍ للحضارات والامبراطوريات المختلفة. فكان من الطبيعي أن تتعدد تسمياتها وتختلف حدودها الجغرافية باختلاف المراحل التاريخية، بل إن المرحلة التاريخية الواحدة تخضع فيها هذه التحديدات إلى التقسيم الإداري الذي اعتمدته السلطة الحاكمة.

المبحث الأول: جغرافية بلاد الشام.

1- أهمية بلاد الشام الجغرافية والحضارية.

تعود تلك الحُظوة التي استأثرت بها بلاد الشام إلى موقعها الجغرافيّ المِحوري والمفصلي كحلقة اتصال وجسر بين القارات التاريخية الثلاث (آسيا - أوربا - إفريقيا)، إلى جانب اشرافها على البحر الأبيض المتوسط، الذي هو منفذها وطريقها إلى العالم[1].

أمْلت هذه الظروف الجغرافية على بلاد الشام أن تكون هي من فتح الباب أمام الحياة الحضارية، وهي من تحَمّل مسؤولية أداء وظيفة خزّان لأرقي الحضارات

[1] أحمد إسماعيل علي، تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي، ط 2، دار دمشق، دمشق، 1994، ص 33.

التي نشأت في الشرق، وأيضا اطّلعت بمسؤولية نقل الحضارة من الشرق إلى الغرب[1].

لقد كان لطبيعة وجغرافية بلاد الشام، زيادة إلى موقعها المتوسط بين هذه القارات أثر كبير على تاريخها، فهي منذ القديم تقوم بدَور الوسيط بين الحضارات النهرية التي تسَيَدت العالم: حضارة الرافدين، وحضارة وادي النيل، وحضارة بلاد الأناضول.

إلى جانب ذلك، اكتسبت بلاد الشام منزلة مميزة بين الحضارات البحرية التي كانت تتخذ البحر المتوسط مسرحا لها، في اليونان وقبرص وكريت[2]. فتكون بذلك الطريق الطبيعي الوحيد بين هذه الحضارات، خصوصا في المجال التجاري، فكل الطرق التجارية كانت تؤدي إليها أو تمُرّ عبر أراضيها[3].

ونتج عن هذه الحُظوة الجغرافية، تحكُم بلاد الشام في طريق الهجرات التي ارتحلت من قارة إلى أخرى، وأيضا في عبور البضائع التجارية، فهي نقطة تقاطع دولية رئيسية في هذا المجال، ومعها كانت تعبر الأفكار والثقافات والمعتقدات.

إنّ هذه الحُظوة هي التي صَيّرَت بلاد الشام أرضا خصبة لنشوء الطوائف والجماعات الدينية المختلفة، وبُقعة تنفرد بتواصلها بصورة دائمة وسهلة بالعالم الخارجي، وصلة الوصل بين الشرق والغرب، جعلها أيضا مُعرّضة للغزوات والتدفقات البشرية من جميع الجهات[4]. وقد خلّدت تلك الجماعات مُرورها بهذه

---

[1] ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ج 2، مج 1، مطابع الدجوي، القاهرة 1971، ص 313.

[2] الأمين، ج 14، مرجع سابق، ص 58. وأنظر أيضا أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 33.

[3] أندريه ايمار و جانين أوبويه، في كتاب تاريخ حضارات العالم، إشراف موريس كروزيه، ترجمة فريد م.داغر و فؤاد ج. أبو ريحان، ط 2، مج، 1، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1986، ص 255.

[4] فيليب حتي، تاريخ سورية و لبنان و فلسطين، ترجمة جورج حدّاد و عبد الكريم رافق، ج 1، دار الثقافة، بيروت، د.ت.ن، ص 64.

الأرض بآثار حضارية، طبعت تاريخ بلاد الشام بطابعها الخاص. وهو الطابع الذي جعلها بلاد الأقليات[1]، وأيضا البلاد التي بزغ منها فجر التاريخ.

تعود حضارة بلاد الشام إلى الألف الثالث قبل الميلاد، بفعل تواصلها الدائم والمستمر مع الحضارات القديمة التي نشأت في جوارها. ويعود لها الفضل الكبير في إخراج أوربا من حالة البربرية والهمجية[2]، ووضعها على دروب الحضارة

---

[1] الأقليات: لغويا هي كلمة مشتقة من أقلاء، قلل، قليلون، وهي تستخدم للدلالة على الأقلية العددية والتي يُقابلها مصطلح الأغلبية. والأقلية مواطنون يعيشون في بلد ما، ويختلفون من حيث العرق واللغة والدين عن ما ينتمي إليه أغلبية سكان البلد. وقد بدأ الاهتمام بمبدأ حقوق الأقليات منذ المرحلة التي كانت فيها الدولة العثمانية تعاني وتُكابد التهاوي والانهيار. أنظر: دار الشروق، موسوعة الشروق، ج 1، دار الشروق، القاهرة، د.ت.ن، ص 42-43. وأنظر أيضا غانم أحمد الصائغ، *"سياسة بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية"* ، مجلة التربية والعلم، مج 19، ع 5، جامعة الموصل، الموصل 2012، ص ص 1-41.

[2] ديورانت، مرجع سابق، ص 313.

يبقى أن نقول بعد هذا التصريح من مؤرخ عظيم بحجم ديورانت: إنّ هذه الأرض - بلاد الشام والشرق عموما - كانت مسرحا لميلاد أولى عناصر الحضارة في العالم، ومجالا دُونت فيه الفصول الأولى من تاريخ البشرية. وكلّما فكّر المرء في هذه الحقيقة، وهو يرى اليوم هذه الأرض تمُوجُ بالصراعات العنيفة والبشعة المدفوعة، كما هو جلّي وواضح، بمحرّكات طائفية مَقيتة، تتزاحم في مُخيّلته آراء وأفكار، منها ما يدعو إلى الافتخار والاعتزاز بعطاءات هذا الشرق الذي نحن جزء من مُكوناته. ومنها ما يدفع إلى الحسرة والألم على ما بلغه هذا الشرق من تأخر في كل المناحي من جانب، والتحيُز الفاضح للكثير من الغربيين، ساسةً كانوا أو مفكرين لمدنيتهم الحديثة، وترويجهم لفكرة أن الغرب هو مهد الحضارة ومُولّدها وبانيها، من أثينا إلى روما. وهو من تحمّل ويتحمّل أعباء الوظيفة الحضارية وأنّ غيرهُ ليس له نصيب في هذا البناء، في الجانب الآخر، بعد أنْ عرّضوا تاريخه إلى ضروب من التشويه والتقزيم.

وتحولت هذه الفكرة منذ صَعَد الغرب أكثر وتغلّب، إلى عقيدة صنعت لنفسها رأيا عاما مُوجَها، رحّب بها وردّدها. كما انبهرت بهذه العقيدة عقول الكثير من السطْحيين المحسوبين على الشرق نفسه، التائهين في هذا الزمن، من الذين تمّ تطويع وَعْيِهم واستيلاب عقولهم، فآنقطعت صلتهم بتاريخهم وتراثه. وبدل البحث الجاد الذي يقود إلى الخروج من هذه الغفلة، راحوا يروجُون لهذه النظرة الاستعلائية الإقصائية التي تحصِرُ كل النشاط البشري النافع وإبداعاته في الغرب وحده. ومقابل هذه الفَرّية، يجب أن نؤمن برسوخ ويقين، بأن الإنجازات الحضارية هي في المُحصّلة نتيجة لجهود البشرية جمعاء، والتي تشترك في التاريخ الإنساني بكل أطواره، مع الإقرار بأنّ مقاليد الريادة الحضارية اليوم هي بيد الغرب.

وبعدُ، فإنّ رُكنًا من هذه المعمورة، هذا جزء يسير جدا من ماضيه نقلناهُ، هل يحق لنا أن نجهله أو نتجاهله؟ ألا يكون هذا الامتداد الحضاري عوْنا لنا للتخاص من حاضرنا التعيس، الذي صنعته، في جوانب كبيرة منه، طائفية لعينة ضربت بأطنابها وظلالها، فحرّكت الأهواء والعصبيات، بَعَثتها مصادر

وتعليمها الخطوات الأولى لتتحرّك في هذه الدروب[1].

لقد منحت هذه البلاد للعالم الحروف الأبجدية[2]، التي كان لها أثر عظيم على الحضارة الإنسانية، فقد أتاحت التواصل والتدوين والتوارث الحضاري. ويعود هذا الاكتشاف الذي لا يُدانيه في أهميته وقيمته شيء آخر، إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد. ثمّ بادرت هذه البلاد إلى نشرها في العالم، وتفرّع عنها سائر اللّغات، بعد أن نقلها اليونانيون إلى بقية البشرية[3].

لقد كان الفينيقيون[4] هم أول من وضع الكتابة بالحروف، والتي اشتقوها من الهيروغليفية، التي كانت مُجرد رسوم وخطوط، لتسهيل معاملاتهم ومُبادلاتهم التجارية مع المصريين[5]. ثم ورِث الرومان هذه الحروف ليُكوّنوا من جذورها اللغة اللاتينية[6].

وقد كانت الزراعة هي الأخرى من الأفضال العظيمة التي تعود إلى بلاد الشام[7]، بعد أن تمكّن الأنسان من تدجين القمح[8]. فتحوّل فيها الإنسان من حياة

= الشر في الداخل والخارج، في ظل أنظمة الاستبداد التي لاتزال تَنخُرُ العظم، حتى تحولّت الأجساد إلى أشباح تائهة، لاتملك وَعيًا ولا إرادة على العمل والفعل.

[1] إسماعيل علي، مرجع سابق، ص 45.

[2] ايمار و أوبوايه، مرجع سابق، ص 261. وأنظر أيضا حتي، مرجع سابق، ص 3-4.

[3] عفيف البهنسي، الشام الحضارة، ط 1، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، 1986، ص 46. وأنظر أيضا ديورانت، ص 315.

[4] الفينيقيون(الكنعانيون):جماعات سامية هاجرت من شواطئ الخليج العربي صوب سواحل البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، وأقاموا حضارة عظيمة في الفترة (1201-800 ق م). أطلق عليهم اليونانيون اسم الفينيقيين، وأمّا هم فكانوا يُسمون أنفسهم الكنعانيين. انهارت دولتهم على إثر توسعات الملك الآشوري سرجون. أنظر ديورانت، مرجع سابق، 310. وأنظر أيضا نصار وأخرون، مج 5، مرجع سابق، ص 2519. وكذلك

Gagarin and Fantham, V 1, op.cit., p. 196.

[5] يوسف الدبس، تاريخ سورية الدنيوي والديني، ج 1، دار نظير عبود، د.م.ن، 1994، ص 320.

[6] البهنسي، مرجع سابق، ص 51.

[7] حتي، مرجع سابق، ص 17.

[8] أحمد إسماعيل علي، مرجع سابق، ص 33.

الترحال والصيد والقطف إلى مُتوطّن، أنشأ حياةً جديدة فارقة، مبنية على الاستقرار على شكل تجمعات في مواقع ثابتة، تطوّرت بعد مراحل إلى قرى ثمّ مدن. ليبدأ مع هذا الوضع حالة التفاف حضارية مفصلية في تاريخ البشرية.

أمّا أبرز المصنوعات وأفخرها، والتي برَعت فيها بلاد الشام وقدّمتها للعالم منذ العهود القديمة، فهي صناعة الأرجوان[1]. فقد اشتهرت جبيل[2] وصيدا[3] وقيسارية[4] بمصائد السمك الذي تستخرج منه هذه المادة، وبمعامل الصّبغ[5]. ممّا أتاح لها التفرُد بإنتاج الألبسة الملونة[6].

---

[1] الأرجوان صبغة فاخرة تستخرج من سمك المورکس، و هو سمك صدَفي صغير، وسميت هذه الصبغة باسمه. وقد كانت مدينة صور أشهر مركز لانتاجه. وهو يستخدم في صناعة لباس العظماء من الملوك والأمراء وذوو المكانة الرفيعة. أنظر: ايمار و أوبوايه، مرجع سابق، ص 258. وكذلك

Académie française, Dictionnaire de l'Académie Françoise, 4ème Édi, T 2 Imprimeur de l'Académie Françoise, Paris, 1762, p. 342.

[2] جبيل: ميناء فينيقي، يُطل جزء منه على البحر المتوسط، وهي بين طرابلس وبيروت. أنظر: عبد الحكيم العفيفي، موسوعة 1000 مدينة إسلامية، ط 1، أوراق شرقية، بيروت، 2000، ص 185-186. وأنظر أيضا ناصر خسرو علوي، **سفرنامة**، ترجمة يحي الخشاب، ط 2، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1943، ص 59. وكذلك

Bouillet, op.cit., p. 307.

[3] صيدا: مدينة فينيقية ساحلية، تقع على البحر المتوسط، اسمها القديم صيدون. ويوجد رأي يُرجع اسمها إلى صيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح. أنظر: حاتم صالح الضامن، *" باب اشتقاق أسماء البلدان من مختصر الزاهر للزجاجي"* ، مجلة العرب، ج 3 و4، مج 41، أكتوبر- نوفمبر، 2005، دار اليمامة، الرياض، ص ص 159-182. وأنظر أيضا الأمين، ج 15، مرجع سابق، ص 133. وأنظر أيضا علوي، ص 60. وكذلك

Bouillet, op.cit., p. 1662.

[4] قيسارية: مدينة في فلسطين تقع قرب عكا، وجنوب حيفا، على ساحل البحر الأبيض المتوسط. أخذت اسمها من مؤسس الإمبراطورية الرومانية سيزار أغسطس. أنظرعلوي، ص 65. وأنظر أيضا العفيفي، مرجع سابق، ص 317. وكذلك

Bouillet, op.cit., p. 371.

[5] K. T.Khairallah, La Syrie. Territoire. Origines ethniques et politiques, évolution. Esquisses: La vie sociale et littéraire. La vie politique en Syrie et au Liban, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1912, p. 21.

[6] ايمار وأوبوايه، مرجع سابق، ص 258.

كما أقام الفينيقيون مصائد مماثلة لهذا النوع من السمك خارج بلاد الشام، مثلما كان الحال في شُطوط المورة وجزر اليونان، ورودس وكريت. فقد كانت تجارته تدُرُ عليهم ثروة كبرى، وأرباح طائلة[1].

ويرجع الفضل أيضا لبلاد الشام في استنباط الزجاج الشفاف، بعد أن سبقهم المصريون إلى اختراعه. فقد برع الفينيقيون في صناعته، وهم من علّمها لليونانيين. وكانت أيضا هذه البلاد مكانا اكتشف فيه النحاس والخزف[2]، والجواهر والطيُوب والمفروشات المنزلية المصنوعة من المعدن والعاج.

وبذلك حافظ الفينيقيون على نشاط واسع، بعد أن انفتحوا على العالم، ومهّدوا الطريق ببناء المرافئ على طول سواحل البحر المتوسط[3] لغرض التجارة والمبادلة. فتحوّلوا إلى أنشط تُجار العالم القديم[4]، وسادةً للبحر بين سوريا وإسبانيا[5] بفضل مهارتهم في الملاحة، وقدرتهم على التواصل مع الآخرين.

ولا يتوقف عطاء بلاد الشام الحضاري عند هذه الإسهامات الحضارية، بل إنها قدّمت الاسم الذي تحملُه قارة أوربا. فهذا الاسم هو لأميرة سورية حسناء، ابنة اجينور أحد الملوك الفينيقيين، اختطفها أمير يوناني، وسميت بلاد أوروبا تيمماً بها[6].

وأمّا عن أهمية بلاد الشام الدينية[7]، فإنها هي مصدر القِيم الروحية والأخلاقية للبشرية منذ بداية التاريخ. فكل العالم مرّ بهذه الأرض وترك آثاره فيها حيث نجد كل

---

[1] الدبس، مصدر سابق، ص 316.

[2] نفسه، ص 317. وأنظر أيضا أحمد إسماعيل علي، مرجع سابق، ص 33.

[3] ايمار و أوبوايه، مرجع سابق، ص 258.

[4] ديورانت، مرجع سابق، ص 311. حتي، مرجع سابق، ص 4.

[5] نصار وآخرون، مج 5، مرجع سابق، ص 2517.

[6] البهنسي، مرجع سابق، ص 53-54.

[7] احتفى الإسلام ببلاد الشام، وخصّها بمكانة خاصة، سواء في القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة. ففي القرآن، خصّ المولى عز وجل بلاد الشام ببركة المسجد الأقصى، فقال: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ

اللّغات، وكل الأديان في هذه الرقعة من العالم[1].

وباعتبارها مهد الديانات، فإنّ قلوب وأنظار الأتباع تهفو ناحية البقاع المقدسة المتنوعة فيها[2]. فهي منبع الرسالة الأخلاقية، ومركز الروحانية التي يستوحي منها البشر سُبل الهدى والرّشاد[3].

ضف إلى ما سبق، غِناها الطبيعي وثرائها المادي. فالرّي والخصب والسهول والبادية كانت عوامل دفع وجذب باتجاه هذه المنطقة[4]. نتج عنها نشوء تجمعات سكانيّة فيها من مختلف أرجاء المعمورة في وقت مُبكِّر، تتصف بطابع الديمومة والاستمرارية. وهكذا جعلت كل تلك المُقومات من تاريخ سوريا نسخة مصغرة أَلْقَت بظلالها على تاريخ معظم العالم وحضاراته[5].

= السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء، الأية1). كما أقسم الله بثمار في إشارة إلى هذه البلاد، فقال: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) (التين، الأية1). وفي الاحاديث، نالت بلادُ الشام النصيب الأوفر من الذكر والمدح والبركة. ولا يسعنا هنا إيراد كل ما رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلّم بهذا الخصوص، ونكتفي بإيراد الحديث التالي: " عن عبد الله بن حوالة أنه قال: يا رسول الله، اكتب لي بلدا أكون فيه، فلو أعلم أنك تبقى لم أختر على قربك. قال: عليك بالشام - ثلاثا - فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم كراهيته للشام قال: هل تدرون ما يقول الله عز وجل؟ يقول: أنت صفوتي من بلادي، أدخل فيك خيرتي من عبادي، وإليك المحشر، ورأيت ليلة أسري بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ قالوا: نحمل عمود الإسلام، أُمرنا أن نضعه بالشام، وبينا أنا نائم رأيت كتابا اختلس من تحت وسادتي، فظننت أن الله تخلى من أهل الأرض، فأتبعت بصري، فإذا هو نور ساطع بين يدي، حتى وضع بالشام، فمن أبى أن يلحق بالشام فليلحق بيمنه، وليستق من غُدُره (الغدر: بضم الغين وضم الدال جمع غدير)، فإن الله تكفل لي بالشام وأهله". أنظرابن شداد عزالدين بن محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحي زكريا عبّادة، ط 1، ج 1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1991، ص 23. كما تمثل فلسطين، وهي جزء من بلاد الشام، جزء من تاريخ وعقائد اليهودية، فهي أرض مقدسة عند اليهود الذين يدّعون أن الله وَعَدهم بها. ونفس الشيء بالنسبة للمسيحية، فهي وطن المسيح عليه السلام.

[1] Khairallah, op.cit., p. 8.

[2] محمد كرد علي، خطط الشام، ط 2، ج 1، مكتبة النوري، دمشق، 1983، ص 16.

[3] حتي، مرجع سابق، ص 5.

[4] الأمين، مرجع سابق، ص 58.

[5] محمد كرد علي، ص 14-15.

2- تسميات بلاد الشام.

إنّ الدّارس والباحث في المفاهيم والمُسمّيات التي أطلِقت على هذه البُقعة من الأرض، يُواجه صعوبات وعقبات جمّة في تحديد مدلولات هذه التسمّيات، لأنه يجد نفسه أمام العديد من التفاسير والآراء المتضاربة حول أصولها التاريخية، وكذا معانيها.

يُورد اللّغويون والجغرافيون آراء مُختلفة ومتباعدة أحيانا في أصل هذه اللفظة حيث يذكر بعضُهم أن هذه الأرض دُعيت بأرض كنعان نسبة إلى الكنعانيين[1]. وعندما نَزَل بها بنو إسرائيل أطلقوا عليها اسم "الشُأم" لأنهم تشاءموا منها لكثرة المصائب التي حلّت بهم منذ أن وطأتها أقدامهم[2].

ويذهبُ مؤرخون وشُرّاح آخرون إلى أن التسمية تعودُ في أصلها إلى سام بن النبي نوح، و"سام" يُنطق في السريانية "شام"[3]، وبالعبرانية "شيم"[4]. فهو أوّل من نـزل بها واختطّها، فسميت باسمه[5].

---

[1] الكنعانيون: جماعات سامية اضطلعت بدور بارز في تاريخ سوريا القديم، تعود أصولها إلى شبه الجزيرة العربية. ويُرجع المؤرخون تسميتهم بالكنعانيين إلى جدّهم الأول كنعان. وبعد اتصال اليونانيين بهذه الجماعات اطلقوا عليهم اسم الفونكس (الفينيقيون)؛ أي اللّون الأحمر الأرجواني، وأصبحت كلا التسميتين بعد حوالي 1200 قبل الميلاد تعنيان شيئا واحدا. أنظر: دار الشروق، مرجع سابق، ص 253.

[2] محمد بن مكرّم ابن منظور، تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس و رياض عبد الحميد مراد و محمد مطيع الحافظ، ط 1، ج 1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984، ص 40.

[3] شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرّومي البغدادي، معجم البلدان، مج 3، دار صادر، بيروت، 1977، ص 312.

[4] ابن شداد، مصدر سابق، ص 17.

[5] أبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط 3 ج 3، تحقيق مصطفى السقا، دار عالم الكتب، بيروت، د.ت.ن، ص 773. وأنظر أيضا البغدادي صفي الدين عبد المؤمن، مراصد الاطِلاع على أسماء الأمكنة و البقاع، تحقيق محمد على البجاوي ج 2، ط 1، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت، 1954، ص 776.

لكن رأيا آخر يرى أن سام لم ينزل بهذه الأرض قطُ، وأنها سميت الشام بشاماتٍ لها حُمر وسودُ وبيض[1]، وذلك لأن أرضها مختلفة الألوان في التراب والحجر والنبات[2]، أو لكثرة قُراها وتداني بعضها من بعض فشُبّهت بالشامات[3] كما يُسمى الخال في بدن الإنسان شامة[4].

وقيل أيضا أنها سميت كذلك لأنها عن شمال الأرض، كما أنّ اليمن أيمن الأرض[5]، إذ أنّ الناس لمّا تفرّقت لُغَاتُهُم بِبَابِل[6] تَيَامَنَ بعضُهم بِيَمين الشمس، وتَشَاءَم بعضهم شَمَالها، فسميت بهذا الاسم[7]، أو يُقصد بها البلاد التي تقع في اليمين بالنسبة لمكة[8].

---

[1] الحصني، مصدر سابق، ص 26.

[2] أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط 2، مطبعة بريل، ليدن(هولندا)، 1906، ص 152. وأنظر أيضا. عماد الدين اسمعيل بن محمد بن عُمر أبي الفداء، تقويم البلدان، دار الطباعة السُلطانية، باريس، 1830، ص 223. وكذلك ابن منظور، مصدر سابق، ص 40. و كذلك الحموي، مج 3، ص 311. و كذلك محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 8.

[3] الحموي، مج 3، ص 312.

[4] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 7.

[5] أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج 6، مؤسسة الأعلمي، بيروت، د. ت.ن ص 295. وأنظر أيضا مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث و الأثر، تقديم علي بن حسن ين عبد الحميد الحلبي الأثري، ط 1، دار ابن الجوزي للنشر و التوزيع، الرياض، 1421 هـ، ص 463. وكذلك ابن منظور، ص 41. وكذلك الحموي، مج 3 ص 312.

[6] ورد في العهد القديم (التوراة) أنّ الناس لمآ شرعوا في بناء مدينة في أرض سومر، أرادوا بناء برج في قلب المدينة يصل إلى السماء ليتواصلوا مباشرة مع الرب. وكان الناس يتكلمون لغة واحدة يتفاهمون بها في قضاء أعمالهم، وعندما علم الربُّ بما قرّروه، لم يرغب في تدمير بُرجهم، ولكنه قضى بأن يكون لكل مجموعة منهم لساناً - لغة مختلفة عن المجموعة الأخرى - وبهذا لن يستطيعوا متابعة مشروعهم لعدم قدرتهم على التفاهم، وبذلك لم يتمكنوا من إتمام بناء البرج، وتفرقوا في الأرض. يُراجع التوراة، سفر التكوين 11، الأعداد 1-9.

[7] الحِمْيَري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبّاس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص 335.

[8] C.F. *Volney*, Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785, 5ème édi, T 1, Bossange frères, Paris, 1822, p 275; K. T.Khairallah, op.cit., p. 3.

فالشام في اللغة العربية تعني اليسار، إذ يجوز أن يكون معناها مأخوذا من اليد الشُؤمى وهي اليسرى، فيقال أخذ شآمة؛ أي على يساره، وشأمت القوم، ذهبت على شمالهم[1]. وانطلاقًا من الموقع الجغرافي للحجاز حيث مكة، سميت اليمن نسبة إلى اليمين[2]، والشام نسبة إلى اليسار، الذي يُعرف في اللغة أيضا بالشمال[3].

وثمّة تفسير آخر أورده أبو الفداء، حيث يذكر أنّها سُميت شاما لأن قوما من بني كنعان تشآموا إليها، أي تياسروا إليها لأنها على يسار الكعبة[4]. كما ذكر بعضُهم أنّ معنى الشام الطِيبْ[5].

كما ورد في بعض الروايات أن جماعة من بني إسرائيل - بعد أن تمزّقت مملكة سليمان بن داود - دخلت إلى مدينة في فلسطين يُقال لها الشامين وبها سُميت الشام. ثم جاء العرب واختصروا شامين إلى الشام[6].

والملاحظ في جانب آخر، أنّ اتّساع مفهوم "الشام" وتعدد تعريفاته الذي اتّسَمَت به الكتابات التاريخية الإسلامية يكاد يكون - فيما يبدو - معدوما في اللّغات الأجنبية. فالشام تُقابلها في الإنجليزية كلمة "Levant"[7] - وكذا بالنسبة لِلّغة الفرنسية - وهي تُستخدم في تعريف المجال الجغرافي الموجود شرق البحر المتوسط.

---

[1] ابن شداد، مصدر سابق، ص 15.

[2] سميت اليمن لتيامُنِهم إليها، فإنه لمّا تفرّق الناس من مكة والمدينة حين كثروا، فلم تحملهم الأرض التأموا إلى اليمين، وهي أيمن الأرض، فسميت بذلك. أنظر: حاتم صالح الضامن، مرجع سابق، ص ص 159-182.

[3] وردت هذه اللفظة ببمعنى اليسار في سورة الحاقة، الآية 26، جيث يقول البيان الإلهي: (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ **بِشِمَالِهِ** فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ). وقال أيضا في سورة الأعراف، الآية 17: (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ **شَمائِلِهِمْ** وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ).

[4] أبو الفداء، مصدر سابق، ص 223. وأنظر أيضا الحصني، مصدر سابق، ص 26.

[5] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 8.

[6] الحموي، مج 3، ص 312. وأنظر أيضا محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 8.

[7] ورد شرحها اللغوي على انها تعني الشرق؛ أي الجهة التي تُشرق منها الشمس. وهذه اللفظة أصلها فرنسي، استخدمت لأول مرة في تحديد المنطقة الواقعة شرقي المتوسط في القرن 16 م. أنظر:

وتعود هذه اللفظة في اشتقاقها إلى الكلمة اللاتينية "Levantio"، وتعني الارتفاع. أما عند البرتغاليين والإسبان، فكلمة "Levante" تعني الشرق، وهي تُشير إلى الجهة التي تُشرق منها الشمس[1].

ويُستخدم مصطلح الشام اليوم لتحديد المنطقة الجغرافية التي تضم كل من سوريا الحديثة ولبنان وفلسطين - بما فيها إسرائيل، والأراضي المحتلة، وأراضي السلطة الوطنية الفلسطينية - والأردن[2].

أمّا تسمية سوريا فقد أُطْلِقَت على الشام في عهد الإسكندر[3]، مع تخفيفه من اسم أشوري لغلبة الأشوريين عليه، والسين والشين تتعاوران في اللّغات السامية[4]. كما قيل أنّ هذه الكلمة تُنسب إلى بلدة تُسمى "سورية"، وهو اسم لمكان بين خُناصِرة[5] وسلمية[6]، ثم أصبح اسما للشام كلّه[7].

=Académie française, , op.cit., p. 28.

وأنظر أيضا:

Margreet L. Steiner،Ann E. Killebrew, The Oxford Handbook of the Archaeology of the Levant, First Edi, Oxford University Press, Oxford, 2013, p. 2.

[1] Michael Gagarin and Elaine Fantham, The Oxford Encyclopedia of Ancient Greece and Rome, V 1, Academy - Bible, Oxford, 2010, p. 247.

[2] Gülru Necipoğlu, Muqarnas (An Annual on the visual culture of the islamic word), v 13, E.J.Brill, Leiden, 1996, p. 27.

[3] الإسكندر الأكبر (356-323 ق.م): ملك مقدونيا، أحد عباقرة الحرب في التاريخ، بنى امبراطورية واسعة امتدت إلى تخوم الهند. توفي في بابل بالعراق، ودفن في مدينة الإسكندرية المصرية. انظر: البعلبكي، مرجع سابق ص 65.

[4] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 7.

[5] خناصِرة: بلدة من أعمال حلب، تُحاذي قنسرين. واليوم هي بلدة سورية، تقع شرقي نهر العاصي. كانت مركز الإسماعليين. أنظر: بطرس البستاني، دائرة المعارف، مج 7، مطبعة الأدبية، بيروت، 1876، ص 478. وانظر أيضا الحموي، مج 2، ص 390. وكذلك نصار وآخرون، مج 4، مرجع سابق، ص 1877.

[6] سلمية: بلدة قرب المؤتفكة، وهي من أعمال حماة، وتقع في شرقها. أنظر: الحموي، مج 3، ص 240. وأنظر أيضا البستاني، مج 9، مرجع سابق، ص 752.

[7] الحموي، مج 3، ص 280. و أنظر أيضا البغدادي، مصدر سابق، ص 754.

وقيل[1] أيضا أنها تُنسب إلى صور[2] ثغر الشام القديم، ومَخْرَج الصاد والسين واحد.

ورأى آخرون أنّ اليونانيين لمّا دخلوا الشام رَأَوْا الأشوريين يتوَلَون شؤونها فسمّوها أشورية التي تظهر في اللغة اليونانية بشكل شِرِين "Shryn"[3]. ومنذئذ أضحت هذه التسمية هي المتداولة عند الحديث عن هذه البلاد لدى اليونانيين والرّومان. غير أنّ العرب اختاروا اسما آخر لهذه البلاد، وهو الشام[4].

في ناحية أخرى، ثمّة مؤرخون ذكروا أن اسم سوريا مأخوذ من صُور، المدينة التي ارتبطت بمصالح تجارية مع اليونانيين، وكان اسمها صورية، واستبدلت التسمية مع مرور الوقت لتصبح سورية[5]، إذ أُبدلت الصّاد بالسّين لعدم وجود حرف الصّاد في اللّغة اليونانية[6].

وأمّا في اللغة العبرية[7]، والكتاب المقدس في عهده القديم فتُسمي سوريا "أرام"[8]

---

[1] K. T.Khairallah, op.cit., p. 3.

[2] صور: مدينة مشهورة في الشام، من الثغور المُشرفة على البحر، يُحيط بها الماء من جهات ثلاثة. أنظر: البغدادي، ج 3، مصدر سابق، ص 856. و أنظر أيضا الحِمْيَري، ص 369.

[3] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 7. وانظر أيضا حتي، مرجع سابق، ص 62.

[4] الحصني، مصدر سابق، ص 31. وأنظر أيضا

Constantin François de Chasseboeuf, Oeuvres completes de Volney précédées d'une notice sur la vie et les écrits de l'auteur, Firmin Didot frères, Paris, 1857, p. 181.

[5] أمين مدني، التاريخ العربي وجغرافيته، ط 2، ج 3، دار القوافل للنشر والتوزيع الرياض، 2008 ص 389. وأنظر أيضا الدبس، مصدر سابق، ص 32.

[6] أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 28.

[7] Morenas François, Dictionnaire portatif, comprenant la géographie et l'histoire universelle, 8éme Edi, T 8, Louis Chambeau, Avignon, 1762, p. 230.

8 وردت كلمة أرام في الكتاب المقدس في مواطن عديدة، وهي تشير في بداية الحديث عن هذا الاسم إلى أنّ أرام هو من نسل سام بن نوح. ثم تسمّى من جاء بعدة بالآراميين الذين سكنوا أرضا سُميت باسمه. وفي هذا السياق يذكر سفر أخبار الأيام الأول، اصحاح 18 ما يلي: " وجعل داود محافظين في ارام دمشق وصار الاراميون لداود عبيدا يقدمون هدايا.وكان الرب يخلص داود حيثما توجه".

نسبة إلى أرام الخامس من أبناء سام بن نوح، لأنّ كثيرا من سكان هذه البلاد الأقدمين من نسله[1].

وأرجع فريق آخر من المؤرخين اسم سوريا إلى المصريين، فعندما غزوا المنطقة التي تَلي السويس، أطلقوا عليها اسم كسارو التي خُفّفت مع مرور الزمن فصارت سارو ثم سوريا[2].

وقد ورد في الآثار المصرية شعب يسمى آسور تحالف مع الحثيين ضد المملكة المصرية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وبذلك يكون اسم سوريا موجودا قبل قدوم الأشوريين إليها، وأيضا هو أقدم كثيرا من المرحلة التي بدأ فيها اتصال اليونانيين بهذه المنطقة[3].

ووردت في نقوش مصرية أخرى إشارة إلى سَيْر الفرعون تحتمس الثالث[4] إلى بلاد زاهي (Djahi)، ويقصد بها تحديدا الساحل الفينيقي، وأيضا إلى بلاد (ريتينو) التي هي فلسطين وسوريا، لإخماد العصيان فيهما[5].

وأمّا الأشوريون فقد دعَوْا هذه الأرض - عندما كانوا يعبرون الفرات للقيام بحملات عسكرية لجلب بعض المواد وأهمها الخشب - باسم (عبر ناري)؛ أي بلاد

---

[1] الدبس، مصدر سابق، ص 31-32، أحمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 27.

[2] احمد إسماعيل، ص 28.

[3] الدبس، ص 32-33.

[4] تحتمس الثالث: فرعون مصري، حكم في الفترة (1504-1450 ق.م). من الأسرة الثمنة عشرة، فتح سوريا بكاملها، وغزا البلاد الواقعة شرق الفرات. البعلبكي، مرجع سابق، ص 137.

[5] فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ط 3، دار علاء الدين، دمشق، 1997، ص 47.

ما وراء النهر[1]. وفي وقت لاحق أطلق الأشوريون[2] عليها اسم اسورا عربايا (Athoura Arabaya)، ثمّ حُرّفت اللفظة على يد الإغريق إلى سوريا[3].

وأطلق الأكاديون[4] على هذه البلاد اسم عمورا أو أمورو التي تعني بلاد الغرب[5]. وهذا بعد أن نزحت أفواج منهم نحو الغرب واستوطنت هذه الأرض. وهو نفس المعنى في اللّغة السومرية، مع اختلاف في اللفظة التي هي مارتو[6].

ويُشير باحثون آخرون إلى أنّ اسم سوريا جاء من أسور أو أسوريم بن وَدان بن يفشان بن إبراهيم عليه السلام من زوجته قطورة[7]. وأمّا الرّومان، فقد أطلقوا اسم سيروس "Syrus" على كل شخص يتحدث باللّغة السريانية، هذا على الرّغم من أنّ امتداد سوريا عند الرّومان كان يقتصر على الأرض التي تمتدّ بين الفرات ومصر[8].

ويستوقفنا في هذا المضمار، تفسير آخر أورده باحثون اهتموا بالبحث في أصول ومعاني كلمة سوريا أنّه لا يَصِحُ الربط بين اسم سوريا والأشوريين، فهما بعيدتان عن بعضهما البعض.

---

[1] فراس السواح، مرجع سابق، ص 76.

[2] الأشوريون: جماعات خليطة من الساميين، قدِمت من بابل وأكاد، مركز الحضارات في جنوب العراق، وأسسّت حضارة ونظام سياسي في مدينة آشور، أعالي ضفاف دجلة في الألف الثالث قبل الميلاد. ترجع تسميتهم إلى اسور احد أبناء سام. أنظر ديورانت، مرجع سابق، ص 265. وأنظر أيضا نصار وآخرون، مج 1، مرجع سابق، ص 316. وكذلك

M.Bruzen, V 1, op.cit., p. 703.

[3] البهنسي، مرجع سابق، 17-22.

[4] الأكاديون: جماعات سكنت في الجزء الشمالي من بلاد مابين النهرين، والجزء الجنوبي من سومر في الألف الرابع قبل الميلاد، حيث أسسسوا حضارة عظيمة. أشهر ملوكهم سرجون. أنظر نصار وآخرون، مج 1، مرجع سابق، ص 352. وأنظر أيضا

Steiner and Killebrew, op.cit., p. 83.

[5] الأمين، مرجع سابق، ص 337.

[6] البهنسي، مرجع سابق، 12-14.

[7] احمد إسماعيل، مرجع سابق، ص 28.

[8] حتي، مرجع سابق، ص 63.

فقد استخدم اليونانيون اسم "Assyrie" التي تعني بلاد الأشوريين، في بداية القرن السابع قبل الميلاد، وهي الفترة التي بدأ فيها احتكاكهم بهذه المنطقة الخاضعة لحكم الأشوريين، فنسبوا الأرض إليهم، وأطلقوا عليها هذه التسمية.

واللافت هنا وقوع اليونانيون في الخطأ والغلط بعد أن ربطوا بين اسم السلطة السياسية الحاكمة، وتسمية الأرض التي تحكمها هذه السلطة. وخلُصَ هؤلاء الباحثون إلى أنّ جذر لفظة سوريا يعود في أصله إلى الكلمة المصرية القديمة "Hurri"[1] والتي انقلبت مع مرور الوقت إلى "Suri"[2]. وأخيرا، لا تزال هذه البلاد تُعرف في الغرب باسم سوريا، وباسم الشام عند العرب[3].

3- الحدود الجغرافية لبلاد الشام.

تغيّرت تُخُوم سوريا عبر التاريخ، فهي تنبسِطُ وتتسعُ تارة، وتضيق وتنحصر تارة أخرى حسب تقلّب القوى والدول الحاكمة فيها. وهو ما يُفسر التبايُن في مسألة حدود بلاد الشام، وصعوبة الاتفاق على تعريف واحد، وعلى مضامين جغرافية ثابتة على مرّ المراحل التاريخية المتعاقبة. ولذا فإنّ التحديدات الجغرافية التي سوف نوردها في هذا الخصوص تفتقر إلى الدقة بشكل واضح.

اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في ضبط جغرافية وتخوم بلاد الشام، فجعلها البعض تمتد غربا من بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) إلى

---

[1] حوري: نسبة إلى الحوريين، وهم شعوب سكنت بلاد ما بين النهرين في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد. واسمهم ماخو\ من حور ومعناه كهف أو مغارة، لأنهم كانزا يسكنزن المغائر. زحفوا إلى سوريا وأسسوا ممالك عديدة أهمها مملكة ميتاني التي اصطدمت مرارا مع المصريين عندما توسعت صوب الجنوب. انظر: البستاني، مج 7، مرجع سابق، ص 268. وانظر أيضا
Geoffrey W. Bromiley, International Standard Bible Encyclopedia, V 2, Wm. B. Eerdmans Publishing Company, Michigan, 1982, pp. 784-786.

[2] Richard N. Frye, "*Assyria and Syria: Synonyms*" , Journal of Near Eastern Studies (The University of Chicago), Vol. 51, No. 4 (Oct 1992), pp. 281-285.

[3] شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ط 1، د.ن، مصر، 1895، ص 4

البادية من أيلة[1] إلى الفرات، ثمّ منه إلى حد الروم، وشمالها بلاد الروم، وجنوبها مصر وتيه إسرائيل[2].

ولا بُدّ من التوقف في هذا السياق عند ما ذكره لنا أبو الفداء في كتابه تقويم البلدان أنّ الشام يُحيط بها من جهة الغرب بحر الروم، من طرسوس[3] إلى رفح[4] التي بين مصر والشام، ومن الجنوب خط يمتد من رفح إلى تيه إسرائيل، ومن الشرق حدّ من البلقاء[5] إلى صرخد[6]، ومن الشمال حدّ يمتد من الفرات إلى بحر الروم[7].

---

[1] أَيْلَة: مدينة على شاطئ البحر، بين مصر و مكة، وهي أول الحجاز. و هي اليوم تحمل اسم أيلات التي تقع شرق خليج العقبة في فلسطين أنظر: الأندلسي، مصدر سابق ج 1، ص 216. وأنظر أيضا الحميري، مصدر سابق، ص 70، وكذلك الأمين، مرجع سابق، ص 44. وكذلك نصار وآخرون، مرجع سابق، مج 1، ص 567.

[2] أبي القاسم بن حوقل النّصيبي، كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992 ص 153.

أمّا تيه إسرائيل فيقصد به سيناء التي تَاهَ وضلّ فيها بنو إسرائيل أربعين عاما بعد خروجهم من مصر. أنظر: أشرف العناني، سيناء...حيث أنا (سنوات التيه)، ط 1، دار الكتب خان، القاهرة، 2015 ص 5.

[3] طرسوس: مدينة بثغور الشام، بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. وهي اليوم مدينة في شمال سوريا، تُطل على البحر الأبيض المتوسط. أنظر: الحموي، مج 4، ص 28. وأنظر أيضا العفيفي، مرجع سابق، ص 185-186.

[4] رفح: مدينة قرب عسقلان في طريق مصر. وهي اليوم مدينة مصرية في أقصى شمال شرق شبه جزيرة سيناء، على الحدود مع غزّة. انظر : الحموي، مج 3، ص 54-55. وأنظر أيضا العفيفي، مرجع سابق، ص 238.

[5] البلقاء: من أعمال دمشق. وهي اليوم مدينة في شرق الأردن. أنظر: الأمين، مرجع سابق، ص 44. وانظر كذلك الحموي، مج 1، ص 489.

[6] صرخد: بلد قرب حوران، من أعمال دمشق. أنظر الحموي، مج 3، ص 401.

[7] أبو الفداء، مصدر سابق، ص 223.

وأمّا الحموي فيُحددها بين الفرات والعريش[1] وبين جبلي طيئ[2] من جهة القبلة إلى بحر الروم[3].

ويضيف الحموي في موضع آخر أن سورستان - التسمية الفارسية القديمة للمنطقة[4] - هي أرض تشمل العراق وسوريا، و أنّ السريان منسوبون إليها. غير أنّ هرقل ملك الرّوم حين هرب أيام الفتح الإسلامي إلى القسطنطينية التفت إلى الشام وقال: **" عليك السلام يا سورية، سلام مودّع لا يرجو أن يرجع إليك أبدا"**، وهذا دليل على أنّ سورستان هي بلاد الشام[5]. هذا على الرّغم من الوحدة الجغرافية والحضارية التي بين الشام والعراق، إذ أنّ التواصل بين العراق والشام لم ينقطع عبر مراحل التاريخ المختلفة.

عرّفت الكتابات الحديثة بلاد الشام فإنها على أنها بلاد واسعة تمتد بين البحر الأبيض المتوسط غربا، ومن أيلة إلى الفرات شرقا، ثمّ يمتد الحدّ من الفرات إلى جبال الأمانوس[6] وطوروس شمالا، وجنوبا حدّ مصر وفلسطين[7].

---

[1] العريش: أول أعمال مصر من بلاد الشام على ساحل بحر الروم. وهي اليوم مدينة مصرية تقع قرب الحدود مع فلسطين، وهي أكبر مدن شبه جزيرة سيناء.أنظر: الحموي، مج 4، ص 133. وأنظر أيضا الحميري، ص 113. و كذلك العفيفي، مرجع سابق، ص 337.

[2] جبلا طيئ: هما سلسلتان جبليتان متوازيتان في وسط جزيرة العرب، إلى الشمال من مدينة حائل. إحداها تسمى أجا و الأخرى سلمى، وهي تنسب من حيث التسمية إلى قبيلة طيئ التي نزحت من جنوب الجزيرة إلى شمالها. أنظر: يحي نبهان، أطلس الوطن العربي الجغرافي و الطبيعي و السياسي، دار يافا العالمية للنشر والتوزيع، 2010، ص 116. وأنظر أيضا البستاني، مج 9، مرجع سابق، ص 751. وكذلك الأمين، ج 2، مرجع سابق، ص 240

[3] الحموي، مج 3، ص 311- 312.

[4] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 7.

[5] نفسه، ص 279.

[6] جبال الأمانوس: تُعرف أيضا بجبال اللكام، وتبدأ من جبال طوروس وتمتد نحو الجنوب حتى تنتهي إلى البحر في رأس الخنزيرعلى شكل قوس. أنظر: يحي نبهان، مرجع سابق، ص 20.

[7] حتي، مرجع سابق، ص 8. أنظر أيضا

M.Bruzen de La Martiniere, *Le grand dictionnaire geographique et critique*, T 9, Les libraires Associés, Paris, 1736, p 476.

من جهته ذكر لاورتي حاجي (Laorty-Hadji) أنّ حَدّ بلاد الشام شمالا هو آسيا الصغرى، وجنوبا الجزيرة العربية، وشرقا نهر الفرات وغربا البحر الأبيض المتوسط[1]. ويحدده آخرون من إسكندرونة[2] حتى الفرات، ومن غزة حتى الصحراء، والغرب البحر الأبيض المتوسط[3].

وتُقدّم موسوعة أكسفورد تحديدا مُغايرا لما أوردناه سابقا، إذ تذكر أنّ بلاد الشام (سوريا) تمتد بين جبال طوروس شمالا وشمال الجزيرة العربية جنوبا، وبين البحر الأبيض المتوسط غربا إلى بلاد ما بين النهرين شرقا.

وفي الوقت الرّاهن، تذكر ذات الموسوعة ان بلاد الشام تتكون من الدول التالية: سوريا، لبنان، إسرائيل والأردن، مُضاف إليها الضفة الغربية وقطاع غزة، وتُضيف الموسوعة إلى هذه المُكونات كل من قبرص وشبه جزيرة سيناء[4].

وأخيرا، لعل من أبرز التحديدات الحديثة التي يمكن أن تكون الأقرب إلى وضع بلاد الشام الجغرافي وتُخومها، تلك التي وردت في كتاب حسر اللثام، حيث يحصرها بين الأناضول شمالا، والبادية والجزيرة العربية شرقا، والقطر المصري وبلاد العرب جنوبا، والبحر الأبيض المتوسط غربا[5].

---

[1] R.P.Laorty-Hadji, La Syrie, la Palestine et la Judée, Bolle-Lasalle Éditeur, Paris, 1853, p. 4.

[2] إسكندرونة: مدينة في شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام. وهي اليوم مدينة تركية تطل على خليج الإسكندرونة الذي يقع شمال الحدود مع سوريا. انظر: الحموي، مج 1، ص 182. وانظر أيضا الحميري، ص 56. وكذلك العفيفي، مرجع سابق، ص 49.

[3] C.F. Volney, op.cit., p. 275.

[4] Margreet L. Steiner،Ann E. Killebrew, op.cit., p. 2.

[5] مكاريوس، مصدر سابق، ص 4.

وأمّا عن مساحة بلاد الشام، فهي الأخرى تختلف بين الكتابات التي تعرّضت لهذه المسألة. إذ قدّر القدماء طول الشام من العريش إلى نهر الفرات بمسيرة نحو شهر، وعرضه من جبلي طي إلى بحر الروم بنحو مسيرة عشرين يوما[1].

وفي التحديدات الأجنبية، يبلغ معدل طول بلاد الشام نحو ألف كيلومتر، وعرضه نحو مائة وخمسين كيلومتر، ومساحته مائة وثلاثة وثمانون كيلو متر مربع. وقد وصفه بعضهم بأنه على هيئة مستطيل، طوله ضعف عرضه بثمانية أضعاف[2]. بينما تذكر مصادر أخرى بأنّ بلاد الشام تمتد من الشمال إلى الجنوب على طول حوالي سبع مائة كيلومتر، ومساحتها مائة وعشون ألف كيلومتر مربع[3].

لعلّ هذه الخلاصات حققت الغرض في رصد أهمية بلاد الشام الجغرافية التي منحتها الفرصة في السَّبق الحضاري والديني، وكذا الأصول التاريخية والمفاهيمية للمُسميات التي أطلقت عليها عبر مراحل التاريخ المتعاقبة عليها، وأيضا الحدود والتخوم الجغرافية التي لم تكن مستقرة وثابتة. فهي كانت تختلف اختلافاً جوهرياً عما هي عليه التقسيمات السياسية الراهنة في هذه البلاد، والتي - نعتقد - أنها لن تبقى على ما هي عليه، ونحن نرى مخططات التقسيم والتجزئة تتزاحم وتتلاحق.

[1] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 11.
[2] نفسه، ص 12.
[3] Bouillet, op.cit., p. 1722.

المبحث الثاني: تاريخ بلاد الشام.

من نافلة القول التأكيد على أنّ الحدث التاريخي ينمو ويتقلّب في ثنايا وأطوار الزمن الذي يسبقه، على اعتبار أنّ الحاضر يُولد من رَحِم الماضي، والمستقبل من رَحِم الحاضر، وهو التأكيد الذي يفرض علينا الرجوع إلى ماضي بلاد الشام والتفتيش فيه لفهم الموضوع المرتبط بالطوائف والطائفية، وبالمرحلة التي نحن بصدد دراستها.

إنّ لبلاد الشام امتداد تاريخي أصيل وعريق، فقد عمّر الإنسان هذه الأرض منذ أقدم العصور، ممّا جعلها في طليعة المناطق العالمية الأكثر حيويةً في التاريخ القديم. وليس من السّهل الإلمام بكل تلاوينه ومُنعطفاته، وفهمه في موضوع دراستنا، لكن لا بأس من استعراضه، ولو على وجهٍ خاطف، من خلال معالم تحولاته التاريخية الكبرى.

إنّ المبتغى من هذا العرض الخاطف، هو محاولة تفسير ظاهرة التنوع العرقي والديني، التي تحفل بها بلاد الشام. إذ لا يمكننا فَهم هذه الحالة، التي تكادُ تكونُ فريدة، بمعزل عن تاريخ الهجرات والتنقلات البشرية الكثيفة، التي توافدت عليها من الشرق والغرب، وتَركت بصماتها الثقافية والحضارية، على مرّ المحطّات التاريخية التي سنوردها في هذه الصفحات.

إنّ مسألة التنوع التي أشرنا إليها متجذرة وضاربة في التاريخ، وليست وليدة الصدفة أو طارئة، مرتبطة بفترة زمنية معينة، والتعرض للمحطات التاريخية التي تعاقبت عليها هي المنطلقات الأساسية لكل دراسة تاريخية لهذه البقعة.

لقد كانت هذه البُقعة مسرحًا مفتوحًا لتنقلات كبرى للشعوب والقبائل المُترحلة الباحثة عن شروط الحياة، والأمن والاستقرار، وأيضا محط أنظار سياسات التوسع

التي كانت تعتمدها الدول القوية المجاورة لهذه الأرض، في مختلف مراحل التاريخ التي مرّت بها.

منذ زمن سحيق اجتذبت هذه الأرض الهجرات السامية، التي تمكّنت من التسلُّل إلى نواحيها المختلفة، وكانت تستقرّ فيها أحيانا مجتمعة على شكل قبائل، وتنقسم أحيانا أخرى، لتُقيم سُلالات حاكمة وإمارات مُتناحرة. إنّ هذا الواقع التاريخي هو الذي انعكس في الخليط السكاني الذي قلّما نجدهُ في مكان آخر، وكذلك التنوع العرقي والثقافي والديني. وهو التنوع عينُه الذي ميّز البلاد الشامية في الفترة المثارة في الموضوع، وأيضا لا يزال يميّزها إلى يومنا هذا.

1- بلاد الشام في القديم.

لقد أثبتت حضارة الشام وتاريخها أنهما لم يكونا أقل شأنًا من الحضارات المتزامنة معها، بما قدّماه من روائع الإنتاج الحضاري للبشرية، وبالخصوص المجاورة لها في مصر وبلاد الرافدين. فهما يمتدّان إلى الألف الثالث قبل الميلاد[1].

بدأت فيها أولى خطوات الرحلة الحضارية مع بداية موجات الهجرات السامية القادمة من بلاد العرب أو الخليج العربي[2]، لأسباب تجارية، وأخرى تعود إلى حالات الجفاف التي كانت تضرب الجزيرة العربية بين الحين والآخر، وأخرى إلى ما كان يحدث من صراعات وحروب قبلية[3]، وكان في مقدمتها نُزوح الأموريين[4] إليها[1].

---

[1] البهنسي، مرجع سابق، ص 45.

[2] عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.ن، ص 241. ديورانت، مرجع سابق، ص 309.

[3] محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة، 1979، ص 15.

[4] الأموريون: تعني هذه التسمية الغربيين، وهم قبائل سامية زحفت من بلاد الرافدين، واستوطنت أقسام من سوريا وفلسطين حوالي الألف الثالث قبل الميلاد. ويذكر الكتاب المقدس بأن الآموريين قبيلة كنعانية

قدِم الأموريون إلى بلاد الشام على شكل جماعات بدوية، واستقرّوا فيها لتصبح هذه البلاد سامية للمرّة الأولى في تاريخها[2]. ثمّ أقام هؤلاء دويلات صغيرة كانت في مراحل كثيرة من وجودها تابعة لسلطة مصر، وفي مراحل أخرى كانت تتحالف مع الحيثيين[3]، أو تمارس سياسة مزدوجة بين هاتين القوتين العظيمتين[4] حتى تتمكّن من توسيع سلطانها[5].

وكانت هذه الدويلات تستغل فترات ضعف القوى الكبرى المجاورة لتعلن استقلالها عنها[6]. ولقد انقسم الأموريون من حيث النشاط الاقتصادي إلى قسمين: الأول امتهن تربية الماشية في مناطق السهول، والثاني اكتفى بالعيش من الاحتطاب والصيد[7]. واندثرت هذه الدويلات في 1600 قبل الميلاد بعد هجوم مصري كاسح على المنطقة[8].

=أسست مملكة في شرق الأردن. أنظر: نصار وآخرون، مج 1، مرجع سابق، ص 442. وأنظر أيضا زايد، ص 236. وكذلك

W. Bromiley, op.cit., p. 645.

[1] أحمد اسماعيل علي، مرجع سابق، ص 37.

[2] حتي، مرجع سابق، ص 70. وأنظر أيضا زايد، ص 236.

[3] الحيثيون: شعب هندو-أوربي قديم عاش في وسط الأناضول في الألف الثانية قبل الميلاد، يرجع أصله إلى قبيلة ختي، والتي ترجع جذورها إلى حث بن كنعان بن حام بن نوح. وأسّس هذا الشعب دولة كبرى بعد توسعات في سوريا وبلاد الرافدين. واصطدموا بالمصريين مرارا، كان أبرزها معركة قادش في عهد رمسيس الثاني. وسقطت الإمبراطورية الحيثية في أواخر القرن 12 قبل الميلاد، على يد شعوب البحر. أنظر: الدبس، ج 1، مصدر سابق، ص 154. وأنظر أيضا نصار وآخرون، مج 3، مرجع سابق، ص 1421-1422. وكذلك دار الشروق، مج 1، مرجع سابق، ص 145. وكذلك

Gagarin and Fantham,op.cit., p. 247-248.

[4] زايد، ص 237.

[5] حتي، ص 76.

[6] محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت 1987، ص 155-156.

[7] محمد كرد علي، ج 1، مصدر سابق، ص 50.

[8] Thomas Collelo, Syria : a country study, 3rd Édi, Federal Research Division, Washington, D.C,1988, p. 6.

أمّا الأقوام السامية الثانية التي وَفَدَت على بلاد الشام، وكان لها إسهام كبير في حضارتها، فهم الكنعانيون أو الفينيقيون بالتعبير الذي أطلقه اليونانيون عليهم، منذ أن نشطت المبادلات والمعاملات التجارية، وتوسّعت بين الطرفين حوالي 1200 قبل الميلاد[1].

وتعود أصول الكنعانيين إلى كنعان بن حام بن نوح، وجاءوا من جهة بلاد العرب، ولهذا أطلقوا على المدن التي أقاموها في بلاد الشام أسماء محّالَ سُكناهم الأولى في الخليج العربي[2].

على الرغم من أن الفينيقيين لم يُقيموا دولا كبيرة، بسبب وجود قوى أكبر في جوارهم، ففي الشمال الحيثيون، وفي الجنوب المصريين[3]، إلا أنهم تركوا بصمات واضحة في تاريخ العالم وحضارته.

فقد فرض هؤلاء أنفسهم في الميدان الاقتصادي، وأصبحوا من أبرز الشعوب البحرية، وأكبر التجار والمكتشفين في العالم القديم[4]. وهذا منذ أن أخذوا يتوسّعون خارج بلادهم، ويؤسّسون المستودعات والمستوطنات والمستعمرات على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط. كما وصل نشاطهم إلى إسبانيا وبريطانيا وسواحل إفريقيا الأطلسية [5]. بل إنهم كانوا أول من وصل إلى قارة أمريكا[6].

---

[1] حتي، مرجع سابق، ص 76. وأنظر أيضا زايد، مرجع سابق، ص 241. وكذلك دار الشروق، مج 1 مرجع سابق، ص 253.

[2] الدبس، مصدر سابق، ص 241-242.

[3] دار الشروق، مج 1، ص 253. وأنظر أيضا

Collelo, op.cit., p. 6.

[4] ديورانت، مرجع سابق، ص 310. وأنظر أيضا زايد، مرجع سابق، ص 241. وكذلك

Collelo, op.cit., p. 6.

[5] مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج 9، دار رواد النهضة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، د.ت.ن، ص 325. وأنظر أيضا أبو المحاسن، مرجع سابق، ص ص 159- 162.

[6] الخوند، ص 225.

وتلي ذلك هجرة الآراميين من أبناء آرام بن سام بن نوح[1]، وهم أقوام سامية خرجت من شبه الجزيرة العربية[2]، وسكنت في البداية شمال بلاد الشام، ثم أسّسوا دولا كثيرة أشهرها دولة آرام دمشق[3].

بلغت قوة الآراميين ذروتها في نهاية القرن العاشر قبل الميلاد، عندما وسّعوا حدودهم باتجاه بلاد الرافدين، وهددوا الدولة الآشورية. كما فرضوا نفوذهم على أجزاء كبيرة من بلاد الشام[4]، وأصبح القسم الأكبر منها يسمى آرام[5].

وأمّا الهجرة السامية الأساسية الرابعة التي نَزَلت ببلاد الشام، فهي هجرة اليهود، التي أتت من مصر بقيادة النبي موسى في أواخر القرن 13 قبل الميلاد[6]. ثم دخلوا بلاد الشام من الجنوب في 1250 قبل الميلاد[7]، بعد صراع مع الفلسطينيين[8]

---

[1] الدبس، مصدر سابق، ص 152. وأنظر أيضا الحصني، مصدر سابق، ص 30. وكذلك
Laorty-Hadji, op.cit., p. 4.

[2] حتي، مرجع سابق، ص 174. وأنظر أيضا أبو المحاسن، ص 166. وكذلك أحمد اسماعيل علي، مرجع سابق، ص 46.

[3] حتي، ص 177. وأنظر أيضا الخوند، ص 338. وكذلك أحمد إسماعيل علي، ص 46.

[4] حتي، ص 175. وأنظر أيضا زايد، مرجع سابق، ص 353.

[5] محمد كرد علي، ج 1، مصدر سابق، ص 19. وأنظر أيضا
Josiah Conder, Syria and Asia Minor, V 2, W. Clowers, 1819, p. 1.

[6] حتي، ص 190. وأنظر أيضا أندريه و أوبويه، مرجع سابق، ص 265.

[7] حتي، ص 194.
يرجع وجود اليهود في أرض الشام إلى ما قبل النزوح من مصر، وبالضبط إلى عهد نبي الله إبراهيم (عليه السلام)، الذي انتقل من أور في بلاد الرافدين إلى فلسطين وسكنها، وهذا قبل موسى (عليه السلام) بحوالي ألف عام. وأما عن دخولهم الأول إلى مصر، فكان على شكل أسْرى وعبيد، واستند ديورانت في بيانه إلى نصوص من التوراة (العهد الجديد). وهنا نجد أنفسنا ملزمين بإيراد الرواية المقابلة لها من القصص القرآني، والتي حوتها أيات من سورة يوسف، فهي تذكر أن اليهود دخلوا مصر بناءًا على طلب نبي الله يوسف (عليه السلام). أنظر: ديورانت، مرجع سابق، ص 324.

[8] الفلسطينيون: هم من شعوب البحر، وتعود أصولهم إلى منطقة بحر ايجه، قدموا إلى أرض فلسطين عن طريق البر من خلال الاناضول، وأيضا عن طريق البحر. وهناك رأي آخر ينسبهم إلى فلسطين بن كلثوم ولد فلان بن نوح. كما يُرجع بعضهم موطنهم الأصلي إلى كريت. أنظر: حتي، ص 196. وأنظر أيضا حاتم صالح الضامن، مرجع سابق، ص 159-182. وكذلك زايد، مرجع سابق، ص 338.

الذين كان نفوذهم يمتد على طول الساحل، من غزة إلى جنوب يافا[1].

وأعْقبَ هذه المراحل التاريخية، بداية غزوات الآشوريين لبلاد الشام منذ القرن 16 قبل الميلاد، قصد الوصول إلى منفذ على البحر الأبيض المتوسط[2]. ثم أعْقَبَهُم الحكم الفارسي منذ 538 قبل الميلاد[3]، والذي منحَ هو الآخر الفرصة للثقافة الفارسية للامتداد في المجتمع الشامي[4].

وفي عام 333 قبل الميلاد، سقطت بلاد الشام في قبضة اليونانيين، بعد هزيمة الفرس على يد الإسكندر الأكبر[5]، لتبدأ الحضارة اليونانية في التمدد ببلاد الشام. وتنتهي هذه الحقبة بسيطرة الرومان على الشام سنة 64 قبل الميلاد، لتصبح ولاية تابعة لهم[6]. ثم تَلى ذلك ميلاد المسيح (عليه السلام)، لتبدأ خطوة جديدة في تاريخ بلاد الشام والعالم.

=يورد ديورانت بعض تفاصيل هذا الصراع، وما صاحبه من مجازر ارتكبها اليهود في حق الفلسطينيين لدوافع دينية بحتة، تلخصها بعض النصوص الواردة في التوراة، وقد أتى على ذكر بعضٍ منها المؤلِف. وهي تحُث على سفك الدماء و زهق الأرواح، بل والإسراف في القتل والاستمتاع به بتعبير الكاتب. وهي ذات النصوص المحشُوة بها التوراة، التي تفسر ممارسات الإجرام والهمجية، التي يرتكبها جنود الاحتلال الصهيوني - أمام العالم - بحق الفلسطينيين، منذ قيام دولة إسرائيل عشية نهاية الحرب الكونية الثانية، كما تُقحِم هذه النصوص، وهذا الماضي الذي لا يمكننا إشباعُه في موضوعنا، في المعركة السياسية الجارية اليوم بين الفلسطينيين، أصحاب الحق في الأرض، ومُغتصبيها من اليهود. ولمطالعة ما أوردناه. أنظر ديورانت، مرجع سابق، ص 227-228. وأنظر أيضا حتي، ص 194.

[1] أحمد إسماعيل علي، مرجع سابق، ص 63.

[2] الدبس، ج 1، مصدر سابق، ص 261. وانظر أيضا زايد، ص 274.

[3] حتي، ص 239. وأنظر أيضا أحمد اسماعيل علي، ص 65.

لقد اقتصرنا في هذا الصعيد على إيراد الشعوب الأساسية التي سكنت بلاد الشام، أو كان لها تأثير على واقعها. وللمزيد حول الشعوب والقوميات الأخرى، التي لم يكن لها تأثير كبير وحاسم في الرحلة التاريخية والحضارية لهذه البقعة. أنظر: أحمد إسماعيل علي، ص ص 68-70.

[4] البهنسي، مرجع سابق، ص 138. وأنظر أيضا الخوند، مرجع سابق، ص 341.

[5] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 55. وانظر أيضا أحمد اسماعيل علي، ص 66. وكذلك الخوند مرجع سابق، ص 341. وكذلك

Conder, op.cit., p. 81.

[6] محمد كرد علي، ص 57. وأنظر أيضا أحمد اسماعيل علي، ص 66. وكذلك الخوند، ص 344.

2- الفتح الإسلامي لبلاد الشام.

تحت تأثير الانقسامات الدينية والسياسية، والغارات الخارجية المتوالية، بدأ الضعف يدُبُّ في جسد الإمبراطورية الرومانية، إلى أن حدث التفكك في 395 م[1]. ونتج عن ذلك ميلاد حقبة تاريخية جديدة، أهم معالمها، ظهور الدولة البيزنطية راعية الأرثوذكسية، وعاصمتها القسطنطينية[2]. والتحقت بلاد الشام بهذه الدولة[3].

اختلف الوضع في الحقبة البيزنطية عنه في الفترة الرومانية، فقد تحوّلت بلاد الشام في أغلبها إلى النصرانية، مع ظهور طوائف دينية جديدة على المسرح، أبرزها الموارنة. وأصبح الطابع الديني هو السّمة السائدة والطّاغية على حياتها الاجتماعية والسياسية، ويظهر ذلك بشكل جلي في الدور الذي اكتسبته الكنيسة ورجالها في الحياة العامّة[4]. ومع طغيان هذه السّمة انتشرت المظالم الدينية والسياسية[5].

وشهد القرن السادس الميلادي بداية الصراع البيزنطي الفارسي. فقد تمكّنت الدولة الفارسية من بسط نفوذها على بلاد الشام في 613 - 614 م[6]. غير أنّ هرقل تمكّن من طرد الفرس، واستعادة السيطرة على البلاد سنة 626 م[7].

وثمّة مشهد آخر عرفتهُ هذه المرحلة، وهو انتقال قبائل عربية إلى بلاد الشام واندماجها في مجتمعها، إلى الحدّ الذي تحوّلت فيه من الوثنية إلى النصرانية[8].

---

[1] Philippe Droz-Vincent, Syrie: Géographie, économie, histoire et politique Encyclopaedia Universalis, Les Grands Articles, Charcompix/Shutterstock, 2016, p 1937; Conder, op.cit., p. 2.

[2] حتي، ص 386. وأنظر أيضا نصري ذياب خاطر، مرجع سابق، ص 28.

[3] Droz-Vincent, op.cit., p. 1937.

[4] حتي، ص 403.

[5] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 70.

[6] نفسه، ص 70.

[7] Droz-Vincent, op.cit., p. 1937.

[8] محمد كرد علي، ص 69. وأنظر أيضا

وانشأت ثلاث دول عربية، وهي: دولة الأنباط في الجنوب، ودولة تدمر في الشمال ودولة الغساسنة بينهما[1]. وكانت السلطة البيزنطية تدفع لزعماء هذه القبائل رواتب ثابتة، ليكونوا حلفاء لها ضد الفرس، وأيضا ليدفعوا غارات القبائل والبدو على حدودها[2].

كانت العلاقات بين جزيرة العرب وبلاد الشام قوية، بفعل وقوع هذه الأخيرة على الخط التجاري الذي أَلِفهُ العرب منذ أمد، فكانوا على معرفة وثيقة بمساكن ومسالك هذه الأرض. إلى جانب ذلك كان سكان بلاد الشام يروْنَ في المسلمين أمة يرتبطون معها بروابط القربى العرقية[3]. ولهذا كانت من أولى المناطق التي فكّر النبي (عليه الصلاة والسلام) في فتحها[4]، فتطلّع النبي إليها كهدف حيوي سياسي وعسكري لتامين دولة المدينة الناشئة.

وقد تجلّى اهتمام النبي ببلاد الشام في السّرايا المُبكِّرة التي دفع بها صوب هذه البلاد - ولا يعنينا في الواقع، التوقف عند كل تلك السرايا وتفاصيلها، بحكم طبيعة موضوعنا، ولذا سوف يقتصر عرضنا الخاطف على أهمّها وأشهرها - والرّسائل التي بعث بها إلى هرقل. وأيضا اتصالاته بالقبائل العربية لحثها على فكّ ارتباطها بالبيزنطيين.

حدث أن اعترض أحد أمراء الغساسنة مُوفَدَ النبي إلى ملك بُصْرى وقتلهُ فجهّز النبي، جيشا في السنة الثامنة للهجرة للانتقام لصاحبه، يقوده زيد بن حارثة

Droz-Vincent, op.cit., p. 1937.

[1] الحصني، مصدر سابق، ص 37. وأنظر أيضا حتي، ص 416.

[2] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 69.

[3] الخوند، مرجع سابق، ص 347.

[4] محمد كرد علي، ص 69.

والتحم مع الجيش المُتحالف من الغساسنة والبيزنطيين في مُؤتة[1].

وفي العام الذي تلي وفاة النبي (صلّى الله عليه وسلم)، وبعد أن انتهت حروب الردّة في الجزيرة العربية، وانطفأت نيرانها[2]، بدأت عمليات الفتح والإغارة على الدولة البيزنطية في عهد الخليفة أبي بكر الصدّيق (رضي الله عنه)[3]، فجهّز جيشا إلى بلاد الشام، تمكّن من الحاق الهزيمة بجيوش هرقل[4].

وفي سنة 12 هـ / 633 م، وُجهت إلى بلاد الشام ثلاث سرايا تمكنت من فتح أجزاء كبيرة منها[5]. وكانت موقعة أجنادين بتاريخ 28 جمادي الأولى 13هـ / 30 جويلية 634 م التي كسَبَهَا المسلمون[6]، هي سبب تقدم عمليات الفتح[7]. كما أنها دفعت بطموحات المسلمين إلى التطلّع للسيطرة على كل ما تبّقى بيد البيزنطيين في بلاد الشام وجوارها[8].

كما سمحت هذه المعركة للفاتحين المسلمين بالسير صوب دمشق، ودخولها في اليوم الذي توفي فيه خليفة المسلمين أبو بكر الصديق[9]، بتاريخ شعبان 14هـ /

---

[1] مؤتة: أرض بالشام، من أعمال البلقاء. تقع شرق ساحل البحر الميّت الجنوبي. أنظر: البكري، مصدر سابق، ص 1172. وأنظر أيضا الحميري، مصدر سابق، 565. وكذلك حتي، مرجع سابق، ص 416.

[2] أحمد إسماعيل علي، مرجع سابق، ص 103.

[3] Droz-Vincent, op.cit., p. 1938.

[4] الدبس، مصدر سابق، ص 472.

[5] حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 5.

[6] أبي العباس أحمد بن يحي بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1987، ص 156. وأنظر أيضا الحصني، مصدر سابق، ص 42 وكذلك حتي، ج 2، ص 10. وكذلك

Droz-Vincent, op.cit., p. 1938.

[7] الدبس، ج 4، ص 473. وأنظر أيضا لابيداس، مرجع سابق، ص 99-100.

[8] لابيداس، ص100.

[9] غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2013، ص 164.

سبتمبر 635 م[1]، بعد صلح مع أهلها، وردت فيه شروط التسليم، والعهُد على الأمان في أنفسهم وأموالهم ودُور عبادتهم[2].

بعد فتح دمشق، تساقطت مدن الشام الواحدة تلو الأخرى، إمّا عُنوةً أو تسليمًا[3]. إلا أنّ أغلبها وقع في يد المسلمين الفاتحين سِلما بعد أنْ آثر السكان عدم المقاومة والتعاون مع الفاتحين للتخلص من مظالم الحكم البيزنطي[4].

على إثر بلوغ أخبار هذه الهزائم، حشد هرقل جموعا كثيرة من الروم، وأهل الشام من القبائل العربية، لمواجه المسلمين في اليرموك[5] ، والتحم الطرفان في 12 رجب 15هـ / 20 أوت 636 م[6].

وبعد قتال شديد، انهزم هرقل، وولّى هاربا إلى القسطنطينية، وأعلن وداعه للشام قائلا:**" عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدّو "**[7]. ثم توزّع القواد المسلمون على باقي أراضي بلاد الشام، يفتحون ما تبقى منها بيد الروم.

مضى قُوّاد من المسلمين صوب القدس لفتحها، فشدّدوا عليها الحصار سنة 636 م[8]، وأبى أهلها تسليمها، وطلبوا قدوم خليفة المسلمين عمر بن الخطاب

---

[1] Collelo, op.cit., p. 10.

[2] البلاذري، مصدر سابق، ص 166.

[3] حتي، مرجع سابق، ص 10.

[4] أندريه و أوبويه، ج 3، مرجع سابق، ص 113. وأنظر أيضا البهنسي، مرجع سابق، ص 137.

[5] اليرموك: واد في الشام في طرف الغور، يصب في نهر الأردن. وهو المكان الذي وقعت فيه المعركة العظمى بين المسلمين والروم في عهد الصدر الأول للإسلام. أنظر: الحموي مج 5، مصدر سابق، ص 434. وأنظر أيضا الحميري، مصدر سابق، ص 617.

[6] ابن منظور، ج 1، مصدر سابق، ص 212. وأنظر أيضا حتي، ج 2، ص 11.

[7] البلاذري، مصدر سابق، ص 186. وأنظر أيضا لوبون، مرجع سابق، ص 164.

[8] الدبس، ج 4، مصدر سابق، ص 474-475.

(رضي الله عنه)، فجاءها وأبرم مع زعيمها الديني الصلح، الذي بموجبه منح عمر الأمان لكل سكانها[1]، ولم يفرض عليهم سوى جزية زهيدة[2].

خسرت الدولة البيزنطية بلاد الشام، وانتهت معها السيطرة الغربية عليها[3]. واستقرّ الوضع فيها للدولة الإسلامية، وشعر أهل الشام من كل الطوائف بالطمأنينة والدَّعة في ظل حكم كانت دعامته العدل بين الرعية[4]. كما تمّ تنظيم شؤونها وقسمت إلى أربعة أجناد، اقتداءًا بالتنظيم البيزنطي، وهي: جند دمشق، جند حمص جند الأردن، وجند فلسطين[5].

---

[1] لمطالعة تفاصيل عهد الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب في هذه الوثيقة. أنظر: ابن منظور، ج 1 ص 227-228. وأنظر أيضا الدبس، ص 475. وكذلك محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 84.
إنّ مَسِير عمر بن الخطاب إلى القدس، وتسلّمها بنفسه يُشير إلى أمرين هامين: الأول هو ما تتمتع به هذه المدينة من قُدسية ومنزلة عند المسلمين، لِمَا ورد بشأنها في حشد هائل من آيات القرآن والأحاديث النبوية الشريفة. والثاني هو أن الخليفة لم يكن أسيرًا لهواجس القوة والغَلبة التي تُملي في مثل هذه الحالات الانتقام من الضعيف المغلوب والتعالي عليه، وفرض الشروط القاسية والمهينة، وهو أمر تعُجُ به صفحات تاريخ الصراعات في القديم والحديث.
وأمّا عن معاهدة الصلح التي وقعها الخليفة مع أهل القدس، فقد أبانت عن نموذج فريدٍ في التسامح الديني، لم تعرفه أي حضارة من حضارات البشر. وأثبتت أن الإسلام ليس دعوة دينية وحسب، بل أيضا دعوة حضارية وإنسانية. فقد ظهرت في هذه الوثيقة سماحة الإسلام، بكل معانيها وتجلياتها، من خلال إقرار الحرية الدينية لكل الطوائف المُخالفة في العقيدة، على أساس العدل والإنصاف. وأبانت أيضا عن رعاية المسلم لحرمة الأماكن المقدسة للآخر، أيًا كانت عقيدته.
ولم يرِد في هذه الوثيقة ما يحُدّ من حريات هذه الطوائف أو ينتقص من حقوقها. كما أنها لم تُميّز بينها وبين المسلمين الفاتحين المُنتصرين. وأضحت هذه الوثيقة مرجِعًا لكل العهود والمواثيق التي أبرمها المسلمون الفاتحون في أرجاء الأرض التي فتحوها، وأصلا من الأصول الثابتة في معاملة أهل الذمة والعهد من الرعايا غير المسلمين. وأصبح المسلمون أحرص الأمم على صَون عقائد الناس وحمايتها.
إنّ هذه الاخلاق التي تجلّت في هذه الوثيقة في معاملة الآخرين، يقف خلفها فهم سليم للدّين افتقدناه في حياتنا المعاصرة. فمن المسلمين اليوم من يرى في غير المسلمين، ولو كانوا من المُسالمين، أعداءا يوجب قتالهم وقتلهم، بل إنه يُجيز قتل المخالف - بعد تكفيره - من المسلمين في تفاصيل اجتهادية لا علاقة لها، لا بثوابت الدين، ولا بعقيدته.

[2] لوبون، مرجع سابق، ص 165.

[3] الخوند، مرجع سابق، ص 348.

[4] لوبون ، ص 166.

[5] حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 21-22.

اختار عمر بن الخطاب أحد قادة فتح بلاد الشام، واليا عليها، وهو يزيد بن أبي سفيان[1]، ثمّ خلفه، بعد وفاته أخاهُ معاوية في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)[2]. وبعد الصراع الذي نشب بين خليفة المسلمين علي (رضي الله عنه) ومعاوية والي الشام[3]، قامت دولة الأمويين (39- 132هـ / 660-750 م) [4].

اتخذت الدولة الأموية دمشق عاصمةً لها[5]، لتُنهي بذلك الدور السياسي الرّيادي والتاريخي للجزيرة العربية، مصدر الإسلام ومهْدِه[6]. وخلال هذا العهد اعتنى بنو أمية ببلاد الشام وعمّروها، ونشروا فيها الأمان وسِعة العيش، فازدهرت الحياة فيها وانتعش اقتصادها.

وثمّة أمر يجب تبيانه، وهو أنّ الصراعات الدّامية التي رافقت قيام الدولة الأموية، ونشاط هذه الأخيرة الدؤوب، الرامي إلى استئصال جذور الموالين لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، أجبرت بعض الجماعات الشيعية على التسرب إلى داخل بلاد الشام، والاحتماء بمناطق بعيدة عن أعين الأمويين.

ومع بداية انهيار الحكم الأموي، ازداد خُصومه قوةً وشدّةً، فاندفع العباسيون نحو السلطة (656-132هـ / 750- 1258 م)[7]، مصحوبين بعصبيات أكثرها غير

---

[1] أحمد اسماعيل علي، مرجع سابق، ص 155. وأنظر أيضا الخوند، مرجع سابق، ص 349.

[2] البلاذري، مصدر سابق، ص 173.

[3] الحصني، مصدر سابق، ص 72. وأنظر أيضا محمد كرد علي، مصدر سابق، ص ص 104-107. وكذلك أندريه و أوبويه، مرجع سابق، ص 114.

[4] Droz-Vincent, op.cit., p. 1939.

[5] Collelo, op.cit., p. 10.

[6] أندريه و أوبويه، ص 115.

[7] Droz-Vincent, op.cit., p. 1942.

عربية، كانت ناقمة على الأمويين، خصوصا في بلاد فارس[1]، وعلى استعداد للقتال للتخلص من نظام كانت دعامته عربية خالصة[2].

في ظل الحكم العباسي، أُبعد العنصر العربي عن الحكم[3]، فكان الجهد الأول للحكام الجُدد هو بناء عاصمة جديدة لدولتهم، تكون بديلة لدمشق الأموية، وتُلبي أهداف وطموحات العناصر العرقية والمذهبية التي اعتمد عليها آل العباس، فكانت العاصمة الجديدة بغداد[4].

فَقَدت بلاد الشام حُظوتها ومكانتها في العهد الجديد[5]، فحُرم أهلها من الوظائف والمناصب، كما شهدت كل مراحل الحكم العباسي، الكثير من الثورات الأهلية وسفك الدّماء، واستباحة أموال الرعية بسبب ظلم وعسف الولاة الذين تعاقبوا عليها[6]، وأيضا الدسائس التي كانت يبثها البيزنطيون خصوصا في جبل لبنان[7].

بدأت الشخصية القديمة للسلالات العرقية، والعصبيات القبلية التي تحالفت مع العباسيين في التمرّد والتألب على الخلفاء، مُستغلة تداعي هيبتهم، وبوادر الانحلال التي بدأت تضرب الحكم العباسي، فأضحت تملك نفوذا أقوى من الخليفة نفسه[8] وتخضع لسلطة بغداد اسميًا فقط[9]. فانتقلت بلاد الشام إلى سيطرة إمارات هزيلة ذات

---

[1] ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، تعريب أسعد صقر، ط 1، دار طلاس، دمشق، 1997، ص 64. وأنظر أيضا محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 38. وكذلك حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 151-152. وكذلك الخوند، مرجع سابق، ص 351.

[2] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 131.

[3] الخوند، ص 352

[4] لوبون، مرجع سابق، ص 179. أنظر أيضا حوراني، ص 66. و كذلك
Droz-Vincent, op.cit., p. 1942.

[5] الحصني، مصدر سابق، ص 119.

[6] حتي، مرجع سابق، ص 164.

[7] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 118.

[8] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 48. وأنظر أيضا حوراني، ص 72.

[9] الخوند، مرجع سابق، ص 352.

أصول تركية، من بينها: الإمارة الطولونية[1]، والإخشيدية[2]، والحمدانية[3] ذات الأصول العربية النصرانية[4]. كما شهدت هذه المرحلة خروج الشيعة من دائرة الظل، وبداية انتشار التشّيُع بقوة بين السكان، ليصبح الشيعة من المكونات الأساسية للمجتمع الشامي[5]. زيادة على قدوم أفواج من الأرمن، هربت من الاضطهاد الذي لحقها من البيزنطيين، حيث سمح لها والي دمشق العباسي بالنزول في بلاد الشام.

تعتبر هذه المرحلة، التي مرّت بها بلاد الشام من بين أهم المراحل، إذ أنها غَدَت تابعة لمصر وجزء من إدارتها وسلطانها، والتي بدورها حافظت على استقلالها عن الحكومات المركزية الإسلامية رَدْحا من الزمن. وقد تسبّب هذا الوضع في انتشار الفوضى والبؤس والشدّة، وغياب أيّ نشاط للإصلاح[6].

---

[1] الإمارة الطولونية (254-292 هـ / 868-905 م): أول إمارة إسلامية استقلّت في مصر وبلاد الشام عن الخلافة العباسية. أسّسها أحمد بن طولون، وهو من أصل تركي، عيّنه الخليفة العباسي المعتز واليا لمصر. أنظر: البستاني، مج 1، مرجع سابق، ص 569. وأنظر أيضا نصار وآخرون، مج 4، مرجع سابق، ص 2175-2176.

[2] الإمارة الإخشيدية (323-358 هـ / 935-969 م): الإخشيديون أسرة حكمت مصر والشام، أسّسها محمد بن طغج الإخشيد، وأصله من فرغانة فيما وراء النهر. ولاّهُ الخليفة العباسي المتقي مصر بعد تصدّيه للحملة الفاطمية على مصر سنة 321 هـ / 933 م، ومنحهُ الخليفة لقب الإخشيد، والتي تعني في لغة فرغانة ملك الملوك. وبقيت هذه الإمارة قائمة حتى استولى الفاطميون على مصر. أنظر: نصار وآخرون، مج 1، ص 129.

[3] الإمارة الحمدانية (293-406 هـ / 905-1015 م): ينتسب الحمدانيون إلى جدّهم حمدان بن حمدون التغلبي. سعوا إلى السيطرة على الموصل، فعيّن الخليفة العباسي المكتفي أبو الحسن علي بن عبد الله الحمداني عليها، ثمّ امتدّ نفوذهم إلى بلاد الشام بعد افتكاكها من الإخشيديين، وعملوا على نشر المذهب الشيعي فيها. أنظر: الأمين، ج 11، مرجع سابق، ص ص 259-270. وأنظر أيضا نصار وآخرون مج 3، ص 1404. وكذلك

Collelo, op.cit., p. 12.

[4] لوبون، مرجع سابق، ص 229. وأنظر أيضا

Droz-Vincent, op.cit., p. 1942.

[5] كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، ط 2، نوفل، بيروت، 1992، ص 62.

[6] حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 186.

في عام 358 هـ / 969 م[1] أنشأ الفاطميون دولتهم على طَرَف من الخلافة العباسية، في مصر، وأبانوا على مشروع ديني وسياسي مبني على الميراث الشيعي[2]. ثمّ أخضعوا بلاد الشام لسلطانهم[3] - وفي عهد الحاكم بأمر الله ظهرت طائفة جديدة تُدينُ بالولاء للدولة الفاطمية، هي الطائفة الدرزية[4]- ولم يستقر حكمهم فيها لكثرة حركات العصيان المذهبية والسياسية[5].

حَلّت ببلاد الشام في هذه المرحلة النكبات والنوازل، وتحوّلت إلى مرتعٍ خصبٍ للفرق الباطنية التي عاشت عصورها الذهبية في هذه الحقبة، وتنازعت السلطة فيها وأضحت هذه الفرق تشكل قسما من الوضع الطائفي الديني لبلاد الشام.

ففوِي بذلك جانب الجيران البيزنطيين، وأصبحت هدفا لغاراتهم وحملاتهم[6]. كما أنّ أمراء الشام أصبحوا يَستعينُون بالبيزنطيين على أبناء مِلّتهم، لاستخلاص المُلك والحكم[7]، فساء حال البلاد وأهلها.

على أنّ المشروع الفاطمي ما لبث أن اصطدم، في غضون هذه الأحوال، بقوة تركية مسلمة اندفعت من جهة الشرق، استعان بها العباسيون ضد البويهيين[8]، هي

---

[1] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 57.

[2] Droz-Vincent, op.cit., p. 1942.

[3] الدبس، ج 5، مصدر سابق، ص 352. وأنظر أيضا حتي، ص 211. وكذلك حوراني، مرجع سابق، ص 73.

[4] حتي، ص 217. وأنظر أيضا الحويري، مرجع سابق، ص 37. وكذلك الصليبي، منطلق تاريخ... ص 69. وكذلك

Collelo, op.cit., p. 12.

[5] حتي، ص 214.

[6] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 202.

[7] نفسه، ص 231.

[8] البويهيون (334-447 هـ / 945-1055 م): شيعة زيدية، حكموا في ظل الخلافة العباسية. أسّس هذا الحكم أولاد أبو شجاع بويه الثلاثة. وظلّوا يسيطرون على مقاليد الحكم، ويهيمنون على خلفاء بني العباس حتى استطاع السلاجقة دخول بغداد، والقضاء عليهم. أنظر: الأمين، ج 8، مرجع سابق، ص 401-402. وأنظر أيضا نصار وآخرون، مج 2، مرجع سابق، ص 856.

القوة السلجوقية[1]، التي وجّهت ضربة عنيفة للنفوذ الفاطمي في بلاد الشام[2]. كما كانت أول من قَارع الصليبيين، وتصدّى لحملتهم الأولى[3].

ففي عام 468 هـ / 1076 م زحف السلاجقة صوب بلاد الشام، وألحقوها بنفوذهم[4]، فَقُدِّر لهم أن يكونوا اليد التي قضت على الدولة الفاطمية[5]، وأعادت بلاد الشام إلى الخلافة العباسية في بغداد[6]. لكن الفاطميين في مصر لم تنقطع جهودهم في السعي مِرارا لاستعادة نفوذهم في الشام. فتحوّلت إلى أرض تَتَقَاذفُها قوى متعددة ومتنافرة.

ويجب أن نُلفِت النظر إلى أن هذا العهد، شهد ضَخَّ دم وعِرق جديدين في بلاد الشام، تمثّل في التركمان السُنّة، الذين لم يساهموا فقط في مواجهة التوسع الصليبي بل في التغيير على مستوى التركيب الديني والاجتماعي فيها[7]. ثمّ تكرّر توافد التركمان بعد هذا العهد إلى بلاد الشام.

منذ عام 491 هـ / 1098 م[8]، ظهرت شعوب الغرب النصراني كقوة جديدة ناشطة على المسرح الشامي، مستغلة الانشقاق بين الخلافتين العباسية السنية والفاطمية الإسماعيلية. فغَدَت بلاد الشام، تحت وطأة هذا الوضع مسرحا للحروب

---

[1] السلاجقة: عناصر تركية، تعود أصولهم إلى السهول الواقعة شمالي بحر قزوين. ينتسبون إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق الذي أسلمت على يده القبيلة في بخارى. واستولى أحد أحفاده على بغداد عام 447 هـ 1055م، وأصبح تابعا للخليفة العباسي. أنظر: البستاني، مج 9، مرجع سابق، ص 716. وأنظر أيضا نصار وأخرون، مج 4، ص 1867-1868.

[2] الحصني، مصدر سابق، ص 136.

[3] إسماعيل عبد العزيز الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، إشراف أحمد محمد العسّال وعبد الستار فتح الله سعيد، ط 1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1984، ص 62.

[4] Droz-Vincent, op.cit., p. 1943.

[5] أندريه و أوبويه، ج 3، مرجع سابق، ص 338.

[6] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 235-236.

[7] حوراني، مرجع سابق، ص 117.

[8] Droz-Vincent, op.cit., p. 1943.

الصليبية[1]، التي كانت على الأغلب الأعم مُشبّعة بالعاطفة الدّينية[2]، التي امتزجت في أفعال الوحشية والقسوة. ناهيك عن التعصب الديني، وما كان ينطوي عليه من دلالات كريهة.

لقد كان التعصب الديني في أوربا حينها في أشدّ حالاته، ومعظم حكامها يخضعون لسلطان البابا، فارتدَت هذه الموجات لِباس الدّين[3]، مُستغلّةً التمزق الإسلامي الذي عَرضنا له. كما شهدت هذه الحملة تحولا كبيرا في الإيمان الماروني إلى المذهب الكاثوليكي[4].

لم تجد هذ الحملات في بداياتها عائقا بسبب الارتباك الشامل للجبهة الإسلامية واضطراب الموقف على جبهة الشام، التي قُدّر لها أن تتحمّل أعباء هذه الحملات. فقد كانت في وضع لا يسُر، بعد أن آلت إلى دويلات وإمارات متنازعة. ضف إلى ذلك أنها أضحت تعيش تحت وطأة الخلاف بين السنة والشيعة.

تمكنت الموجة الصليبية الأولى من افتكاك القدس بتاريخ 22 شعبان 492 هـ / 15 جويلية 1099 م، ولمدة أسبوع استباح الصليبيون المدينة، وأعملوا السيف في أهلها، وارتكبوا فيها فظائع ومجازر وحشية رهيبة، لم يسبق لها نظير، قُتل فيها أزيد من سبعين ألف شخص[5].

---

[1] الحروب الصليبية: هي حملات أوربية متعددة، قام بها النصارى للسيطرة على الأماكن المقدسة في بلاد الشام. الحملة الأولى في 488 هـ / 1095 م، والثانية 538 هـ / 1144 م، والثالثة 583 هـ / 1188 م، والرابعة 591 هـ / 1195 م، والخامسة 594 هـ / 1198 م والسادسة 609 هـ / 1213 م ، والسابعة 642 هـ / 1245 م، والأخيرة 1255 م. أنظر:

Morenas François, T 3, op.cit., p. 599.

[2] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 68.

[3] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 249.

[4] الصليبي، منطلق تاريخ...ص 92.

[5] Dominique Perrin, Palestine une terre, deux peuples, Presses Univ. Septentrion Paris 2000, p. 49-50.

وقد ترتّب عن هذه الحملات وضع حضاري جديد، لا سيّما في المجال الاجتماعي، والسبب هو وصول أجناس وأصول عرقية من الشعوب الأوربية واستقرار أقسام منها[1]. فصارت بلاد الشام مجتمعا ذو طابع عالمي، فريد في نوعه خضعت أجزاء منها لحكم دويلات يتزعمها أمراء غربيون[2].

غداة بداية أفول القوة السلجوقية، قامت دول الأتابكة[3]، ومن أظهرها وأشدّها قوةً تلك التي نشأت في الموصل، وقد تمكنت في عهد نور الدين محمود[4] من الاستيلاء على دمشق سنة 549هـ / 1154 م[5]، وأخذ نورالدين يتطلع إلى فتح مصر وتوحيدها مع بلاد الشام، حتى يتفرغ لدحر الصليبيين، وتخليص بلاد الشام من أيديهم[6].

أرسل نور الدين محمود حملات لاستئصال الفاطميين الذين تقاعسوا عن الجهاد ومواجهة الصليبيين خوفا على مُلكهم[7]، وتحققّ له ما أرادَ، بعد أن أرسلَ أحد رجاله مصطحبا معه صلاح الدين الأيوبي[8] إلى مصر، والذي آلت إليه زعامة الأسرة الأيوبية. وتمكّن من القضاء على الحكم الفاطمي في 566 هـ / 1171 م[9]

---

[1] الحويري، مرجع سابق، ص 49.

[2] Perrin, op.cit., p. 51.

[3] الأتابكة: كلمة تركية تطلق على الوصّي أو المُؤَدِّب لأمراء الأتراك الذين كان يُعهدُ إليهم بأمر تربيتهم أيام السلاجقة. أنظر: نصار وآخرون، مج 1، مرجع سابق، ص 81.

[4] نور الدين محمود (511-569 هـ / 1118-1174 م): من أبرز أمراء السلاجقة، خلف أباهُ في حكم الاتابكة. هو من تصدّى للحملة الصليبية الثانية. أنظر: نصار وآخرون، مج 7، ص 3430.

[5] حتي، مرجع سابق، ص 234.

[6] الحصني، مصدر سابق، ص 136.

[7] محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 279.

[8] صلاح الدين الأيوبي (532-589 هـ / 1137-1193 م): هو صلاح الدّين يوسف بن نجم الدّين أيوب. أصله من بلدة في أذربيجان بإيران، من عائلة كردية أنتقلت إلى العراق حيث عُيّن والده حاكما لتكريت في عهد السلاجقة، وفيها ولد صلاح الدين. أنظر: الحصني، مصدر سابق، ص 155. وأنظر أيضا محمد كرد علي، ج 2، ص 44. وكذلك نصار وآخرون، مج 4، ص 2101.

[9] Perrin, op.cit., p. 55.

والاتجاه نحو الاستقلال بمصر في إطار الخلافة العباسية، بعد أن أعاد الخطبة من على المنابر لخليفتها[1].

برز صلاح الدين الأيوبي الذي قبض على الحكم في مصر وبلاد الشام، ووطّدَ فيهما دعائم الدولة الأيوبية[2]، بعد أنْ أثْخَنَ الصليبيين ودَحرَهم في معركة حطين[3] 583 هـ / 1187 م. واستعاد القدس منهم بتاريخ 15رجب 583 هـ / 20 سبتمبر1187 م[4]، بعد أن بقيت في أيديهم أزيد من تسعين سنة[5]. وأصبح بعدها يقود دولة تمتد من النيل حتى الفرات[6].

لا شكّ في أنّ معركة حطين كانت من أبرز الوقائع الحربية في التاريخ الإسلامي، حصلت غداة انتقال الجبهة الإسلامية إلى حالة من الصلابة بقيادة صلاح الدين. فقد أفرزت هذه الموقعة تحوُلا كبيرا وظاهرا في ميزان القوة لمصلحة المسلمين في بلاد الشام، وهذا بعد أن صيّرَت من وضع الصليبيين هشًا وضعيفا.

بعد عصر من القوة والعظمة، اهتزّت أركان الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين 589 هـ / 1192 م[7]، وأصابها ما أصاب الدول الإسلامية السابقة، بعد أنْ أتى عليها الخلاف والوهن والتمزق. إذ نشأت أسر أيوبية اقتسمت الحكم في مصر والشام، ونشبت بينها فتن وصراعات[8].

---

[1] الحصني، مصدر سابق، ص 160. وأنظر أيضا نصار وآخرون، مج 7، مرجع سابق، ص 3430. وكذلك الخوند، ج 9، مرجع سابق، ص 358.

[2] Collelo, op.cit., p. 14.

[3] حطين: بلدة بين أرسوف وقيصارية في الجليل، قرب بحيرة طبرية. أنظر: الحموي، مج 2، مصدر سابق، ص 273-274. وأنظر أيضا الخوند، ج 9، ص 359. وكذلك
Mikaberidze, op.cit., p. 363.

[4] Collelo, op.cit., p. 14; Perrin, op.cit., p. 55.

[5] الحصني، مصدر سابق، ص 154.

[6] Droz-Vincent, op.cit., p. 1943.

[7] Collelo, op.cit., p. 14.

[8] حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 242.

وفي ظل هذا الوضع، عادت الكثير من مدن الشام، بما فيها القدس إلى قبضة الصليبيين. وبينما كان خلفاء صلاح الدين من أولاده يتقاتلون على المُلك، اجتمعت كلمة المماليك[1]، وأقاموا سلطانهم في مصر 923 هـ / 1250 م[2] على حساب سادتهم الأيوبيين.

في الوقت الذي كان فيه المماليك والأيوبيون يتنازعون الحكم، اندفع المغول[3] بقيادة هولاكو[4] من جهة الشرق، ودخلوا بغداد 656 هـ / 1258 م[5]، وقتلوا الخليفة العباسي رغم استسلامه[6]. ثمّ تقدّموا نحو بلاد الشام، وظلّوا يتنقلون فيها إلى أن تمكنوا من بسط نفوذهم على معظمها.

حشد المماليك قواتهم رفقة الشاميين الهاربين من التتار[7]، ونظموا أحوالهم، ثم خرجوا إلى الشام بقيادة سيف الدّين قطز[8] يطلبون التتار، فالتقوا بهم في عين

[1] المماليك (648-923 هـ / 1250-1517 م): هم أرقاء من الأتراك والروس والشراكسة والأكراد جلبهم ولاة مصر منذ عهد الطولونيين. واستمرّت عمليات الجَلْب في عهد الأيوبيين. وبعد أن كثروا في مصر استولوا على الحكم، وداموا فيه قرابة 250 عاما. أنظر: نصار وآخرون، مج 6، مرجع سابق ص 3214. وأنظر أيضا الخوند، ج 9، مرجع سابق، ص 360.

[2] Droz-Vincent, op.cit., p. 1944.

[3] المغول: قبائل توزعت على المنطقة الواقعة في هضبة منغوليا وسلاسل جبال تيان شان وصحراء جوبي، وحول بحيرة بايكال. تعيش على الرعي والصيد والغزو. ورغم وحدتها في الأصل، إلا أنها انقسمت إلى قبائل فرعية كثيرة، تحمل كل منها اسما تُعرف به. أنظر: الخالدي، مرجع سابق، ص20.

[4] هولاكو(1217-1265 م): قائد مغولي، حفيد جنكيز خان، أسس الإمبراطورية الإيلخانية في بلاد فارس، بعد أن قضى على الدولة العباسية. حكم في الفترة (613- 663 هـ / 1217- 1265 م). أنظر: نصار و وآخرون، مج 7، ص 3537- 3538.

[5] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 57.

[6] الخالدي، ص ص 89-91.

[7] Mikaberidze,op.cit., p. 577.

[8] سيف الدين قطز:أحد سلاطين المماليك، من أصل تركي،تولى الحكم في مصر عام 657 هـ/1259 م. أنظر: نصار وآخرون، مج 5، ص 2572-2573.

جالوت[1] في 25 رمضان 658هـ / 3 سبتمبر 1260 م[2]، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة أفْنَتْ جمْعَهم، فتفرّقُوا في البلاد. وطاردهم المماليك إلى أن طهّروا بلاد الشام منهم[3]. ومنذئذ أصبحت هذه البلاد من ممتلكات الدولة المملوكية في مصر.

مع كثرة ما بذلته الإمارات الإسلامية المختلفة من الجهد لمواجهة الجيوش الصليبية التي أخذت في الانكفاء عن بلاد الشام، وما ارتكبته من فظائع جاوزت الحدّ من القبح والبشاعة، فإنّها تركت أضرارا جسيمة على المجتمع الشامي وعلاقات طوائفه بعضها ببعض. فقد أشعلت هذه الحملات المتلاحقة التعصب الديني بين المسلمين والنصارى[4].

فقد كان نصارى الشام يتعاونون مع الدُّخلاء، سواء كانوا من الصليبين أو التتّار، ويقفون إلى جانبهم في التنكيل بالمسلمين واحتقار معتقداتهم ومقدساتهم. وعندما يُخفق هؤلاء الدُّخلاء ويتقهقرون، تنتشر أعمال الانتقام من النصارى، وهو واقع خلّف أحقادا طائفية، لم يكن بوسعِ الزمن دفنها.

3- الفتح العثماني لبلاد الشام.

يمثل انهيار دولة المماليك، وامتداد سلطة العثمانيين إلى بلاد الشام تحوُلا هاما ومفصليا في تاريخ هذه البقعة. فقد فتح عهدا جديدا لسلسلة من الأحداث والوقائع في هذا التاريخ الطويل والممتد، الذي استمرّ زهاء أربعة قرون من الزمن.

---

[1] عين جالوت: هي بلدة صغيرة بين بيسان ونابلس، قرب الناصرة، من أعمال فلسطين. أنظر: الحموي مج 4، مصدر سابق، ص 177. وأنظر أيضا نصار وآخرون، مج 7، ص 3538. وكذلك الخالدي ص 108.

[2] Mikaberidze,op.cit., p. 578.

[3] الخالدي، مرجع سابق، ص 109. وأنظر أيضا الخوند، ج 9، مرجع سابق، ص 362.

[4] محمد كرد علي، ج 2، مرجع سابق، ص 128.

اتسعَت بين الناس في بلاد الشام، صُور ومظاهر الشّقاء، والظلم والاستبداد المملوكي، وذاعت الفوضى في أرجاء البلاد[1]. ونتيجة لهذه الأوضاع، تطلّعَ الشاميون إلى الدولة العثمانية التي كانت حينها في مرحلة شبابها[2].

ففي الوقت الذي كان فيه المماليك يتحركون نحو الانهيار، لأسباب عديدة أهمها: تحوُل طرق التجارة الدولية عن موانئهم، نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، والذي شكّل ضربة قاسمة لاقتصادهم[3]. إلى جانب بداية تعرُضِهم لخطر البرتغاليين... كانت الدولة العثمانية ترتقي وتنمو على حدودهم[4]، وتشق طريقها الخاص بها، ممّا أثار قلقهم، وحرّك مخاوفهم[5].

بعد مرحلة الودّ والتفاهم والتعاون التي طبعت العلاقات بين الدولتين العثمانية والمملوكية السُنِّيَتَين[6]، تصاعدت حدّة التوتر بين الطرفين، بدخول العلاقات بينهما مرحلة جديدة، اتسمت بتزايد المناوشات والمُصادمات العسكرية على الحدود[7] والتي خلّفت متاعب جمّة لسلطة المماليك. فأضحى هذا الصراع الإسلامي قائما بين قوة تقليدية مُتهالكة، اجتمعت فيها عوامل الأُفول، وقوة أخرى جديدة، فَتَحَ الوضع المملوكي شهيتها للتمدد والتوسع.

---

[1] محمد بن محمود الحلبي ابن أجا، العِراك بين المماليك و العثمانيين الأتراك، تحقيق محمد أحمد دهمان، ط 1، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، د.ت. ن، ص 203. وأنظر أيضا ديورانت، ج 5 مج 6، مرجع سابق، ص 51.

[2] طقوش، مرجع سابق، ص 162. وأنظر أيضا محمد كرد علي، ج 2، ص 205.

[3] ابن أجا، مصدر سابق، ص 203. وأنظر أيضا أندريه وأوبويه، ج 3، مرجع سابق، ص 551.

[4] Stanford et Kural, op.cit., p. 84.

[5] أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 82. وأنظر أيضا طقوش، ص 162.

[6] ابن أجا، ص 203. وأنظر أيضا طقوش، ص 162.

[7] ابن أجا، ص ص 181-195. وأنظر أيضا إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص 58.

تعود أولى المناوشات بين العثمانيين والمماليك إلى حملات كَرّ وفرّ محدودة كانت تجري على تخوم الشام الشمالية[1]، وكان النصر في هذه الحملات والتجريدات يتأرجح بين الطرفين. ولكن الخلافات أخذت تقوى وتطفو على السطح في عهد السلطان سليم الأول[2]، بعد أن ارتاب في موقف المماليك، وتبيّن له ما كان من تحالفهم مع الصفويين[3].

بادر السلطان العثماني إلى مُراسلة المماليك، يَحُثُّهم على التحالف ضد الصفويين الشيعة[4]، لكن المماليك آثروا الحياد، غير أنّه كان حِيادًا فيه كثير من الخداع، وهذا على الرغم من أن المماليك كانوا على عداوة مع الصفويين مذهبيا[5].

إلى جانب التنافر المذهبي، فقد تحالف الشاه إسماعيل[6] مع البرتغاليين أعدَائهِم في البحر الأحمر، إلا أنّ المماليك انتظروا أن تتحطم احدى القوتين، سواء السُنية أو الشيعية بِيَد الأخرى[7]. فقد كانت سياسة المماليك حينها ترمي إلى ترك القوتين العثمانية والصفوية تصطدمان ببعضهما لتخفيف الضغط على دولتهم المتداعية.

---

[1] سرهنك، مصدر سابق، ص 70. وأنظر أيضا محمد كرد علي، ج 2، ص 196.

[2] سليم الأول: سلطان عثماني حكم في الفترة (917-926 هـ / 1512-1520م). مع جلوسه على العرش، لُقب بالياوز (Yavuz)، أي القاطع. امتد حكمه تسع سنوات. أنظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 241.

[3] الحصني، مصدر سابق، ص 235. وأنظر أيضا محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 192.

[4] ابن أجا، مصدر سابق، ص 230. وأنظر أيضا طقوش، مرجع سابق، ص 162.

[5] دحدح، مرجع سابق، ص 94.

[6] الشاه إسماعيل: مؤسس الدولة الصفوية، حكم في الفترة (906- 930 هـ / 1501-1524 م). جعل التشيُع مذهبا رسميا لها. خسر المعركة الفاصلة التي جمعته بالسلطان العثماني في جالديران بتاريخ 920 هـ / 1514 م. أنظر: البعلبكي، ص 57. وأنظر أيضا نصار وآخرون، مج 1، مرجع سابق، ص 301.

[7] طقوش، مرجع سابق، ص 164. وأنظر أيضا دحدح، مرجع سابق، ص 94.

سار السلطان العثماني سليم الأول صوب بلاد الشام، واصطدم بالمماليك في منطقة مرج دابق في الشمال الغربي لحلب[1]، بتاريخ 25 رجب 922 هـ / 24 أوت 1516 م[2]، وهزمهم هزيمة مُنكرة، سقط فيها سلطانهم صَريعا. واضطربت أحوال من بقي منهم حيًا، فتفرّقوا بين مدن الشام[3]. ووثَبَ عليهم أهل هذه المدن قتلا ونهبًا بسبب الحقد القديم عليهم[4].

وفي دمشق، استقبل السلطان العثماني وفدا من دروز لبنان الذي كان يخضع لسلطة أسرة مَعَان الدرزية، ومنح هؤلاء القادة ألقاباً شرفيّة ومناصب رفيعة، وأضحى الحكم بأيديهم مُطلقا ومُتوارثا داخل العائلة الإقطاعية. كما منحهم صلاحيات واسعة في تسيير الشؤون المحلية مع التزامهم بتحصيل الضرائب لصالح السلطة المركزية[5]، وهو الأمر الذي يفسر إيجابية العلاقات العثمانيّة- الدّرزيّة بصورة عامة على مدار الحكم العثماني للمنطقة.

بعد أنْ تساقطت مدن الشام في يده تِباعًا[6]، تقدَّم السلطان سليم الأول تجاه مصر التي اضطربت أحوالها، وانتشر فيها الخوف بين الناس وحكامهم[7]. وفي غضون ذلك حشد فُلول المماليك المتبقية قواتهم، بعد أن اختاروا سلطانا جديدا[8]، وخرجوا لملاقاة العثمانيين في الرّيدانية، كما مرّ علينا، لكنهم انكسروا بعد أن انقضّ عليهم العثمانيون. وبذلك طويت صفحة المماليك، ودخلت بلاد الشام ومصر في حوزة الباب العالي.

---

[1] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 192.

[2] سرهنك، مصدر سابق، ص 71. وأنظر أيضا أبوعلية، الدولة العثمانية والوطن...، ص 147.

[3] ابن أجا، مصدر سابق، ص 251.

[4] نفسه، ص 254.

[5] Un témoin oculaire, Souvenirs de Syrie, Libraiarie P LON, Paris, 1903, p 91-92.

[6] محمد فريد بك، ص 192.

[7] ابن أجا، مصدر سابق، ص 277.

[8] الحصني، مصدر سابق، ص 236.

إنّ أهمّ ما يُشار إليه، هو ما أعقب إلحاق مصر وبلاد الشام والمناطق الإسلامية المقدسة بالسلطنة العثمانية، وتنازل محمد المتوكل على الله، آخر ذرية العباسيين والذي كانت له خلافة إسمية يستظل بها المماليك في مصر، عن الخلافة الإسلامية للسلطان سليم الأول[1]، وتسليمه بقايا آثار النبي، ومفاتيح الحرمين الشريفين[2]، لتصبح بعدها الدولة العثمانية تملك الشرعية الدينية، وصفة الخلافة، ممّا أتاحَ لها ثِقلا حضاريا خاصا في العالم الإسلامي.

[1] ديورانت، ج 5 مج 6، مرجع سابق، ص 51.

[2] الحصني، مصدر سابق، ص 239. وأنظر أيضا محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 194.
إن من أعقد المعظلات التاريخية التي لا تزال تُطرح عند تناول الفتح العثماني لمصر، ما يُذكر عن مسألة انتقال الخلافة إلى آل عثمان، فالوقائع التاريخية لم تُشِر أو تُلمّح إلى تنازل الخليفة العباسي عن الخلافة للعثمانيين. لكنّ الأكيد أنّ السياسة العثمانية منذ تولي السلطان سليم الأول الحكم، انطلقت في البحث عن الشرعية الدينية للسلطنة.
ويبدو أن الحصول على هذه الشرعية هو الدافع الذي وقف وراء الحملة التي أدّت إلى الإجهاز على الدولة الصفوية الشيعية في بلاد فارس، وعلى دولة المماليك في مصر والشام، والتي بدورها كانت قاعدتها ومشروعيتها مبنية على وجود آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة، والذي أصبح أسير العثمانيين. فالاعتبار الذي كان سائدا آنذاك أنّ العمق العربي ضرورة ملحّة للدولة العثمانية بما يملكه من بُعدٍ ديني و حضاري و جغرافي واقتصادي.
انطلق السلطان سليم الأول في تسيير حملته ضد الدولة المملوكية من مبدأ أن هذه الدولة تشكل عائقا بينه، وبين توحيد العالم الإسلامي. فقد خطط لإحياء الخلافة الإسلامية، فكان منطقيا أن يتحوّل تركيزه إلى حيث تعيش الأكثرية المُسلِمة، والتي يمكن الاعتماد عليها في تحقيق الوحدة والخلافة المنشودتين.
إنّ الانتصارات التي حققها هذا السلطان إنْ على الجبهة الصفوية أو الجبهة المملوكية، جعلت منه أقوى حاكم مسلم بلا مُنازع آنذاك، كما أضحت الدولة العثمانية وريثة الخلافة الإسلامية بقوة الأمر الواقع. فسواء صحّت روايات نقل الخلافة أم لم تصِح، فالمعلوم أنها في هذه الفترة كانت هي من يتحكّم في موازين القوي الدولية، ناهيك عن الإسلامية. ففرضت نفسها في حياة المسلمين وواقعهم، والذين كانوا حينها في أمسّ الحاجة إلى قوة إسلامية فتية تذود عنهم، وتواجه الأخطار التي كانت تُحدق بهم من كل الجهات، منذ بداية عصر النهضة الأوربية، وما رافقها من حملات خارجية تحت مُسمّى وعنوان الكشوفات الجغرافية.

الفصل الثاني

الطَّائِفِيَّةُ فِي بِلَادِ الشَّامِ فِي القرْنِ 13هـ / 19 م

المبحث الأول: الطوائف المُشكّلة للمجتمع الشامي في القرن 13 هـ / 19 م.

1- المسلمـون.
2- النصــارى.
3- الإيزيديون.
4- اليــهـــود.

المبحث الثاني: المُوَلّدَات الداخلية للطائفية في بلاد الشام في القرن 13 هـ/ 19م.

1- التنظيم الإداري والديني.
2- الحملة المصرية.
3- جبل لبنان.

المبحث الثالث: المُوَلّدَات الخارجية للطائفية في بلاد الشام في القرن 13هـ/19م.

1- آليات التدخل الخارجي.
2- التدخلات الطائفية الخارجية.

يُـعدّ موضوع الطوائف في بلاد الشام من المواضيع المهمة والحسّاسة في تكوين الدولة العثمانية خلال القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. إذ أنّ وضع هذه الطوائف تسبّب في خلل وفوضى أفرزت الإحساس الطائفي المدفوع في أغلب الفترات باتساع حالة التذمر من سياسات التعسف المحلية داخل المجتمع الشامي في جانب، والولاءات والارتباطات الطائفية المُبَطّنَة والمُعلنة المُترافقة مع التدخلات الخارجية التي كانت تسعى لتأجيج هذا الإحساس، في جانب آخر.

صـحيح أنّ التجانس يكون في الأغلب أحد ركائز ومُدخلات تماسك المجتمع واستقراره، وأحد عوامل ارتقائه وصعوده. وقد كان التنوع الطائفي أمرا واقعا في الدولة العثمانية - نتج تلقائيا عن اتساع الدولة وامتدادها في فترات تاريخية مختلفة - وسمة رئيسية في تركيبتها المُجتمعية، ورافدا مهما في نجاحها وتألقها.

ففي هذه الحقبة تصدّت السلطة لكل العوامل والظروف التي تـُنبِتُ العصبيات الطائفية. غير أنه مع بداية تراجع دور العظمة والقوة، انفجرت هذه الظاهرة، وارتفع منسوبها وتحوّلت إلى مصدر للأزمات، وبدأت تهدد أوصال وكيان الدولة من الداخل.

بالرّغم من الاختلافات الظاهرية القائمة بين الباحثين اللّغويين حول موضوع تعريف الطائفة، إلا أنّ كل تلك التعريفات تحمل مدلولا واحدا. فالطائفة في لغة العرب معناها اللّفظي هو القطعة من الشيء، والطائفة من الشيء: القطعة منه[1].

[1] أبي الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، لسان العرب، ط 3، مج 9 دار صادر، بيروت، 1414 هـ، ص 226. وأنظر أيضا مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروزآباديّ القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص 833. وكذلك الفراهيدي، ج 3، مصدر سابق، ص 66.
إنّ مما يلتبس ويتداخل لدى البعض عدم التفريق بين الطائفة والمذهب: فالمذهب هو المُعتقد و الطريقة. أنظر: ابن منظور، مج 1، ص 2665. ومن خلال التعريفين، يتضح أنّ مفهوم ودلالة الطائفة أوسع وأشمل - فيما يبدو - من مفهوم المذهب من حيث المفهوم والمعنى. فالمذاهب تشكل أجزاء داخل الطائفة الواحدة، تتباين في أمور ومسائل اعتقادية مُعينة، ناتجة عن اختلاف الاجتهادات و التأويلات. وفي

وهي من الفعل طاف وطَوف الذي تجتمع معانيه ودلالاته اللّغوية حول دَارَ وحَامَ[1]. وأمّا من حيث المفهوم فيُقصد بها الجماعة والفرقة من الناس، يَجمعُهم مذهب أو رأي يمتازون به[2].

أمّا بالنسبة للّغات الأجنبية، فإنّ كلمة طائفة تقابلها في اللّغة الفرنسية لفظة "Secte"، وفي الإنجليزية "Sect". وهي مُشتقة من الأصل اللّغوي اللاتيني "Sequi" والتي تعني الإتباع والانقياد[3]. ومن حيث المفهوم، فهي تدُلُ على مجموعة منظمة مُكونة من أشخاص لديهم نفس المعتقد الديني أو الفلسفي أو غيرهما[4]. ومن الطائفة تولّدت الطائفية "Sectarisme" التي تعني التعصب لطائفة معينة ذات مذهب معين، ويكون الغُلُو والتّزمُت في اتبَاعِها والذوْدِ عن منظومة قِيَمها هو السّمة الغالبة عند الشخص الطائفي[5].

= مضمار آخر، يجب التنويه إلى أنّه لا يجوز ربط الطائفة بالأقلية العددية أو أنها تختلف عن السّائد، فهذا اللفظ يُطلق أيضا على الأكثرية العددية، فالمسلمون، على سبيل المثال، يشكلون طائفة، بغض النظر عن عددهم،.إزاء النصارى واليهود. فالطائفة تطلق على الأكثرية والأقلية على حد سواء.

[1] أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ج 1، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، د.م.ن، د.ت.ن، ص 406. وأنظر أيضا مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004، ص 570.

[2] نفسه، ص 571.

[3] J. Planche, Vocabulaire des latinismes de la langue française: ou, Des locutions française, Le Normand imprimeur, Paris, 1822, p. 85.

[4] Bernard Fillaire et Janine Tavernier, Les Sectes, Le Cavalier Bleu Éditions, p. 5.

[5] أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة، ط 1، مج 2، عالم الكتب، القاهرة، 2005، ص 1423. وأنظر أيضا م.ل.ع، مرجع سابق، ص 571.

تكررت لفظة الطائفة في القرآن الكريم في مواضع شتى، ووردت بمعنى: الجزء من الكُل. وتشترك كل الآيات التي وردت فيها هذه اللّفظة في نفس الدلالة. ومع أدنى مراجعة لهذه الآيات يتضح أنها لا تحمل مطلقا مضامين ودلالات سلبية تُؤشر أو تُشير للتشرذم والانقسام. وممّا يجب التشديد عليه هنا هو أنّ القران شَجَبَ كل أصناف الطائفية والعصبية، وأنكر التحزّب والإقصاء والانغلاق، وأدَانَ الإساءة إلى الآخرين في معتقداتهم ومقدساتهم مهما كان جوهرها ومظهرها. فلفظة طائفة في القرآن إنّما وردت للتعبير غالبا عن جماعة من الناس، بغض النظر عن الدين والعرق.

ولكن قد نجد من يحتج بما يقع في بلادنا الإسلامية من احتراب طائفي - يبدو للوهلة الأولى أنّ محرّكه هو الدين - ويعترض على ما سُقناهُ هنا، ليَرُدّ هذا الواقع إلى الدّين نفسه، بكل ركائزه وأصوله الأساسية.

في ضوء ما سبق عرضه، يمكننا القول بأنّ الطائفة تعني بالأساس مجموعة من الناس تربط بينها رابطة ما: النسب أو الدين أو المذهب. وأما الطائفية فهي تمسُك الجماعة بمصالحها، ومنظومة مبادئها وقيمها المشتركة - التي غالبا ما تكون مُخالفة للسائد - وتعصُبها لها في كل الظروف.

المبحث الأول: الطوائف المُشكلة للمجتمع الشامي في القرن 13 هـ / 19 م.

حفلت بلاد الشام دون سائر المناطق في العالم بتعقُّد وتنوع طائفي وقومي لا يكادُ يُحصرُ عدَدا، ويعود ذلك بالأساس إلى حيويتها الدينية والتاريخية والجغرافية الأمر الذي نتج عنه تدفُق وتوافد الكثير من الأعراق والسلالات والمذاهب الدينية إليها عبر مراحل التاريخ المختلفة.

بلغ إجمالي عدد السكان في بلاد الشام خلال القرن 13 هـ / 19 م أزيد من مليوني ومائتين وخمس وأربعون ألف نسمة[1]، موزعون على طوائف كثيرة، منها ما هو مشهور وحاضر بقوة، ومنها ما هو صغير مُتواري بسبب قلته العددية. وقد اعتمدنا على معيار عدد أتباع كل طائفة في اختيار هذا الترتيب.

= لكن هذا الذي يحتج ويعترض تناسى عن جهل أو قصد، أن الخلافات الدينية العميقة، والصراعات الطائفية االمذمومة التي تنخُرُ في جسد العالم الإسلامي، وتُميز واقعنا كمسلمين دون سائر الأمم، ليست من صناعة الدين بالمطلق، وإنما هي من صناعة بعض المنتسبين لهذا الدين، الذين يُضلّلون الناس، ويُوظفون ويستغلون الطائفة، لتصبح أداة لجذب واستقطاب الأنصار، للوصول إلى مآربهم ورغائبهم السياسية والسلطوية التي غالبا ما تتقاطع مع مصالح الأنظمة السياسية. هذه الاخيرة تُصيّرُ الطائفية وتُحوّلُها إلى استراتيجية في ميدان السياسة من أجل التعبئة الجماهيرية، والتي يكون مقصدها وغايتها تحصيل الشرعية السياسية كي تُتيحُ لها السيطرة والنفوذ والبقاء. وعلي هذا تكون الطائفية ساحة سوداء للسياسة، بالدرجة الأولى، بعيدة كلّ البعد عن قيم ومبادئ التسامح وقبول الآخر التي أكدّها ديننا الحنيف.

[1] M.L'abbé Jobin, La Syrie en 1860 et 1861(Lettres et Documents), L. Lefort Imprimeur - Libraire,1862 , p 7.

1/ المسلمون:

كانوا يمثلون ثُلثي السكان في بلاد الشام[1]، أي أزيد من مليون نسمة[2]، ولكونهم على نفس الديانة الرسمية للدولة، وضع العثمانيون ثقتهم فيهم لاسيما السُنة منهم. وقد انقسموا إلى مذاهب مختلفة، نوردها فيما يلي:

أ/ المسلمون السُنة:

يعود وجود السُنّة في بلاد الشام إلى المراحل الأولى للفتوحات الإسلامية، حيث هاجرت قبائل وأُسر من شبه الجزيرة العربية واستوطنت بلاد الشام[3]، لكن حضورهم القوي يعود إلى القرن 8 هـ / 14 م، في فترة حكم المماليك، خصوصا في لبنان، ليحلّوا محل الشيعة والنصارى الذين هجّرهم المماليك بعد تطهيرهم بلاد الشام من الصّليبيين[4].

شكّل السُنّة القطاع الأكبر من رعايا الدولة المُوالين لها[5]، فقد عارضوا حملة محمد علي على بلاد الشام، وسادت بينهم حالة من التذمر، وأشعلوا الثورات ضد حكمه[6]. زيادة على ذلك كانوا من أشد المُعارضين للتدخلات الأوربية، والنفوذ الغربي في بلاد الشام[7].

---

[1] Nadra Moutran, La Syrie de demain, Libraire plon, Paris, 1916, p 29.

[2] Jobin, op.cit., p. 7.

[3] رفيق التميمي ومحمد بهجت، ولاية بيروت، دار لحد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1335 هـ ص 9.

[4] كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ط 7، دار النهار للنشر، بيروت، 1991، ص 16. وأنظر أيضا وجيه كوثراني، الإتجاهات الإجتماعية-السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (1860-1920)، ط 1، معهد الانماء العربي، بيروت، 1976، ص 31.

[5] ستيفن هاسلي لونغريغ، تاريخ سوريا ولبنان تحت الإنتداب الفرنسي، ترجمة بيار عقل، دار الحقيقة بيروت، د.ت.ن، ص 15. وانظر أيضا كوثراني، مرجع سابق، ص 31.

[6] مسعود ظاهر، " الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني (نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن التاسع عشر)"، مجلة الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، ع 1121، مارس 1988، ص ص 461-476.

[7] Moutran, op.cit., p. 29.

كان أغلب السُنّة من العرب والأتراك والأكراد[1]، وبينما اعتنق أغلب العرب المذهب الشافعي، واعتنق الأتراك والأكراد المذهب الحنفي، مذهب الدولة العثمانية الرسمي، في حين توزع سُكان البوادي بين المذهبين المالكي والحنبلي.

أما من حيث توزيعهم الجغرافي الأساسي، فقد انتشروا في الأطراف الشرقية لحدود فلسطين الشمالية، ولواء دمشق ومدن: بيروت، طرابلس، صيدا، بعلبك، عكا والبقاع. وبلغ تعدادهم في أواخر القرن 13 هـ / 19 م حوالي مليون نسمة، منهم مائتي ألف في كامل سوريا، وبين ثمانين ومائة وعشرين ألفا في دمشق[2]. وتعود أصولهم إلى الأعراق التالية:

- الشركس: هم أقلية عرقية من المسلمين السُنّة، تعُود أصولهم إلى القوقاز. نزحوا إلى بلاد الشام عقب نهاية حروب القرم في 1295 هـ / 1878 م، حيث هاجمت روسيا بلاد الشراكسة بوحشية انتقامًا منهم لتعاونهم مع العثمانيين، فسمح لهم السلطان عبد الحميد الثاني[3] بالاستيطان في مدن الشام ليكونوا جدارا يصُدّ غارات البدو، فحلّ الكثير منهم بفلسطين والجولان، والفنيطرة وعمّان[4].

- الأكراد: أغلبهم على المذهب السُنّي، بلغ عددهم خمسون ألف نسمة، يعيشون بكثافة في جبال طوروس شمال حلب[5]. وقد تمّ استقدام الأفواج الأولى من الاكراد

---

[1] أكمل الدين احسان اوغلي، الدولة العثمانية تاريخ و حضارة، ترجمة صالح سعداوي، ج 2، إرسيكا استانبول، 1999، ص 161.

[2] Louis De Baudicour, La France au Liban, E-Penta libraire, paris, 1879, p. 13.

[3] عبد الحميد الثاني(1842-1918 م): سلطان عثماني حكم في الفترة (1876-1909 م). عُرف بمقاومته الشديدة للتدخل الأجنبي في شؤون بلاده. خُلع عن العرش في 1909 م. أنظر: البعلبكي مرجع سابق، ص 281.

[4] محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ط 2، ج 21، المكتب الإسلامي، بيروت، 1994، ص 69. وأنظر أيضا محمد يوسف سواعد، البدو في فلسطين في الحقبة العثمانية 1516-1914، دار زهران للنشر والتوزيع، عمّان، 2008، ص 178. وأنظر أيضا

Philippe Droz-Vincent,op.cit., p. 1930.

[5] Moutran, op.cit., p. 438.

وتوطينهم في بلاد الشام خلال القرن 5 هـ / 11 م بغرض مواجهة الحملات الصليبية[1]. ثمّ توسعت هجرتهم في القرن 12 هـ / 18 م باتجاه بلاد الشام بتشجيع من العثمانيين[2].

- التُركُمان: هم من السُنّة، نزحوا من آسيا الوسطى، ويُعتقد أنهم بقايا السلاجقة. لكن العدد الأكبر منهم وفد على المنطقة في عهد السلطان سليم الأول الذي جلبهم من خراسان واسكنهم فيها[3]. وبلغ عددهم حوالي عشرون ألف نسمة. ويتركزون على ضفاف الفرات، حلب وحمص[4].

- الجزائريون: أغلبهم نزح صوب بلاد الشام عقب استقرار الأمير عبد القادر فيها. بلغ عددهم حوالي عشرون ألف نسمة، واستقروا في طبرية حيث خصّصت لهم السلطة العثمانية أراضي واسعة. زيادة على أعداد منهم سكنت دمشق[5].

ب/ المسلمون الشيعة:

- المتـاولة[6]: يعرف الشيعة في بلاد الشام باسم المتاولة[7]. وتعود أصولهم إلى قبيلة عربية يمنية تُدعى عاملة، نزحت من الجزيرة العربية بعد خراب سد مأرب ونهاية مملكة سبأ[8]. وهم شيعة على المذهب الاثنى عشري[1]. وقد ظهر التشيع في بلاد الشام

---

1 Mouna Liliane Samman, La population de la Syrie: étude géo-démographique, o.r.s.t.o.m, Paris, 1978, p. 4.

2 Ibidem.

3 التميمي وبهجت، مصدر سابق، ص 238.

4 Moutran, op.cit., p. 439.

5 5 Ibidem, p. 437.

6 المتاولة : لقب مُشتق من " تولّى" أي اتخذ ولياً، وقد تولّى هؤلاء آل البيت النبوي. وهو لقب عُرف به شيعة الشام منذ القرن 11 هـ / 17 م دون غيرهم من الشيعة. أنظر: لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، تعريب عجّاج نويهض، ط 4، مج 1، ج 1، دار الفكر للطباعة و النشرو التوزيع، د.م.ن 1973، ص 193-194. وأنظر أيضا محمد وجدي، مج 5، مرجع سابق، ص 312. و كذلك محمد كرد علي، مج 6، مصدر سابق، ص 252.

7 مكاريوس، مصدر سابق، ص 5.

8 كوثراني، مرجع سابق، ص 23-33.

في جبل عامل جنوب لبنان، حيث تمّ نفي الصحابي أبي ذر الغفاري من طرف الخليفة عثمان بن عفان إلى بلاد الشام، بسبب معارضته وانتقاده لحكمه، وقام وَاليهِ معاوية بن أبي سفيان بدوره بنفيه إلى هذا الجبل، وهناك بدأ هذا الصحابي يدعو إلى نصرة علي بن أبي طالب والتشيُع له، فأُطلق على من تبعهُ لفظ الشيعة[2].

يأتي المتاولة في المرتبة الثانية عددا من حيث المذهب في بلاد الشام[3]. وبلغ عددهم مائتي ألف نسمة[4]. وانتشر هؤلاء في جنوب لبنان، بالخصوص في جبل عامل، الخليل وسمرية. زيادة على أعداد منهم في بعلبك وأقاليم بشارة، شومار صيدون وعكا[5].

تمتّع المتاولة برعاية الدولة الفاطمية، فبلغت الدعوة الشيعية في بلاد الشام عصرها الذهبي[6]. وخلال القرن 13 هـ / 19 م، كان المتاولة أميل في علاقاتهم الخارجية لفرنسا طمعا في حمايتهم من السُنة الذين نعتوهم بالروافض[7].

---

[1] المذهب الاثنى عشري: تعتقد هذه الفرقة الشيعية أن الإمامة تكون في ذرية فاطمة الزهراء بنت النبي (ص)، وهي محصورة في اثنى عشر إماما يتوارثون الإمامة بالوصاية، ومصدر فِقههم هو جعفر الصادق، الإمام السادس، ولهذا تُسمى هذه الفرقة أيضا بالجعفرية. أنظر: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تصحيح أحمد فهمي محمد، ط 2، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، ص 171. وانظر أيضا أبو زهرة محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، ك 1، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.ن، ص 265.. وكذلك مجمع اللغة العربية، المُعجم الكبير، ط 1، ج 4، دار أخبار اليوم، القاهرة، 2000، ص 346. وكذلك نصار وآخرون، مرجع سابق، ص 99

[2] النفزاوي، مرجع سابق، ص 35.

[3] De Baudicour, op.cit., p. 30.

[4] محمد كرد علي، مج 6، مصدر سابق، ص 253.

[5] ريمون هاشم، جوانب من تاريخ جبل لبنان بين 1820-1860، ط 1، ج 1، منشورات الجامعة الأنطونية، بعبدا(لبنان)، 2007، ص 24.

Le Vicomte De Basterot, " Le Liban, La Galilée et Rome ", journal d'un voyage en orient et en Italie, septembre 1867-mars 1868, Charles Douniol, Libraire-Editeur, Paris, s.d.e, p 79-80.

[6] الصليبي، مرجع سابق، ص 16.

[7] Moutran, op.cit., p. 29.

قُدّر عدد المتاولة بحوالي ستون ألف نسمة[1] منهم خمسة عشر ألفا في سوريا[2]، وعشرون ألفا في لبنان[3]. ونُشير هنا إلى أن السلطة العثمانية، بالرغم من الحرية التي منحتها للطوائف، إلا أنها لم تعترف بالشيعة كطائفة إسلامية، ونظرت إلى فرقهم، ولا سيما الاثنى عشرية نظرة حذر وريبة[4].

- الإسماعيليون[5]: بدأ حضورهم في بلاد الشام منذ القرن 6 هـ / 12 م، بعد أن انتقلوا إليها من معاقلهم الرئيسية في إقليم طبرستان على سواحل بحر قزوين[6] وتمركز غالبيتهم في سلّمية وجبل النصيرية[7]. بلغ عددهم في بلاد الشام أواخر القرن 13 هـ / 19 م حوالي مائة وخمسون ألف نسمة، منهم أربعة آلاف في سوريا[8].

---

[1] De Baudicour, op.cit., p. 30.

[2] Édouard Dentu, "La syrie devant l'Europe", Bibliothèque nationale de France, Paris 1861, p.13.

[3] Jobin, op.cit., p. 7.

[4] وجيه كوثراني، السلطة و المجتمع و العمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988، ص 69. وأنظر أيضا فواز طرابلسي، تاريخ لبنان الحديث، ط 1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2008، ص 10.
لا يمكن تفسير هذا السلوك إلى العامل المذهبي، فقد عاش الشيعة الاثنى عشرية في أرجاء الدولة العثمانية خصوصا في الأناضول بسلام، قبل تأسيس الدولة الصفوية 906 هـ / 1501 م. ولذلك يبدو أن التحالف السياسي الذي كان يربط هذه المجموعة المذهبية بالدول التي نشأت في بلاد فارس، وفي مقدمتها الدولة الصفوية، هو الذي كان سببا في هذه الريبة و التوجس العثماني.

[5] الإسماعيليون: فرقة شيعية تقف في تسلسل الأئمة عند إسماعيل بن جعفر الصادق، الذي توفي في حياة أبيه، ويؤمن بعضهم بأنه حيُ لم يمُت، وبعضهم الآخر يعتقد بأنه مات وعاش بعد موته. و هو اليوم حيُ مُستتِر، وسوف يظهرُ ليملأ الأرض عدلا كما مُلئت جورًا، ولذا سُمّوا بالشيعة السبعية. و من بين أهم عقائدهم، أنّ لكل نص ديني معنيان: معنى ظاهرا يفهمُهُ عامة الناس، و معنى باطنا، لا يقدر على فهمه إلاّ الأئمة. أنظر: الحاج يوسف خليل محمد، الأنباء الخفية عن الشيعة العلوية، ط 1، الدار الإسلامية، بيروت، 1996، ص 179. وأنظر أيضا الشهرستاني، مصدر سابق، ص 170.

[6] الحويري، مرجع سابق، ص ص 32-34.

[7] محمد كرد علي، مج 6، مصدر سابق، ص 256.

[8] عبد الرزاق عيسى، التنصير الأمريكي في بلاد الشام 1834- 1914، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2005 ص ص 27-29.

- النُصيريون(العلويون)[1] : فرقة تمثل وجه آخر للتشيُع[2]. يتركزون بشكل أساسي في جبل النصيرية في لبنان والمناطق الجنوبية من دمشق[3]، وكذا المناطق الجبلية المحاذية لمدن الساحل مثل طرابلس، وطرطوس واللاذقية[4]. وأمّا خارج هذا الوسط، فهم مجموعات قليلة.

وبسبب وضع العلويين الجغرافي والضّيق الاقتصادي في هذه المرحلة، اتجهوا نحو الامتناع عن دفع الضرائب، ممّا تسبب في تسيير حملات تأديبية ضدهم[5]. وقد بلغ عددهم في بلاد الشام سنة 1246 هـ / 1831 م حوالي مائة وثلاثون ألف نسمة، وفي سنة 1860 م ارتفع عددهم ليصل إلى مائة وخمسون ألف[6]، منهم خمسة وسبعون ألفا في سوريا[7]. وكان تحالفاتهم الأساسية خلال هذا القرن قائمة مع فرنسا[8].

---

[1] النُصيريون: من غُلاة الشيعة، ينسِبون أنفسهم إلى نُصير غلام علي بن أب طالب رضي الله عنه، غير أن الأغلب هو انتسابهم إلى مؤسس الفرقة محمد بن نصير النميري البصري الذي عاش في القرن 3 هـ / 9 م، وهو من بلاد فارس توفي في 270 هـ. ويوجد رأي آخر يُرجع تسميتهم إلى جبل النصيرية الذي احتموا به هربا من الصراعات الطائفية الدامية التي كانت تقع بين الحين والآخر. وهم يفضلون تسمية العلويين الحديثة التي تعود لسنة 1919 م، والتي ارتبطت بالاستعمار الفرنسي على تسمية النُصيريين. ومن أهم عقائدهم أنّ علي بن أبي طالب إله أو قريب من الإله، كما يحتفظ أتباعها بأسرار عقيدتهم، ومن يُفشِها يُقتل. أنظر: عبد المنعم الحفني، موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، ط 1، دار الرشاد، القاهرة، 1993، ص 394. وأنظر أيضا أبو زهرة محمد، مصدر سابق، ص 53. وكذلك محمد وجدي، مج 10، مرجع سابق، ص 249.

[2] Terry Carter and others, Syria & Lebanon, 3rd ed, Lonely Planet Publications, 2008 p. 44.

[3] عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص 37.

[4] محمد كرد علي، مج 6، مصدر سابق، ص268.

[5] كوثراني، مرجع سابق، ص ص 105-107.

[6] Thomas Laurie, Historical Sketch of the Syria Mission, The American Board of Commissioners for Foreing Missiovs, 1864, p. 4.

[7] Dentu (Paris), op.cit., p. 21.

[8] Terry Carter and others, op.cit., p. 44.

- الدروز[1]: يدّعي الدروز أنهم من آل تنوخ الذين هاجروا من اليمن، وأسسوا دولة المناذرة في الحيرة[2]. وكان أوّل من نشر عقائد الدروز في بلاد الشام هو محمد بن إسماعيل الدّرزي، بعد خروجه هاربا من مصر بسبب مواقفه الدينية[3]. ولا تزال عقائدهم محلّ جدل بسبب سرّيتها[4].

ومن جنوب لبنان توسعت الدعوة الدرزية[5]. يعيش هؤلاء في جبال لبنان، الشوف والمتن، وفي المناطق الساحلية في صيدا، صعودا إلى البقاع وراشيا[6]. وفي سوريا يتمركزون في جبل حوران وقرى أنطاكية وبعض أقاليم فلسطين.

لم يكن الدروز يثقون في العثمانيين ولا في جيرانهم المسلمين. تحالفوا في البداية مع بريطانيا، لكن منذ الحملة الفرنسية على الشام غيّروا ولائهم لفرنسا[7]. بلغ عددهم حوالي مائة ألف نسمة[8]، منهم خمسة وخمسون ألفا في لبنان[9].

---

[1] الدروز: فرقة إسماعيلية، يُخفي أتباعها عقائدهم عن غيرهم من المسلمين، نشأوا خلال العصر الفاطمي. ومحور عقيدتهم هو الخليفة الفاطمي أبو علي المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله المُلقب بالحاكم بأمر الله. وقد ارتبطوا تاريخيا بشخصين: الأول هو محمد بن إسماعيل الدّرَزي الذي كان أحد الدّاعين لتأليه الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي. والشخص الثاني هو أبو منصور أنو شتكين والذي كان أحد قادة الحاكم بأمر الله. ولا يزال الدروز يُجِلونهُ لحد اليوم. يُؤمنون بحُلول الإله في نفس الإمام، وعبادته واجبة، ويُنكرون جميع أحكام وعبادات الإسلام وأصوله. أما علومهم الدينية فهي غير مطبوعة، ولا يُطالعها إلا العُقال منهم، وهم الذين يعرفون الأمور الدينية. أمّا الذين لا يعرفونها فيُطلق عليهم اسم الجُهّال. ويُفضل الدروز أن يُطلق عليهم اسم الموحدين. أنظر: بطرس البُستاني، دائرة المعارف، مج 7، د.ن، بيروت، 1876، ص ص 671-677. وأنظر أيضا محمد كرد علي، مج 6 مصدر سابق، ص 269. وكذلك محمد وجدي، مج 4، مرجع سابق، ص ص 26- 28.

[2] التميمي وبهجت، مصدر سابق، ص 16.

[3] Terry Carter and others, op.cit., p. 44.

[4] مكاريوس، مصدر سابق، ص 6.

[5] الحويري، مرجع سابق، ص 38.

[6] Dentu (Paris), op.cit., p. 21.

[7] Moutran, op.cit., p. 29.

[8] Thomas Laurie, op.cit., p. 4.

[9] Le .P. Joseph Besson, La Syrie et la Terre Sainte Au XVI siècle, victor Palmé libraire, Paris, p 10; Jobin, op.cit., p. 7.

2/ النّــصارى:

عندما ظهرت النصرانية، - وبلاد الشام هي مهدها - اعتنق عدد كبير من سكانها هذه الديانة، ولكن الاختلافات حول طبيعة المسيح عليه السلام مزّقت الديانة المسيحية، وقسمتها إلى عدة مذاهب مختلفة (الكاثوليكية- الأرثوذكسية- البروتستانتية).

مع مرور الوقت تحول معتنقو هذه المذاهب إلى فرق متطاحنة ومتصارعة - في مراحل كثيرة من تاريخ الديانة النصرانية - كل واحد منها يريد أن يثبت أن إيمانه هو الإيمان الصحيح. ونتج عن هذا الصراع عداء مذهبي ترك آثاراً سلبية واضحة في تاريخ بلاد الشام، لا تزال بعض ملامحه ماثلة إلى يومنا هذا.

لقد تمتعت هذه الطائفة الدينية بالحماية من طرف السلطة العثمانية، ومُقابل ذلك كان أتباعُها يحترمون ويُقدّرون سيادة الإسلام[1]، هذا على الرغم من أنهم هم من قاد عمليات التحوُل والتغريب في بلاد الشام بفعل الاهتمام الذي أولاهُ الغرب لهم[2]. وقد بلغ عدد النصارى الاجمالي في بلاد الشام حوالي ثلاثة آلاف وخمسة وسبعون ألف نسمة[3].

أكبر التجمعات النصرانية كانت في دمشق، حيث بلغ عددهم سنة 1276 هـ / 1860 م حوالي اثنان وعشرون ألف نسمة[4]، وفي بيروت حوالي أربعون ألفا[5]، أما

[1] أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ط 1، دار الفكر للدرات والنشر و التوزيع، القاهرة، 1991، ص 81.

[2] هاسلي، مرجع سابق، ص 20.

[3] Jobin, op.cit., p. 6.

[4] المرجع السابق، ص ص 82-86.

[5] لورنيت، أرض الذكريات 300 لوحة رائعة من القرن الماضي(سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن)، ط 2، شركة لمطبوعات للنشر و التوزيع بيروت، 1995، ص 44.

في حلب، فقد كانوا يُشكلون حوالي 10% من سكان المدينة[1].وهم يتوزعون بين مختلف الفرق النصرانية[2].

ا/ الأرثوذكس[3]: اعتنق غالبية سكان بلاد الشام هذا المذهب[4]، وهم ينتمون إلى أعراق مختلفة، نبيُنُها فيما يلي:

*الروم الأرثوذكس: سمّوا بالرّوم الملكيين لارتباطهم بالطقوس الدينية البيزنطية. وأمّا اسم الملكيين، فهي نسبة إلى ملك الروم حامي الكنيسة البيزنطية[5]. وكان لهم بطريركيتان، الأولى في القدس، والأخرى في دمشق، والتي كانوا يملكون فيها سبعة عشر كنيسة، أقدمها كنيسة المَرْيَمِية[6]، وكنيسة ماري يوحنا التي شيدتها روسيا عام 1276 هـ / 1860 م[7].

وكان قادة هذه الكنيسة يُختارون من العرق اليوناني، ويستخدمون اللغة اليونانية في عباداتهم وصلواتهم. الأمر الذي أدّى إلى صراعات عنيفة، واحتجاجات من طرف مسيحيي الشام الأرثوذكس.

---

[1] أندريه ريمون ، مرجع سابق، ص 82.

[2] للمزيد من التفصيل حول المذاهب المسيحية: تاريخها، نشأتها، عقائدها واختلافاتها. يُراجع: محمد وجدي، مج 2، مرجع سابق، ص ص 164- 180.

[3] الارثوذكسية: تعني الإيمان القويم، لأن هذه الكنيسة تُؤمن بأنها مُستقيمة العقيدة، وإيمانها هو الصحيح لأنه موروث عن النصرانية الأولى، ولا تقبل هذه الكنيسة أيّ انحراف عنها، ولهذا فهي تتمسك بالكتابات المقدسة التي استقرّت منذ القرون الأولى لها، وأيضا تقاليد النصارى الأوائل. ينتشر هذا المذهب بقوة في الشرق. أنظر:
Jean Albert Rejouis, Diverses Religions Du Monde, (Le Vaudou Haitien - La Franc Maconnerie), AuthorHouse, Bloomington (U.S.A), 2013, p 343.

[4] عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914 م، تقديم أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.ن، ص 6.

[5] الصليبي، مرجع سابق، ص 22-23.

[6] عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص 54.

[7] الصليبي، ص 302.

وفي القرن 13 هـ / 19 م تمّ تعريب هذه الكنيسة، وقد بلغ عددهم حوالي مائتين وأربعون ألف نسمة، موزعين كأقليات على مدن: دمشق، حمص، حماة، حلب، اللاذقية، طرابلس، عكا، الناصرة وبيت لحم[1]، كما شكّلوا غالبية مسيحيي القدس خلال هذه الفترة[2]. وقد عُرف عن هذه الطائفة العداء الشديد للطائفة اللاتينية[3].

*الأرمن الأرثوذكس: ينحدرون من أرمينيا العثمانية، وقد ظهروا بعد انقسام الأرمن بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية في القرن 11 هـ / 17 م. ويملكون كنيسة في دمشق تُعرف باسم "مار سركس". وقد توزّعوا في حلب، دمشق، بيروت وطرابلس. قد بلغ عددهم سنة 1860 م حوالي عشرون ألف نسمة[4]، بينما تراوح عددهم في الفترة (1286 - 1307 هـ / 1870 - 1890 م) بين ثمانين وخمس وثمانين ألف نسمة[5].

*اليونانيون الأرثوذكس: يعتبر اليونانيون على اختلاف مذاهبهم من أقدم السكان في سوريا، وهم يُشكلون أكبر تجمُع سكاني مسيحي فيها. تعود أصول الجزء الأكبر منهم إلى المهاجرين اليونانيين خاصة من قبرص، والجزء الآخر منهم أصوله عربية تعود لغساسنة حوران[6].

بلغ عدد اليونانيين الأرثوذكس في لبنان حوالي ثلاث مائة وخمسون ألف نسمة، ويحتلون المرتبة الثانية من حيث العدد بعد الموارنة[7]. يُشكلون الأغلبية في منطقة

---

[1] عبد الرزاق عيسى، ص 54.

[2] أحمد القضاة، " الطوائف المسيحية في القدس "، مجلة فلسطين، ع 18، تشرين الأول 2011، دار العروة الوثقي، بيروت، ص 20.

[3] التميمي وبهجت، مصدر سابق، ص 20.

[4] Thomas Laurie, op.cit., p. 5.

[5] عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص 55-56.

[6] Moutran, op.cit., p. 365.

[7] De Baudicour, op.cit., p. 7- 8.

الكورة، إضافة إلى جبل لبنان[1]، وحلب التي عاش فيها حوالي عشرة آلاف نسمة[2]. وأقليات أخرى منهم تعيش في صيدا وبيروت[3] .

*السريان الأرثوذكس: يتحدثون اللغة السريانية[4]، ويتْبعون البطريرك المُقيم في دير الزعفران قرب ماردين[5] . وقد بلغ عددهم حوالي ثمانون ألف نسمة[6]، ويتمركزون في مدينة حلب[7]. وزيادة على هذه الطوائف المسيحية المُتباينة مذهبيا وعرقيا، وُجدت أخرى تنتمي إلى المذهب الأرثوذكسي، على غرار الأقباط والأحباش الأرثوذكس في القدس[8].

ب/ الكاثـوليك[9]: هم أكثر المسيحيين انتشارا وتعدادا في بلاد الشام، بلغ عددهم حوالي ستمائة ألف نسمة[10]. ويرتبطون بالكنيسة اللاتينية في روما وإرسالياتها اليسوعية، خاصة في مجال التعليم[11].

تزايدت أعداد الكاثوليك، على إثر انشقاقهم عن الكنيسة الأرثوذكسية بتحريض من رهبان الكنيسة الرومانية وقناصل فرنسا[1]. وبلغ تعدادهم في سنة 1270 هـ /

---

1 Moutran, op.cit., p. 354.

2 Le .P. Joseph, op.cit., p. 37.

3 De Baudicour, p.15.

4 Moutran, p. 390.

(5) عبد الرزاق عيسى، ص 57.

6 Moutran, p. 390.

7T.W.M.Marshall, Les Missions Chrétiennes, Ambroise Bray libraire-éditeur, Paris, 1865, p. 51.

8 ينتمي الأحباش إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، استعانوا في البقاء ببلاد الشام بملك الحبشة النجاشي يوحنا، الذي كان يمُدهم بالمال اللازم لعيشهم. وتركزوا بالخصوص في القدس. أنظر: أحمد القضاة، مرجع سابق، ص 20. عبد الرزاق عيسى، ص 57.

9 الكاثوليكية: يعني هذا التعبير الكنيسة الجامعة أو العالمية لارتباطها بالإمبراطورية الرومانية. يقودها البابا، ومقرّها الفاتيكان في روما. تُؤمن بالطبيعتين في المسيح، فهو إله كامل وبشر كامل بطبيعتين مستقلتين غير منفصلتين. أنظر: دار الشروق، مرجع سابق، ص 253.

10 محمد كرد علي، مج 6، مصدر سابق، ص 235.

11 عبد الرزاق عيسى، ص 45.

1854 م حوالي سبعة عشرة ألف نسمة، وهم يتركزون في حلب ودمشق[2]. وانقسم الكاثوليك بدورهم إلى مذاهب شتى، تختلف في طقوس عباداتها.

*الموارنة: هم السكان الأصليون الذين حافظوا على عقيدتهم[3]، تعود جذورهم إلى أسرة مسيحية نزحت من الأناضول صوب لبنان هروبا من اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية[4]. واجتمعوا في الضفة الغربية لنهر العاصي، وعلى وقع الفتوحات الإسلامية، خرجوا من موطنهم إلى المناطق الجبلية الوعرة شمالي جبل لبنان[5].

يُشكل الموارنة الأغلبية الكاثوليكية[6]، وأيضا المسيحية[7]، وتسمَوا بالموارنة نسبة إلى الرّاهب "مار مارون"[8]، الذي عاش في القرن الرابع الميلادي شمالي حلب راهبا وناسكا[9]، ويعتبر مؤسس الطائفة.

وكان الموارنة يعتنقون المذهب الأرثوذكسي ثم تحوّلوا إلى الكاثوليكية بعد أن انفصلوا عن الكنيسة البيزنطية في أواخر القرن 7 م، وتحالفوا مع كنيسة روما منذ

---

[1] أندريه ريمون، مرجع سابق، ص 84.

[2] M.Marshall, op.cit., p. 51-52.

[3] Jobin, op.cit., p. 4.

[4] M. Ernest Renan, Mission de Phénicie, Michel Lévy Fréres, Paris, s.d.é, p 217

[5] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 23-24.

[6] Terry Carter and others, op.cit., p. 45.

[7] Thomas Laurie, op.cit., p. 4.

[8] مار مارون: ولد في كيروس شمال حلب سنة 350 م. غير أنّ مصادر أخرى تشير إلى أنه من مواليد طرسوس، ومصادر أخرى يونانية تذكر بأنه ولد في أنطاكية، وبالتحديد في بلدة تدعى مارون. وقد اتبع مارون التعاليم القائلة بوجود طبيعتين ومشيئتين للمسيح. وبعد وفاته بين سنتي 405-423 م تَسَمّى أتباعه بالموارنة. أنظر: علي عبيد شكري الريكاني، *" الطائفة المارونية في لبنان منذ النشأة إلى نهاية الحروب الصليبية 398-1292 م "*، مجلة قضايا تاريخية، ع 3، سبتمبر 2016، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة (الجزائر)، ص ص 36-49.

[9] محمد كرد علي، مج 6، ص 236. وأنظر أيضا الحويري، مرجع سابق، ص 88. وكذلك Conder, op.cit., p. 108.

القرن 12 م[1]. تميزت علاقاتهم بالدولة الأموية ثم العباسية بالتوتر الشديد وعدم الاستقرار[2]. كما كانوا أميَل الطوائف للحملات الصليبية، ومن أشدّ المتعاونين معها[3]، وتحوّلوا منذئذ إلى حلفاء لفرنسا التي تتولى حمايتهم[4]، ولهذا تمتّعوا بامتياز خاص - دون سائر طوائف الشام - تمثّل في وضعية الحكم الذاتي[5].

بلغ عدد الموارنة سنة 1256 هـ / 1840 م أزيد من خمس مائة ألف نسمة[6]، وفي مصادر أخرى ثلاث مائة ألف[7]، منهم حوالي مائتين وثمانية آلاف نسمة في لبنان[8]. تواجدوا بقوة في جبل لبنان الذي لجأوا إليه هروبا من الفاتحين المسلمين[9]، ورغم ذلك خضعوا لسلطة الدروز[10]. هذا إضافة إلى وجودهم الكبير في منطقة الغزير بدمشق، وأيضا في بعلبك، معرّة النعمان، وحمص، وحماة وكسروان[11].

*الأرمن الكاثوليك: بلغ تعدادهم في دمشق سنة 1268 هـ / 1852 م حوالي ست مائة وأربعون ألف نسمة، ثم تقلّص هذا العدد إلى خمس مائة وتسعين ألفا بسبب ارتحالهم إلى حلب سنة 1296 هـ / 1879 م[12].

---

[1] الصليبي، مرجع سابق، ص 20. وأنظر أيضا
Terry Carter and others, op.cit., p. 45.

[2] الريكاني، مرجع سابق، ص ص 36-49.

[3] مكاريوس، مصدر سابق، ص 63. وأنظر أيضا الصليبي، مرجع سابق، ص 17. وكذلك
Terry Carter and others, op.cit., p. 45; Moutran, op.cit., p. 357-358.

[4] Terry Carter and others, op.cit., p. 45.

[5] هاسلي، مرجع سابق، ص 22.

[6] De Baudicour, op.cit., p. 5.

[7] محمد كرد علي، مج 6، مصدر سابق، ص 235.

[8] M.Marshall, op.cit., p. 82.

[9] Thomas Laurie, op.cit., p. 4; Moutran, op.cit., p. 354.

[10] De Baudicour, op.cit., p. 12.

[11] De Basterot, op.cit., p73; Jobin, op.cit, p. 4.

[12] عبد العزيز عوض، مرجع سابق، ص 305.

*الروم الكاثوليك: انشقوا عن الكنيسة الأرثوذكسية عام 1136 هـ / 1724 م، وبرزت هذه الطائفة بعد اعتراف السلطة العثمانية بها في 3 ذو القعدة 1248 هـ 24 مارس 1833 م إثر تدخل فرنسا والنمسا[1]. بلغ عددهم ثلاثة عشر ألف نسمة[2].

*اليونانيون الكاثوليك: هم من أصول عربية صرفه[3]، انفصلوا عن الكنيسة اليونانية[4]. وبلغ عددهم في سوريا سنة 1256 هـ / 1840 م حوالي سبعون ألف نسمة[5]. وينتشرون بكثافة في لبنان، إذ وصل عددهم إلى مائة وستون ألف نسمة، ويتركزون بالخصوص في زحلة، وجيزين وبيروت[6]. كانوا الأحسن حالا من حيث الوضع الاجتماعي قياسا ببقية الطوائف لبراعتهم في التجارة[7].

*السريان: هم السكان الأصليون في سوريا[8]، ينقسمون مذهبيا إلى كاثوليك ويسُوعيين. فالكاثوليك ظهروا كفرقة دينية سنة 1214 هـ / 1800 م إثر انفصالهم عن الكنيسة السريانية بقيادة المطران "ميخائيل جروه"[9]. وقد قارب عدد السريان أربعين ألف نسمة، ويتركزون أساسا في حلب، وفي منطقة معرة النعمان وملولة

[1] عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص 50. وأنظر أيضا أحمد القضاة، مرجع سابق، ص 20. وكذلك النفزاوي، مرجع سابق، ص 26.

[2] محمد كرد علي، مج 6، مصدر سابق، ص 235.

[3] Moutran, op.cit., p. 369.

[4] Thomas Laurie, op.cit., p. 5.

[5] De Baudicour, op.cit., p. 7.

[6] De Baudicour, p. 15.

[7] Moutran, op.cit., p. 373.

[8] التميمي وبهجت، مصدر سابق، ص 10.

[9] عبد الرزاق عيسى، ص 51.

بضواحي دمشق[1]، كما تواجدوا في حمص وحماة[2]. وأمّا اليسوعيون فعددهم يُناهز الثمانين ألف نسمة[3].

*الــلاتين الكاثـوليك: اللاتين هم بقايا الحروب الصليبية في بلاد الشام[4]. طائفة قليلة العـدد، فلم يتجاوزوا أربعة آلاف نسمة، وقد ظهرت سنة 1263 هـ / 1847 م بقيادة البطريرك "يوسف فالرجا"[5]. ولقد كان لهم جمعيات مذهبية نافذة في الحياة الأدبية والمادية نشطت في بث أسباب الفرقة والشقاق والدسائس ضد الدولة العثمانية بتحريض من الدول الاوربية[6].

*الكلدانيون: هم من أصول أشورية، أغلبهم كاثوليك، بلغ عددهم خمسة عشر ألف نسمة، ويتركزون في حلب ومنطقة كردستان[7].

ج/ البروتستانت[8]: بدأت هذه الطائفة في الانتشار في بلاد الشام انطلاقا من بيروت منذ العام 1235 هـ / 1820 م، ويدعون أنفسهم الإنجيليين[9]. وكانت الإرساليات البروتستانتية البريطانية هي التي بدأت تنشط في المنطقة من خلال فوج استقرّ في الشوف في ضيافة الدروز لتعلم اللّغة العربية[10].

---

[1] Moutran, op.cit., p. 390.

[2] عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص 51.

[3] Moutran, op.cit., p. 390.

[4] أحمد القضاة، مرجع سابق، ص 20.

[5] عبد الرزاق عيسى، ص 51-52.

[6] التميمي وبهجت، مصدر سابق، ص 20.

[7] Moutran, op.cit., p. 392.

[8] البروتستانتية: هي كنيسة المُحتجين التي ثارت في حركة إصلاحية ضد سُلطان وسطوة الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى، منذ أن علّق مارتن لوثر قائمة احتجاجاته على إحدى كنائس ألمانيا عام 1516 م. أبرز ما يميزها عن بقية الطوائف المسيحية هو إيمانها بان الفرد مسؤول امام الله وحده وليس امام الكنيسة. أنظر: دار الشروق مرجع سابق، ص 254. وانظر أيضا نصار وآخرون، مج 2، مرجع سابق، ص 687.

[9] محمد كرد علي، مج 6، مصدر سابق، ص 238.

[10] Moutran, op.cit., p. 401.

وبعد مدة من الزمن، لحقت بالإرساليات البروتستانتية البريطانية نظيرتها الأمريكية، التي بنت جامعة في بيروت ومطبعة لطبع المنشورات الدينية، وبذلك أزاحوا البريطانيين عن ريادة النشاط البروتستانتي في بلاد الشام[1].

بالرغم من الرفض الذي أبدتهُ السلطة العثمانية والمجتمعان المسلم والمسيحي لهذا المذهب، لكنه انتشر وازدهر بعد دخول محمد علي بلاد الشام سنة 1246 هـ / 1831 م[2]. فاجتهد أتباعهُ في تشييد الكنائس، فبنوا كنيسة في دمشق سنة 1280 هـ / 1864 م، وأخرى في 1284 هـ / 1868 م. وقد بلغ عددهم حوالي ثلاثة آلاف نسمة[3].

3/ الإيزيديون[4]:

بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف نسمة، ويتركزون في جبل سمعان شمال حلب. وقد كان عددهم مع القرن 12 هـ/ 18 م يزيد عن مائتين وخمسين ألف نسمة، لكنهم تناقصوا بسبب التصفية التي تعرّضوا لها على يد الأكراد بسبب عقيدتهم، فاضطرّ جزء منهم إلى اعتناق النصرانية[5]. أمّا عقائدهم فإنها غير معروفة بسبب إغراق أتباعها في كتم أسس دينهم ومراسمه.

---

[1] Moutran, op.cit., p. 401-402.

[2] التميمي وبهجت ، مرجع سابق، ص 20.

[3] محمد كرد علي، ص 238.

[4] الإيزيديون: مجموعة عرقية دينية تنتسب في تسميتها إلى مدينة يزدم التي هي أربيل حاليا. يعتقدون بأنهم شعب الله المختار والأمة المُصطفاة، وانهم مولودون من آدم فقط من دون حواء. وبسبب الانزواء عن العالم والتقوقع الاجتماعي، بقيت أركان ديانتهم غامضة. أنظر: رشيد الخيون، الأديان والمذاهب في العراق، ط 2، منشورات الجمل، كولونيا (المانيا)، 2007، ص ص 74-76. وانظر أيضا الحفني مرجع سابق، ص 429.

[5] Moutran, op.cit., p. 406.

4/ اليهـــــود:

انتشر اليهود في بلاد الشام منذ عهود قديمة، ولاتزال الكثير من الأسواق والأحياء تُنسب إليهم. وقد عاش اليهود داخل أحياء مغلقة في المدينة العربية، لكنها قريبة من مركز المدينة الاقتصادي، فقد آثروا النّأي بأنفسهم عن الاختلاط ببقية الطوائف. وتركّزت نشاطاتهم في الحرف والتجارة والصيرفة الرّبوية[1].

وكان لوجود الدولة العثمانية أثر إيجابي على وضع اليهود الذين احتموا بها بعد عمليات الطرد التي طالتْهُم رفقة المسلمين في الأندلس. كما ازدادت أعدادهم في بلاد الشام منذ 1299 هـ / 1882 م عقب تعرضهم لحملات الإبادة في روسيا القيصرية[2]..

أُعتبر اليهود في بلاد الشام من أهل الذمة، وكانت طائفتهم تضم مهاجرين ومستوطنين، بينما ينتمي اليهود العرب إلى "يهود الاشكنازيم". وتمركز اليهود في مدينة دمشق، لا سيما في الحي الذي يحمل اسمهم "حي اليهود".

بلغ تعدادهم بها سنة 1276 هـ / 1860 م حوالي خمسة وعشرون ألف نسمة[3]، أكثرهم عاشوا في القدس[4]، وبلغ عددهم فيها سبعة آلاف[5]، وفي صفد خمسة عشر ألف نسمة[6]. إضافة إلى يافا، وحيفا، وبيروت وصيدا[7].

---

[1] الجميل، تكوين العرب...، ص 313-314.

[2] النفزاوي، مرجع سابق، ص 47.

تعود تلك الحملات التي تعرّض إليها اليهود في روسيا إلى الأزمة المالية الخطيرة التي ألمّت بروسيا وعطّلت مشروع التطوير الذي شرعت فيه، للّحاق بأوربا الغربية. وقد حُمّل اليهود مسؤولية هذه المحنة لنشاطهم في مجال المُضاربات، وهيمنتهم على مراكز التأثير الاقتصادي في روسيا. فتدفقت اعداد كبيرة منهم على بلاد الشام خصوصا فلسطين. أنظر: النفزاوي، ص 322-323.

[3] Thomas Laurie, op.cit., p. 4.

[4] مكاريوس، مصدر سابق، ص 8.

[5] Thomas Laurie, op.cit., p. 4.

[6] Moutran, op.cit., pp. 147- 149.

[7] عبد الرزاق عيسى ، مرجع سابق، ص 56.

كان يهود بلاد الشام يتبعون حاخامات القدس الذين يمثلون أعلى سلطة دينية في الشرق[1]. وعلى الرّغم من قلّة عددهم إلا أنهم اضطلعوا بدور محوري في الجباية والصيرفة لصالح الأمراء والولاة[2].

ويبقى ان نُشير هنا إلى التناقض الواضح الذي وقفنا عليه في أعداد نُفوس كل طائفة، التي أوردتها المصادر والمراجع المُوظفة في البحث، ويعود ذلك بدرجة أساسية إلى غياب الإحصاء الدقيق لسكان بلاد الشام - على غرار بقية أقاليم الدولة العثمانية - لعدم امتلاك السلطة آنذاك للآليات التي تسمح لها بإجراء مسح دقيق للسكان يمكن الرجوع إليه في مثل هذا الدراسات[3].

[1] عبد الرزاق عيسى، مرجع سابق، ص 59.

[2] كوثراني، مرجع سابق، ص 32.

[3] يمكن مقارنة الأرقام الواردة في البحث بمصادر أخرى للوقوف على الفروق الكبيرة في أعداد كل طائفة من طوائف بلاد الشام. ويُراجع على سبيل المثال:

Edwards, Richard, La Syrie 1840-1862, histoire, politique, administration, population religions et moeurs, événements de 1860 d'après des actes officiels et des documents authentique, Amyot (Paris), 1862, p 12-13; K. T.Khairallah, op.cit., pp. 8-13.

المبحث الثاني: المُوَلِّدَات الداخلية للطائفية في بلاد الشام في القرن 13 هـ / 19 م.

يُجْمعُ أغلبُ المؤرخين المُهتمين بالتاريخ العثماني، على الدور الرّيادي الذي اضطلعت به الدولة العثمانية في العالم الإسلامي، والخدمات الجليلة والعظيمة والانجازات ذات الأهمية الكبرى التي قدمتها للمسلمين، في زمن اشتدّت فيه الخطوب الجِسَام عليهم، وأصبحوا عُرضةً للقوى الطّامعة من الشرق والغرب تستهدف استئصال شوكتهم.

ولئن كان من الإنصاف، ونحن نتعاطف معها كدولة إسلامية، أنْ نُقرّ بحقيقة دورها التاريخي المحوري، إلا أنه لا يمكننا السّير في خطّ ومنهج من يتبنّى عقيدة تاريخية، تُؤمن وبتطرّف أحيانا، بقداسة الدول والزعماء، عند الحديث عن الدولة العثمانية، والأخطاء والاغلاط التي ارتكبتها، وبالخصوص إخفاقها وفشلها، في إدارة وتدبير التنوع الطائفي في بلاد الشام، موضوع دراستنا.

وأيا كان ميلُنا إلى هذه الدولة وخدماتها، فإن الالتزام بالحقيقة التاريخية وعرض موضوعاتها عرضا دقيقا، يفرض علينا الإقرار بأن ممارسات السلطة العثمانية، وطريقة تنظيمها وترتيبها لشؤون الطوائف في بلاد الشام، كانت في حالات كثيرة، تتحوّل - فيه هذه السلطة - إلى أكبر مُولِّد للطائفية وصانعيها، من خلال اللّجوء إلى ضرب الطوائف بعضها ببعض، أو الانتصار لطائفة بعينها ليستقرّ لها السلطان.

ارتكز نظام الحكم في الدولة العثمانية على الدين الإسلامي منذ مرحلة التأسيس، وكانت جميع أنظمتها وقوانينها مُستمدة من الشريعة الإسلامية[1]. ومع مرور الزمن، قادت الفتوحات التي خاضها العثمانيون شرقا وغربا إلى زيادة الرقعة

[1] أكمل الدين، مرجع سابق، ص 161. وأنظر أيضا أبو علية، الدولة العثمانية والوطن ...، ص 67. وكذلك عوض، مرجع سابق، ص 112.

الجغرافية للدولة، وضم شعوبٍ جديدة، وبأعداد ضخمة، لا سيما منذ عهد السلطان سليم الأول (1512-1520 م). وهو الواقع الذي نتج عنه تنوع بُنيان المجتمع العثماني، وأيضا تنوع سياقات التنظيمات والترتيبات الإدارية والدينية وأنماطها.

ساد التسامح الديني والتعايش السلمي بين مختلف الطوائف الدينية في المجتمع العثماني خلال عصور القوة والعظمة[1]، ولم يلجأ حكام السلطنة إلى أسلوب التضييق على الطوائف والقوميات غير التركية، باستثناء العقود الأخيرة من حياتها.

ولم يكن بين هذه الطوائف أي تمايزات واختلافات عرقية ودينية، " **فلقد كان التُجار والحرفيون -مثلا- من مسلمين وغير مسلمين ينتمون إلى طبقة واحدة ومستويات واحدة، يتمتعون بحقوق واحدة ومشتركة، مع التبايُن الجُزئي في الواجبات الدينية فقط** "[2]. وبهذا الشكل الفريد من التسامح، لم تذُب الطوائف غير الإسلامية بين الأغلبية المسلمة، بل استمرّت في حياتها، محافظة على عاداتها وديانتها داخل الدولة، وتحت رعاية السلطان.

ولم يكن هناك انفصالا مَنَاطِقيا بين السكان في المدينة العثمانية، وإنْ وُجد فمردُهُ إلى التخطيط الأوَلِّي للمدينة، الذي فرض توزيعا معينا لكل طائفة دينية، حيث يكثُرُ أتباع الطائفة أمام مراكز عباداتهم. فالمسلمون مثلا كانوا يتركزون حول المساجد، التي تمثل محور عقائدهم، وهو الأمر عينُهُ بالنسبة للطوائف الأخرى[3].

[1] مكاريوس، مصدر سابق، ص 25.

[2] محمد سيّار الجميل، بقايا و جذور التكوين العربي الحديث، ط 1، الأهلية للنشر و التوزيع، عمَّان 1997، ص 83.

[3] نفسه، ص 84.

1- التنظيم الإداري والدّيني.

قبل أن نُباشر في تفصيل علاقة التنظيم الإداري بولادة الطائفية، وجب علينا التأكيد على أنّ من أهم علامات قوة الدول وريادتها، قوة إدارتها ومدى نجاحها في التدبير. فهي جهاز مرتبط ارتباطا وثيقا ومباشرا بالسكان، وهو بدوره مرتبط من حيث دوره وفعاليته بقوة الدولة، التي إنْ هي خملت ووهنت تهتز أركانها وأسُسها وتسوء العلاقات مع الرعية، وهو ما يُفضي إلى انتشار المظالم والمفاسد.

إننا لا نسعى من خلال هذا العرض، إلى الخَوْض في تفاصيل التنظيم الإداري العثماني لبلاد الشام، لأنّ البحث فيه ليس من مُتعلّقات موضوعنا، كما أنّ ما كُتِب في هذا السياق يُغني كثيرا عن أيّ زيادة، بل نحاول رصد الإخفاقات التي رافقت هذا التنظيم وعيوبه، وما ترتّب عنها من آثار على البُنى الطائفية الدينية والاجتماعية الشامية.

خضعت التقسيمات الإدارية العثمانية في بلاد الشام إلى تقلبات وتغييرات كثيرة ولم تثبت على حالة معينة[1]، فبعد ان ظلّت الدولة محافظة على التنظيمات القديمة شرعت منذ القرن 13 هـ / 19 م في إصلاحها على النّمط الأوربي. إلا أنّ ذلك أتى مُتأخرا، فكان مردُوده يكاد لا يُذكر.

كانت عوامل الجمود والفساد قد تمكّنت من مفاصل السلطة والإدارة، على حدّ سواء. إضافة إلى أنّ السّمة الأساسية لتلك التنظيمات، أنها لم تخضع لمركزية طاغية، فمنذ عهود السلاطين الأوائل، اتجهت الترتيبات العثمانية إلى ترك المسائل الإدارية في أيدي الحكام المحليين[2].

[1] عوض، مرجع سابق، ص 66.

[2] الجميل، بقايا وجذور...، ص 148-149. وأنظر أيضا الخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 19.

لقد سمحت السلطة لهؤلاء الحكام، وكبار الموظفين الذين يشكلون أركان الإدارة، بامتلاك أراضي إقطاعية، والمُغالاة في فرض الضرائب، ليس فقط للإنفاق على شؤون الولاية، بل للإنفاق الخاص بهم، فلم يكن هَمّ هؤلاء سوى ابتزاز أموال الرعية[1]. مستغلين في ذلك غض الدولة الطرف عنهم، بعد أن قلّ عزمها في ضبطهم ولجم مطامعهم[2].

ونجم عن هذا الوضع، تزايد نزوع الولاة والأمراء الاقطاعيين نحو تقوية طائفة بذاتها على حساب الطوائف الأخرى، فجعلوا شعارهم **"قسِّم تملُك"**[3]، فابتعدوا بذلك عن مركز السلطة، وعزفوا عن تأدية واجباتهم تجاهَها[4].

وإلى جانب ذلك، كان التأخر في تسديد مرتبات الجُند، يؤدي إلى حركات التمرد، واللّجوء إلى الاستعاضة عن رواتبهم بارتكاب أعمال النهب والسلب[5]. كما أخذت الزعامات المحلية في توظيف هؤلاء الجنود، وشراء خدماتهم، لتُتشكل منهم عُصبة وقوة تسنِدُهم، وتدافع عنهم، وترفع مركزهم[6].

وعلى نفس المنوال، أقطعت السلطة الزعامات المحلية المُتنفذة، من أمراء ومشايخ[7]، على أساس طائفي، مقابل جمع الضرائب والرسوم[8]. فأصبحت النظم الإدارية مرتبطة بالعصبيات الإقطاعية الطائفية، مع تمتع الاقطاعيين بسلطة

---

[1] ميخائيل مشاقة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، د.ن، مصر، 1908، ص 24. وأنظر أيضا أبوعلية، الدولة العثمانية والوطن...، ص 269.

[2] الحصني، مصدر سابق، ص 248.

[3] مكاريوس، مصدر سابق، ص 29.

[4] كوثراني، الإتجاهات الإجتماعية-السياسية...، ص 20. وأنظر أيضا حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 313.

[5] COMMUNICATION DE L'AMBASSADE DE GRANDE-BRETAGNE, op.cit., pp. 2-4.

[6] أبوعلية، الدولة العثمانية والوطن...، ص 270.

[7] نفسه، ص 224.

[8] نشوان الأتاسي، تطور المجتمع السوري 1831-2011، ط 1، أطلس للنشر والإنتاج الثقافي، د.م.ن، 2015، ص 20. وأنظر أيضا عوض، مرجع سابق، ص ص 223-226.

استخدام القوة المسلحة الكافية، لجمع الضرائب، وتمتعوا أيضا بنوع من الاستقلال في تسيير الأرض واستغلال الفلاحين، كما كانوا في فترات معينة يستخدمون هذه القوة في نزاعاتهم[1]. وصار كلّما توالت الأيام، ازدادت الإقطاعية تطورا وبأسا في ظلّ سلطة كان همّها الأساسي انتزاع الطاعة والولاء، والتعهد باستمرار تدفق الضرائب.

زيادة على ما سبق، كانت هذه الزعامات الإقطاعية الطائفية، في أغلب الوقت تصطدم مع الإقطاع الحكومي، مُمثلا في الولاة والموظفين الكبار، وبين بعضها البعض أيضا[2]، ما أعطى فُرصا مناسبة للتدخل الأجنبي، بعد أن تحوّلت تلك الزعامات إلى نقطة ارتكاز للسياسات الخارجية، وإلى كيانات مستقلة بمقدورها عقد المعاهدات مع الخارج[3].

لا ريب في أنّ منح السلطة العثمانية للإدارة المحلية صلاحيات شبه مطلقة، كان حلا لبعض المشاكل الإدارية، كما أنّه سهّل على السلطة التواصل مع الطوائف، إلا أنّ هذا التنظيم أسهم في تكريس الانطواء الديني والعصبي من جهة، وإنهاك الحكم

---

[1] كوثراني، الإتجاهات الإجتماعية-السياسية...، ص19. وأنظر أيضا الخوند، ج 14، مرجع سابق، ص 151.

الزعامات المحلية في بلاد الشام، هي عدد من الأسر النافذة، التي كانت تتمتع بقدرتها على الاضطلاع بدور الوسيط، بين السلطة الحاكمة ورعاياها من مختلف الطوائف. وقد تمكنت هذه العصبيات من آداء الدور المنوط بها في العصور الأولى من حياة الدولة العثمانية، في ظل السلاطين العظام الأقوياء. لكن التوازن بين هذه القوى المحلية، وممثلي الإدراة الرسميين، أخذ في التراجع بعد أن تشابكت وتباينت مصالح هذه الأطراف. ومع مرور الوقت، تغيّر وضع هذه الزعامات من حلفاء للسلطة إلى وضع التمرد والعصيان، وطبعا يستخدم هؤلاء المجموعة الطائفية التي هُم منها. ونتيجة ذلك، تعرّضت بلاد الشام إلى فوضى بسبب الصراع على النفوذ بين هذه العصبيات الإقطاعية، وهدّدت الاستقرار والانسجام الطائفي، ولهذا يجب أن نشدد على أنه كان ينبغي على السلطة العثمانية منذ البداية، حين استولت على بلاد الشام، أن تُزيح الزعامات المحلية الموروثة. وهو ما دَعَا صاحب كتاب منتخبات التاريخ لدمشق إلى القول: " فما فتئ أولئك الزعماء يتجاذبون حبل الرئاسة ... ولو أنّ الدولة العثمانية قطعت دابر الرئاسات الموروثة من يوم استيلائها على هذه الديار، لاستراحت في كثير ممّا اعترضها من العناء والمشقّة لفقدان العصبية المثيرة للفتن". أنظر: الحصني، مصدر سابق، ص 248.

[2] كوثراني، الإتجاهات الإجتماعية-السياسية...، ص 19. وأنظر أيضا أبوعلية، الدولة العثمانية والوطن...، ص 265.

[3] الخوند، مرجع سابق، ص 19. وانظر أيضا طرابلسي، مرجع سابق، ص 11-12.

العثماني إلى حدّ كبير[1] بعد أن تعاظمت استقلالية هذه الزعامات، وتزايدت سطوتها على الموظفين الرسميين[2]، كما ساهم في تعزيز الولاءات المحلية، وفي إذكاء النزاعات الطائفية، في مقابل ظهور السلطة بمظهر العاجز عن فرض قراراتها وقوانينها، وإحلال الأمن في بلاد الشام[3].

انكشفت أزمة الدولة العثمانية انكشافا حادًا على مستوى إدارتها ومراكز القوة فيها. فقد أصبح الخلل ظاهرًا في أُسلوب إدارة الإقطاعات الطائفية، لاسيما في مرحلة اضمحلالها، فضعف الدولة أدّى الى قوة الطوائف والزعامات، التي عاشت خصائصها المذهبية، في إطار عصبيات إقطاعية طائفية منعزلة عن العصبيات الأخرى، وعن السلطة السياسية الحاكمة[4].

ولعلّ هذا الوضع، ما لبث أنْ تسبّب في تآكل وضعف الرابطة العثمانية الجامعة شيئا فشيئا، مقابل بداية اجتياح النزعات الطائفية لكل مناحي الحياة في بلاد الشام خلال هذه الفترة. فالأزمة العامة التي لحِقت بمؤسسات الدولة المختلفة إنّما كانت أزمة في علاقات مفاصل السلطة، بين سلطة مركزية آخذة في الانهيار والتهاوي من جانب، وقِوى محلية نافذة من الزعامات والأعيان، أفرزها النظام العثماني نفسه، في ظل بنيته الإدارية، في جانب آخر.

فقد كانت القلاقل والخلافات التي تحدث بين هذه الزعامات والعصبيات، تتحوّل في أغلبها إلى صراع طائفي شامل، يشترك فيه البسطاء من العامّة[5].

---

[1] أبوعلية، الدولة العثمانية والوطن...، ص 265.

[2] الأتاسي، مرجع سابق، ص 21.

[3] أبو علية، ص 269.

[4] كوثراني، الإتجاهات الإجتماعية-السياسية...، ص31.

[5] مشاقة، مصدر سابق، ص 24.

وأصبحت هذه المجموعات تستخدم الخطاب الدّيني كأساس للهوية، بعيدا عن الانتماء السياسي[1].

وامّا بالنسبة للتنظيم الديني، فقد نظمت السلطة العثمانية شؤون الطوائف، وفق ما نصّ عليه نظام الملّة[2]، الذي قسّم رعايا الدولة على حسب دياناتهم، وليس على قاعدة القومية واللّغة[3] . وهذا الترتيب الطائفي هو الذي أحال أتباع كل طائفة، سواء الطائفية الاقتصادية أو الدينية، إلى الرئيس والشيخ، يسهر على رعاية أمرها، والاهتمام بمشاكلها، ونقل همومها إلى ممثلي السلطة العثمانية، وهو العلاج الذي أتاح للأقليات غير المسلمة هامش استقلالية تحت رعاية السلطان.

وبفعل هذا الترتيب، الذي منح حرية شبه كاملة للمؤسسات الدينية لكل طائفة في العمل وفق آلياتها الداخلية، تحولت هذه المجموعات، مع مرور الزمن إلى دولٍ

---

[1] المقدسي، مرجع سابق، 25.

[2] الملّة: هي جماعة تتالف من المواطنين المحليين، خاضعة للباب العالي لها ديانة محددة، ونظام الملة العثماني استمرار تاريخي لمصطلح أهل الذمة الإسلامي. إذ اعتبر نظام الملل العثماني الطوائف غير الإسلامية أهل ذمة، ينتظمون في طوائف حسب ديانتهم. أنظر: الصائغ، مرجع سابق، ص ص 1-41. وأنظر أيضا كوثراني، الإتجاهات الإجتماعية-السياسية...، ص31.

[3] حسين العودات، العرب النصارى (عرض تاريخي)، ط 1، دار الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق 1992، ص155-156. وأنظر أيضا جوزيف أبو نهرا، "المسيحيون وهاجس الحرية في العهد العثماني"، ملتقى دولي، مركز الشرق المسيحي للبحوث والمنشورات، جامعة القديس يوسف، بيروت 24-26 كانون الثاني، 2013، ص ص 1-45. وأنظر أيضا حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 312.
بعد أن وجدَ العثمانيون أنفسهم، غداة اتساع فتوحاتهم، يُديرون مناطق شاسعة، تعيش فيها طوائف غير إسلامية، استقرّ الرأي عند السلطان محمد الثاني المُلقب بالفاتح، والذي حكم في الفترة (848-850هـ / 1444-1446م ثمّ 855-886هـ / 1451-1481م) على إصدار هذا النظام، الذي قسّم رعايا الدولة إلى طوائف حسب دينها. وقد منَحَ بموجبه لرجال الدين المسيحيين سلطة تدبير شؤون أتباعهم في الأمور الدينية والتعليمية والأحوال الشخصية، بعيدا عن تدخل السلطة العثمانية، ماعدا استحصال الضرائب وجمعها. وكان الغرض من هذا التدبير، هو بناء توازن بين الطوائف وترسيخ حقوقها. لكن هذا التدبير تحوّل منذ بداية مرحلة الانحطاط إلى مفهوم، يُرادف مفاهيم الأمة والشعب في السياسات الأوربية، تجاه الدولة العثمانية، وإلى نظام لأقليات طائفية دينية، أخذت تستنجد بالحماية الأجنبية، لتبدأ معها عملية توظيف الامتيازات، التي أضحت حَقًا، وليس امتيازا، تُطالب بها هذه الدول. فتحوّلت تلك الامتيازات إلى كرة الثلج التي تكبُر باستمرار، لتصير عامل أضعف الدولة.

داخل الدولة[1]، أو قُل حكومات محلية مصغرّة بطبيعة طائفية واضحة، ترابطت داخلها الجماعات النصرانية، وانتظمت تحت سلطة رئيسها الروحي[2].

نَمَت سلطة الزعماء الروحيين الدينية والمدنية بشكل متعاظم بين أتباعهم، وأضحت كلمتهُم مسموعة، ومُطاعة - لدى السلطة العثمانية، ولدى القوى الغربية، بعد انفتاح بلاد الشام على أوربا - أكثر من غيرهم[3].

احتوت هذه الزعامات الدينية خلفها تجمعات طائفية، تحوّلت مع الوقت كلٌ منها من مجرّد ملّة الى ما يُشبه الأمة، تجلّت فيها كل مظاهر وعناوين الطائفية، وأضحى هذا التدبير سبيلا وقناةً سياسية أجنبية، تقودُ إلى المصالح السياسية والاقتصادية، ناهيك عن التلاعب بالنسيج الطائفي.

واجهت الدولة العثمانية قضايا خطيرة في بلاد الشام، ناتجة عن الترتيبات الإدارية والدينية، وما رافقها من أغلاط وانحرافات أثّرت إلى حدّ كبير على نفوذها وقوة سلطانها. هذا إضافة إلى الفوضى، والخلل الأمني الذي فرضته تصرفات الجهاز الإداري، ورؤساء العسكر، وصراعات الإقطاعيات مع بعضها البعض من جهة، ومع عمال الإدارة من الجهة الأخرى.

إنّ الغرض من تلك التنظيمات الدينية المِلّية في بداياتها، كان الحفاظ على الخصوصيات الدينية والثقافية للطوائف وتدبير شؤونها والتواصل معها، وهذا عن طريق منحها قدَرا من الحرية والاستقلالية ضمن سلطة الدولة.

ولكن هذه التنظيمات، في الحقيقة ساعدت على إظهار وإبراز التمايز الطائفي وتناقضاته، ولو من غير قصد من الجهة التي رتّبته، كما كان ولاء تلك التنظيمات

---

[1] كوثراني، السلطة و المجتمع ...، ص 69. وأنظر أيضا حوراني، مرجع سابق، ص 242.
[2] أبو نهرا، مرجع سابق، ص ص 1-45.
[3] الصائغ، مرجع سابق، ص ص 1-41.

للهيئات والوحدات التي ترتبط بها وتنتظم فيها، وليس للسلطة، فاختفى الشعور بالانتماء العثماني.

كما أنّ نظام الملل العثماني شكّل مدخلا وسبيلا للتدخلات الأوربية بشتى أشكالها، والادعاء بحقّها في حماية الأقليات الدينية، وهو ما أسْهَمَ في تفجير الصراعات الطائفية بين طوائف الشام، بمفاهيم غربية استقلالية، وتوسيع الهوة والانقسام بين الرعية، والسلطة العثمانية الحاكمة. وهذا الوضع برمته، أسهم في ضعف موقف السلطة أمام التنامي المتزايد للاتجاهات الطائفية في مجتمع، سِمته الأساسية التنوع، كما فصّلنا في المباحث السابقة.

2- الحملة المصرية.

فتحت الحملة المصرية على بلاد الشام الباب الطائفي على مصراعيه، وعمّقت التدخل الأجنبي في شؤون الطوائف. فقد أدّت إلى حدوث انقلاب عميق في البنية الاجتماعية والفكرية الشامية، وانقسام مجتمعي طائفي حاد وعنيف[1]. فلقد جاءت

[1] مكاريوس، مصدر سابق، ص 68. وأنظر أيضا الحصني، مصدر سابق، ص 260-261.
سجّل شاهد العيان، صاحب كتاب مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية، يوميات دخول الجيش المصري إلى دمشق. وما يُلفت النظر في ما أوردهُ هو أنّ القائد المصري دخل دمشق، وبرفقته آلاف العساكر من النصارى الشاميين، الذين تحالفوا معه، تقودهم زعاماتهم. ولعلّ هذا المشهد يكون قد أحدث صدمة لدى سكان دمشق، وخاصة لدى أغلبية سكانها من المسلمين. إذ لم يسُرهُم هذا المشهد، ولا الإصلاحات الجديدة التي منحت المسيحيين واليهود امتيازات لم يكونوا يحلمون بها في حكم البلاد. ومما زاد في غضب المسلمين وسخطهم، تلك الاحتفالات التي كانت تجري تقريبا كل يوم من طرف النصارى، فرحًا بقدوم القائد المصري، وانتقال الحكم إلى محمد علي، والاستعراضات التي كانوا يُقيمونها ، والعبارات القاسية والمسيئة التي كان يرددها هؤلاء في استعراضاتهم في حق المسلمين، الذين كانوا يُقابلون هذه الاهانات بالإغارة على ممتلكات النصارى في أوقات الغفلة، وضرب كل من وجدوه منهم، ويطلقون عبارات وشتائم ضد الديانة المسيحية، وقادتها الروحيين. ونجم عن ذلك تضييق الفوارق بين الأغلبية المسلمة، وغيرها من الطوائف غير المسلمة. وهو ما يفسر وقوف المسلمين ضد الحملة المصرية، وتعاطفهم مع السلطنة العثمانية. إذ يبدو أنّ الأوامر التي أصدرها القائد المصري، والرسائل التي بعث بها إلى الزعامات المسيحية والدرزية، يحثها على التحالف معه، وُيطلق الحريات الدينية لكل طوائف الشام، أحدثت صدمة لدى المسلمين، وحركت مشاعرهم الدينية الطائفية، بعد أنْ اهتزت علاقات العيش الموروثة - وهذه المشاعر والمخاوف لا يجب أن نحاكمها إلى مقاييسنا اليوم، حيث تسود الحقوق والمساواة والحريات دينية، بل يجب أن ننظر إليها في إطار زمانها، وبوعي أبناء

التدابير الإصلاحية التي أجراها الحكم المصري لتُؤزّم الوضع الطائفي، بعد أن شاركت القوة النصرانية، وبالذات المارونية منها، في قمع المعارضين للوجود المصري من الجماعات الطائفية الأخرى.

فقد وقف المسلمون ضد هذه الحملة، واختاروا الوقوف إلى جانب السلطان العثماني، وبالمقابل رحّبت الطوائف النصرانية بالحكم المصري الذي أجرى تغييرات جذرية في حياة المجتمع الشامي[1]، أفضت إلى إطلاق الحريات الدينية، والمساواة بين الطوائف، والترخيص لكل السكان بحمل السلاح[2].

لم يُراع النظام الجديد التقاليد التي كانت سائدة، ممّا جعل الناس يشعرون بالإهانة[3]، فانتشرت بينهم ذهنية شعبية، غالبا ما كانت مبنية على قاعدة أنّ المجتمع النصراني المحلّي مرتبط بالمصالح الخارجية[4].

قَرّبَ الحكم المصري الموارنة وبقية الطوائف النصرانية، وجعلهم أعوانا ومستشارين لهُ، على حساب المسلمين السنة والدروز[5]، واستعملهم في قمع الثورات

= ذلك الزمان، فنصفُها وننعتها بالبربرية والعنصرية، فالإنسان ابن مألوفه إذا أَلِف عادات ما، ثم أُرغم على تركها - وقد أورد أسد رستم مجموعة كبيرة من تلك الأوامر والرسائل في الفترة 1832-1835 م. وللاطلاع عليها، أنظر: أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا**، مج 1-2، منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1931.

[1] De Baudicour, op.cit., p. 171-172.

[2] مسعود ظاهر، مرجع سابق، ص ص 461-476. وأنظر أيضا مجهول، مصدر سابق، ص 50.

[3] العودات، مرجع سابق، ص 170. وأنظر أيضا الخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 26.

[4] الأتاسي، مرجع سابق، ص 28.

[5] تشارلز تشرشل، بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي، من 1840 -1860، ترجمة فندي الشعار، دار المروج للطباعة النشر والتوزيع، د.م.ن، 1984، ص 22. وأنظر أيضا اسكندر بن يعقوب ابكاريوس، نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، تحقيق عبد الكريم إبراهيم السمك، ط 1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1987، ص 54.وأيضا:

Un témoin oculaire, op.cit., p. 96.

التي وقفت ضدّه[1]، بعد أن قام بتسليحهم[2]. فقد أثار الحكم المصري مشكلات جمّة ساهمت في التصدعات والانقسامات التي عصفت بالمجتمع الشامي.

وفي ظل هذا الظروف، تعمّقت الكراهية بين هذه الطوائف، وراحت تترقب الفرصة للانتقام مما حاق بها. وتعود السياسة المصرية الموالية للنصارى في بلاد الشام، إلى معرفة محمد علي بمدى تأثير القوى الأوربية عليهم[3].

كما استعان المصريون بالنصارى، يقودهم أميرهم، في إخراج الدروز من بعض مواطنهم وأراضيهم ونقلهم إلى حاصبيا وراشيا، والهجوم على قراهُم واكتساحها، ونهب كتبهم الدينية، ليتمّ بعدها نشر عقائدهم التي كانت طيّ الكتمان والسرّية[4].

وكذلك استخدم الحكم المصري أبناء الطوائف النصرانية في نقل مجموعات من المسلمين السنة من مَحَالِهم إلى مواقع أخرى في بلاد الشام، لاسيما إلى دمشق وطرابلس وعكا، ومجموعات من المتاولة إلى جبيل وجنوب لبنان[5]، وهو ما زاد في ازدياد الشرخ والشقاق بين المكونات الطائفية، وانتشار الأحقاد والبغضاء في النفوس[6]، والرغبة في الثأر والانتقام.

زيادة على ذلك، كانت هذه الحملة منفذا لتعاظم التدخل الأجنبي في بلاد الشام، بعد أن سمح الحكم المصري للأجانب بالتّقاطر عليها، وسهّل توافد الحملات الدينية

---

[1] العودات، مرجع سابق، ص 170. وأنظر أيضا طرابلسي، مرجع سابق، ص 25. وكذلك =Gouin, op.cit., p. 426.

[2] Moutran, op.cit., p. 105.

[3] Edwards,Richard, op.cit., p. 8-9.

[4] تشرشل مصدر سابق، ص 27. وأنظر أيضا مكاريوس، مصدر سابق، ص 73-74. وكذلك جودت باشا، مصدر سابق ص 362.

[5] ابكاريوس، مصدر سابق، ص 56.

[6] الجميل، تكوين العرب...ص 498.

التبشيرية، وانتعاشها[1]، واستجلاب المؤسسات التعليمية الكنسية لمختلف المذاهب النصرانية في أوربا، والتوسع في بناء المدارس الخاصة بها[2]. وزيادة على فتح باب الهجرة أمام اليهود صوب فلسطين، وأعانهم عليها، بعد أن كان قد أباح لهم التملّك[3].

غير أنّ التدابير الاقتصادية التي أنفذها الحكم المصري، من احتكارٍ للتجارة، وزيادة الضرائب، وفرض التجنيد وغيرها[4]، جلبت عليه نقمة الجميع. فاضطرب حال البلاد، وانتشرت الثورات وحركات العصيان ضدّه، فلجأ هذا الحكم إلى ضرب الطوائف بعضها ببعض[5].

وبعد اندحار الحكم المصري عن بلاد الشام، وعودة السلطة العثمانية، عملت الإدارة على إذكاء النزاعات الطائفية، فساندت الدروز - الذين وقفوا ضد الحملة المصرية، وثاروا ضدها مِرارا - في تعدّياتهم على الموارنة.

قام الوالي العثماني بإمداد الدروز بالسلاح[6]، وأوعز إلى المسلمين بالمشاركة في هذه التعدّيات[7]. وبذلك يكون موقف السلطة العثمانية من النصارى قد جرى عليه انقلاب كبير، بعد أن كانت تجتهد لإصلاح أحوالهم لكسب رضا وَودّ الأوربيين[8].

انتشرت حملات الانتقام من النصارى، وارتكبت فظائع في حقّهم، وهلك منهم الكثير[1]. كما فرضت على النصارى تدابير مُهينة، مثل حرمانهم من امتلاك

---

[1] مكاريوس، مصدر سابق، ص 68. وانظر أيضا الخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 25.
[2] الحصني، ص 261-262. وأنظر أيضا الرافعي، مرجع سابق، ص 261. وكذلك الأتاسي، مرجع سابق، ص 25-26.
[3] ابكاريوس، مصدر سابق، ص 54.
[4] مشاقة، مصدر سابق، ص 111. وأنظر أيضا الخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 24. وكذلك Droz-Vincent,op.cit., p. 1946.
[5] مشاقة، مصدر سابق، ص 111-112. وأنظر أيضا الرافعي، مرجع سابق، ص 662. وكذلك ظاهر، مرجع سابق، ص ص 461-476.
[6] مشاقة، مصدر سابق، ص 146. وأنظر أيضا محمد كرد علي، ج 3، مصدر سابق، ص 65.
[7] مشاقة، ص 152.
[8] العودات، مرجع سابق، ص 170.

الخادمات والجواري والسلاح، وركوب الخيل. وقد أبْطل تدخل القناصل الأجانب هذه التدابير[2].

يبدو أنه من بين العوامل الحاسمة في توليد الطائفية في بلاد الشام، الحملة المصرية، التي فتحت الباب على مصراعيه أمام الطوائف المسيحية صوب أوربا. ولهذا كانت هذه الطوائف، دون غيرها، هي الأسبق والأسرع الى التفاعل مع ثقافة وحضارة أوربا، والتجاوب معها، كما أنها، أي الحملة المصرية، هي من فتحت أبواب بلاد الشام أمام التجار والبعثات التبشيرية والرّحالة من الغرب عموما، لاسيما من الأوربيين، وهو ما زاد في حجم النفوذ السياسي والاقتصادي والثقافي الخارجي.

3- جبل لبنان.

يمتد جبل لبنان من طرابلس في الشمال حتى صيدا في الجنوب، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى سهل بعلبك والبقاع ووادي التيم، ويغلب عليه طابع التضاريس الجبلية، فعُرف بكونه جبلا، فغلبت عليه تسمية الجبل. وأمّا عن تسميته بلبنان، فهي من الجذر السامي لبن وهو البياض، إشارة لعدم انقطاع الثلج عن قمته طول أشهر السنة، ولهذا الجبل اعتبارا ومنزلة دينية خاصة لدى النصارى[3].

قبل هذه المرحلة، اقتصرت عبارة جبل لبنان على القسم الشمالي منه، حيث يكثُرُ الموارنة، وتُقابلها عبارة جبل الدروز في جنوب الإقليم، الذي لم تشمله تسمية جبل لبنان قبل القرن 11 هـ / 17 م. وتعميم هذه التسمية على القسمين إنّما حدث في

---

[1] محمد كرد علي، ج 3، ص 74. وأنظر أيضا
De Baudicour,op.cit., p. 40.

[2] مجهول، مصدر سابق، ص 138.

[3] طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، تحقيق فؤاد لفرام البستاني، ج 1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1970، ص 9-10.وأنظر أيضا جورج فغالي، تاريخ جيش المشرق في لنان 1919-1921، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1997، ص 23. وكذلك الصليبي، منطلق تاريخ... ص 27. وكذلك النفزاوي، مرجع سابق، ص 282.

القرن 12 هـ / 18 م، حين نزحت مجموعات مارونية إلى المناطق الدرزية في جنوب الإقليم، واصطحبوا معهم هذه التسمية[1].

عبر التاريخ، عُرفت المناطق الجبلية بكونها ملجأ يلوذُ به المُضطهدون، وبفعل طبيعة تضاريسه وأرضه الوَعرة والمعقدة، وانفتاحه على واجهة بحرية ربطته بأوربا وإفريقيا، تحوّل جبل لبنان عبر تاريخه الطويل إلى قلعة طبيعية لكل صاحب عقيدة تُخالف السّائد، وملاذ ومعقل للكثير من الأقليات الدينية، التي آثرت الانطواء على نفسها، والانعزال بعيدا عن الحكام الذين تقلّبوا على بلاد الشام[2].

فوراء الموانع الطبيعية لجبل لبنان، تحصّنت هذه الأقليات ذات الانتماءات العقائدية المختلفة خشية الانصهار في الأكثرية، ونجحت هذه المجموعات في أن تحافظ على خصائصها العرقية والدينية والثقافية المتميزة، بعيدا عن بقية المجموعات الطائفية.

لقد استقرّ الموارنة في جبل لبنان، ولاذوا به هروبا من الاضطهاد الأرثوذكسي البيزنطي، الذي لاحقهم بسبب تحالفهم الديني مع الكنيسة في روما[3]. ثمّ لحق بهم الدروز، ليتحصّنوا بالجبل هم أيضا، هروبا من الملاحقات الدينية[4]. ومع مرور الوقت أصبح التعلُّقُ بالأرض التي عاشت عليها كل طائفة عقيدة وإيمان، وعاملا من عوامل الانفجار الطائفي[5].

---

[1] الصليبي، مرجع سابق، ص 12-13.

[2] ابكاريوس، مصدر سابق، ص 52. وأنظر أيضا أبو نهرا، مرجع سابق، ص 29.

[3] Renan, op.cit., p. 217.

[4] المقدسي، مرجع سابق، ص 62-63.

[5] ابكاريوس، ص 54.

فالسياق التاريخي لاستيطان الجبل لم يقتصر على جماعة بشرية واحدة متجانسة، بل تميز بتدفق جماعات متنوعة الأصول والدين، استخدمت هذه الأرض كملاذ، هروبا من الملاحقات والاضطهادات، خصوصا الدينية منها.

ومع خضوع بلاد الشام للحكم العثماني، تمتّع جبل لبنان منذ عهد السلطان سليم الأول بإدارة ذاتيّة، وأسندت زعامتهُ إلى أمير من الطائفة الدرزية، ومن بعده نسله[1]، مقابل التزام هؤلاء الحكام بدفع الضرائب المستحقة عليهم بانتظام[2].

خلال القرن 13 هـ / 19 م، استقرّ التوزيع الطائفي، وخريطته في جبل لبنان بين الموارنة والدروز، مع أقليات صغيرة من الطوائف الأخرى. إذ غلب على الأجزاء الشمالية من الجبل المُكوّن الماروني، بينما طغى الوجود الدرزي على المناطق الجنوبية منه[3].

بلغ عدد موارنة الجبل في هذه المرحلة أزيد من مائتين وستين ألف نسمة، اشتغلوا بالتجارة والصناعة بدرجة كبيرة، وأمّا عدد الدروز فقد بلغ ثمانية وخمسون ألفا، أكثرهم يشتغل في الزراعة[4]. وكان التعايش الطائفي والتسامح هو سِمة الجبل في هذه الفترة من تاريخ جبل لبنان[5].

على أن وصول أخبار الحملة المصرية أفسدت التعايش، الذي كان سائدا بين مكونات الجبل، فقد أدّت إلى انقسامه، بين الموارنة المؤيدين للحملة، والدروز الذين

---

[1] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 26. وأنظر أيضا حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 310. وكذلك الخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 19.

[2] أبو نهرا، مرجع سابق، ص 29.

[3] كوثراني، الإتجاهات الإجتماعية-السياسية...، ص 34-35. وأنظر أيضا الجميل، تكوين العرب... ص 498.

[4] جودت باشا، مصدر سابق، ص 357.

[5] يوسف خطار أبو شقرا، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، تحقيق عارف ابوشقرا، مطبعة الإتحاد، بيروت، د.ت.ن، ص 25. وأنظر أيضا مكاريوس، مصدر سابق، ص 66. وكذلك لونغريغ، مرجع سابق، ص 33. وكذلك حوراني، مرجع سابق، ص 345.

وقفوا ضدها، وانخرطوا في الجيش العثماني، الذي كان يواجه الجيش المصري حتى اندحار العثمانيين إلى الاناضول[1].

يرجع موقف الدروز من الحملة المصرية إلى علاقات التحالف التي كانت قائمة بين محمد علي وخصمهم الشهابي[2]، الذي كان حانقا على مضايقات السلطة العثمانية له[3]. زيادة على قيام قائد الحملة المصرية بفرض التجنيد الإجباري عليهم ولم يجبر الموارنة عليه، بحجة أنّ حروبه جهاد، ولا يجوز التجنيد من الطوائف النصرانية[4].

وكان محمد علي، قبل أن يُرسل ابنه لإخضاع بلاد الشام، قد راسل بشير الشهابي حاكم الجبل يستدعيه، ليوثّق علاقاته به، ويستفسره عن أحوال لبنان[5]. فشكى له بشير سطوة الدروز وقادتهم من آل جنبلاط[6] وبأسهم، فنصحه محمد علي

---

[1] مشاقة، مصدر سابق، ص 102. وأنظر أيضا أبو شقرا، مصدر سابق، ص 22.

[2] الشهابيون: : ينتمون إلى مالك الملقب بشهاب بن الحارث، الذي كان أميرا على بني مخزوم خلال عمليات الفتح الإسلامي لبلاد الشام. ثم استقروا في أجزاء من لبنان، ومنها جبل لبنان، يتوراثون النفوذ فيه. وقد تخلّى جزء من هذه العائلة بقيادة بشيرعن الإسلام، واعتنق النصرانية على مذهب الموارنة منذ 1756 م. ويعود هذا التحول الديني إلى أسباب سياسية في رأسها استمالة النصارى، وأيضا القوى الاوربية التي بدات تتدفق على المنطقة. وقد كان ذلك عاملا أفضى إلى تبدل ملامح التوازن الطائفي لصالح الطائفة المارونية. أنظر: تشرشل، مصدر سابق، ص 19. وأنظر أيضا طنوس الشدياق، مصدر سابق، ص 35-36. وكذلك مكاريوس، مصدر سابق، ص ص 64-66. وأيضا:
Un témoin oculaire, op.cit., p. 95.

[3] أبو شقرا، مصدر سابق، ص 5. وانظر أيضا ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 29.

[4] مشاقة، مصدر سابق، ص 116. وأنظر أيضا الدبس، ج 8، مصدر سابق، ص 172. وكذلك أبو شقرا، ص 22.

[5] Edwards, Richard, op.cit., p. 7.

[6] آل جنبلاط: ينتسبون إلى جان بولاد الكردي الأيوبي، ولفظ جان بولاد هو أصل لفظ جنبلاط. سكنوا حلب، وواجهوا إلى جانب الأيوبيين الحملات الصليبية. وفي عام 1039هـ / 1630 م هرب أحد أبنائهم بعد ثورة في حلب ضد السلطة العثمانية، ولجأ إلى جبل لبنان، حيث استقبله زعيم الدروز، ليُؤسس العائلة الجنبلاطية، وينتمي إلى الطائفة الدرزية. أنظر: طنوس الشدياق، مصدر سابق، ص ص 136-141.

قائلا: **" ألق بينهم بذور الشقاق متظاهرا بمحبة هؤلاء مرّة وأولئك مرّة مغريا كلا من الفئتين بالأخرى فيستوي بذلك بعضهم لبعض عدوا..."**[1].

ولهذا يبدو أنّ موقف الدروز العدائي بصورة عامة من الحملة المصرية، يكمن في العداوة التقليدية المتراكمة والمُتأججة بينهم وبين الأمير الشهابي، حليف محمد علي. وهكذا، فإنّ اتصال مصر بتاريخ بلاد الشام ضاعف من مآسيها الطائفية، فبمَيْلها للأمير الشهابي النصراني آزرت النصارى، فَبَادَلَهَا الدروز العداء. كما يظهر أن محمد علي ابتغى من سياسته تلك إذكاء روح الطائفية بحيث يتيسّر له أمر الاستيلاء على بلاد الشام.

وفي المرحلة التي خضعت فيها بلاد الشام للحكم المصري، أخذت الظروف تتغير بشكل كبير في جبل لبنان، وبرزت الهوية الطائفية فيه بشكل جلي وظاهر، وأخذت مفاهيمها تترسخ يوما بعد يوم، مما زاد في التباعد الطائفي، مدفوعا في تصاعده، زيادة على الحملة المصرية وسياساتها، ببداية امتداد وتغلغل السياسة الدولية إليه.

اعتبرت الدول الأوربية جبل لبنان، هو الموقع المثالي لمشاريع الإصلاح[2]، التي فُرضت على الدولة العثمانية، وشرعت في إنجازها، معتمدة في سياستها تلك على الجماعات الدينية خصوصا النصرانية منها، كسبيل لتحقيق المآرب والمنافع[3]. إذ غدَى النصارى في الجبل بمثابة المِحَك في تحديث الدولة العثمانية[4].

انتهت الحملة المصرية على بلاد الشام، بعد أن شوّشت بعمق على التعايش في الجبل. فعلى إثر خروج المصريين من جبل لبنان، شرعت الزعامات الاقطاعية

---

[1] أبو شقرا، مصدر سابق، ص 5.
[2] المقدسي، مرجع سابق، ص 42.
[3] لونغريغ، مرجع سابق، ص 33.
[4] المقدسي، ص 22.

الدرزية في المطالبة بالامتيازات والمنافع التي فقدتها، وانتزعت منها خلال الحكم المصري، لكن الأمير الشهابي رفض مطالبهم وعاداهم[1].

انتشرت الفوضى في جبل لبنان، فنادى بعض الأعيان باستبدال الأمير الشهابي النصراني بآخر شهابي سُني- وهذا بعد أن تمّ نفي الأمير بشير إلى استانبول بوساطة بريطانية[2] - غير أنّ بطريرك[3] الموارنة رفض ذلك وتمسك بمارونية أمير الجبل، ووصل المد الطائفي مداه حين بدأ الموارنة يرددون أن **"البطريرك هو سلطاننا"**[4].

كما أبدى البطريرك رغبته في بسط سلطانه ومعه الطائفة المارونية على كامل الجبل، حتى ولو أدّى ذلك إلى إشعال حرب أهلية[5]. فغدى جبل لبنان قلعة نصرانية تحت سلطته الدينية والزمنية، وهو ما اثار حنق الدروز، وظهرت عَصبِيتهم إلى العلن، مدعومين من السلطة العثمانية[6].

تفاقمت عقبها الخصومة الطائفية بين الجانبين[7]، فاشتد أُوارُ الضغائن الدينية في الجبل، ولم تتحرّك السلطة لإخماد لهيب فتنتها[8]. ونتيجة هذه الاضطرابات، تدخلت القوى الخارجية، وفرضت على السلطة العثمانية إعادة ترتيب الإدارة في الجبل.

أزاحت السلطة العثمانية بموجب التنظيم الجديد - والذي لن يستقر هو الآخر مثل سابقيه - التقليد الذي كان سائدا، والقاضي بأن يكون الحكم لأمير إقطاعي من

---

[1] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 30.

[2] Un témoin oculaire, op.cit., p. 98.

[3] البطريرك: اسم يطلق على رؤساء دينيين في النصرانية، وتكون سلطتهم على مجموعة كبيرة من الأساقفة. أنظر: نصار وآخرون، مج 2، مرجع سابق، ص 726.

[4] ابكاريوس، مصدر سابق، ص 54.

[5] تشرشل، مصدر سابق، ص 28.

[6] لونغريغ، مرجع سابق، ص 34.

[7] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 36.

[8] محمد كرد علي، ج 3، مصدر سابق، ص 75.

الجبل، وعوّضته بحاكم عثماني[1]، يُعينه مجلس مكون بصيغة تمثيل طائفية. كما قُسّم الجبل إلى دائرتين إداريتين، واحدة مارونية، والأخرى دُرزية[2].

سَادَ هدوء نسبي وظاهري في الجبل رغم التعقيدات الناجمة عن التقسيم، ولكن هذا الهدوء كان مؤقتا[3] بسبب تعاظم الدسائس الأجنبية في إثارة الفتن الطائفية. إذ أنّ هذا الشكل الجديد في إدارة الجبل، سيزيد من الحالة المتأزمة سوءًا، ليتحول إلى مصدر للقلق، بعد أن هيّأ التربة لتفجير الصراعات بدلا من إخمادها.

---

[1] Droz-Vincent,op.cit., p. 1946.

[2] جودت باشا، مصدر سابق، ص 355. وأنظر أيضا الجميل، تكوين العرب...ص 498.
لقد كان هذا النظام الجديد الذي خضع له جبل لبنان، والذي تمّ تأسيسه على أنقاض نظام الإقطاعيات والزعامات المتوارث، طائفي الطابع بعد تقسيم الجبل بين الموارنة والدروز، وهو ما أدّى إلى تصاعد أهمية الانتماء الطائفي للسكان. فاختفى الولاء للعائلات ليحل محلّه الولاء الديني للكنيسة التي نمت سلطتها ونفوذها، وأصبحت هي من يعبر عن الطموحات، ويدافع عن المصالح الخاصة بالطائفة.

[3] كوثراني، الإتجاهات الإجتماعية-السياسية...، ص 79. وأنظر أيضا لخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 26.
يبدو من خلال ما سلف عرضه، أنّ السلطة العثمانية بترتيباتها الإدارية والمِلّية، هي من تسببت في الأمراض السياسية التي انتشرت في بلاد الشام، والتي بدورها أفرزت العصبيات والتنافر الطائفي. ولكن دَرس التاريخ الذي تعلّمناه وتداولناه، يكتفي في أغلب الوقت بتبرير هذه المسألة بالتآمر الأوربي على العثمانيين.
إنّ عُذرنا كباحثين في تاريخ الدولة العثمانية، وإخفاقاتها في معالجة المسألة الطائفية، وما نتج عنها، هو أنّ تلك الأزمات التي كانت مطروحة حينها، ما تزال أكثرها تمُوجُ بها ساحتنا الإسلامية، تبحث عن مخارج وحلول؛ وبمعنى آخر: إنّ السلبيات التي وقفنا عليها، وسُقناها في هذه الصفحات، هي ذاتها التي لاتزال تصنع ما نعيشه اليوم، ولا فكاك لنا من الحكم عليها في سبيل التقويم والتعديل، لأجل المستقبل.
ما يجب التشديد عليه، هو أنّ الحالة الطائفية ومسارها القاتل في بلاد الشام، ليست - وحسب - وليدة مؤامرة حاكتها القوى الخارجية في المرحلة المُثارة، لضرب الانسجام الطائفي، ولا حتى في المراحل اللاحقة من تاريخنا، إلى يوم الناس هذا.
ففي قراءة متأنية لهذا الواقع، نصل إلى نتيجة تؤكد أن الطائفية بزغت في بلاد الشام كفعل مُمارس، حين اشتعل الصراع بين الزعامات والعصبيات الطائفية، التي خوّلت لها التنظيمات التمتع بالسيادة التامة على أقاليمها.
لقد استماتت هذه الزعامات، مدفوعة بأنانية طاغية، لأجل زيادة نفوذها وامتيازاتها ومكاسبها، فزادت خصوماتها وكيدِها لبعضها البعض. وهو أمر لم يكن ليتأتّى بدون اللجوء إلى الاستقواء بأبناء الطائفة الذين فقدوا، في ظل هذه التنظيمات والزعامات، أيّ شعور بالولاء أو الانتماء للكيان الأكبر والجامع وهو الدولة العثمانية.

المبحث الثالث: المُوَلِّدَات الخارجية للطائفية في بلاد الشام في القرن 13هـ / 19م.

من الثابت أنّ من بين المُولّدات الحاسمة للحالة الطائفية في بلاد الشام، خلال القرن 13 هـ / 19 م، امتداد اليد الخارجية لتأجيج الصراع بين المكونات الطائفية وتدمير التعايش بينها. فالنزاعات التي كانت تحدث قبل هذه المرحلة، لم تكن سوى وقائع وأحداث محدودة وعرضية، ناتجة عن خلافات فردية، سرعان ما كانت تنطفأ من تلقاء نفسها، لتعود حياة الطوائف إلى التوافق والانسجام.

أضحت الطائفية تشكل أزمة ورُكنا من أركان العلاقات بين المكونات الشامية عقِب بداية تواصل القوى الكبرى بالمنطقة، فانتعش الدّعم الخارجي للزعامات الإقطاعية والعصبيات المحلية لتحقيق رغبتها في الاستقلال، الذي أضحى منفعة هامة وحيوية، تفرضها المصالح السياسية للطائفة.

إنّ الغرض من سياسات الدول الأوربية، كان تفكيك الدولة العثمانية - وهي تعيش حالة من الترهّل والتهاوي - من الداخل، على أمل أن يكون لكل دولة النصيب الأوفر من إرث الرجل المريض، وهذا في إطار مشروع استعماري أوروبي كبير، انضوى تحت عنوان المسألة الشرقية. ولا زالت - للأسف - هذه الارتباطات الخارجية لحد اليوم، هي التي تهزُ نفوس العامّة، وتُحدد واقع الطائفة وتوجهاتها، وموقفها السياسي من القضايا التي تعُج بها بلاد الشام ومحيطها.

1- آليات التدخل الخارجي.

اهتم المؤرخون والباحثون المعنِيُون بالدراسات التاريخية العثمانية بالأدوات التي وظفها الغرب للتغلغل في الكيان العثماني، فكَتبوا الكثير حول الامتيازات[1]

[1] تمكّن العثمانيون في صدر مجد دولتهم من إظهار بأسهم وقوتهم، وفرض أنفسهم، فهابتهم أوربا وخشيت سطوتهم وتوسعاتهم، لكنها وجدت في الامتيازات والحصانات الدينية سبيلا للتغلغل إلى صميم الدولة، التي أبدت سخاءً كبيرا في هذا المضمار، وتوسعت في منحها منذ عصر السلاطين العظام دون

والتنصير والتعليم والمدارس الأجنبية[1]. ولهذا يبدو لنا أنّ التطويل في هذه الآليات شرحا وتفصيلا، يُعدّ خروجا عن موضوعنا، وزيادَةٌ ربّما لن تكون لها فائدة تُذكر في هذا الصعيد. ومن هنا ارتأينا التركيز على الآليات التي كانت وليدة المراحل المتأخرة من حياة الدولة العثمانية.

-الفكر القومي: حَفِل القرن 13 هـ / 19 م بالحركات القومية التحررية، المسنودة بالنظريات والفلسفات الناتجة عن الثورات التي عصفت بأوربا منذ القرن 12 هـ / 18 م، وعلى امتداد هذا القرن، كانت هذه النظريات ترنو إلى إقامة كيانات قومية أساسها اللغة والوطن والمصالح، وهي التي ما لبثت انْ تقاطعت مع طموحات الاستقلال ومشاريعه المرتبطة بالطوائف الملّية غير الإسلامية في بلاد الشام، للانفصال عن الدولة العثمانية.

=اعتبار للأخطار التي تمثلها على مستقبلها. وكانت المعاهدة العثمانية الفرنسية 1535 م في عهد السلطان سليمان القانوني، كما هو معلوم، هي طلائع الامتيازات الأجنبية.

وكانت الحقيقة المرّة، هي تحول هذه الامتيازات بشتى أنواعها إلى ثغرة رهيبة، لممارسة التدخل في أمور السلطنة التي شارفت على الانهيار، وأيضا تحولها من مجرد صلاحيات تمنحها السلطة العثمانية إلى حقوق تطالب بها دول أوربا، ومع مرور الوقت أضحت قيودا، تحدّ من حركتها وسيادتها، وأعظم خطر يهدد كيانها ووجودها. ثم اشتدت تلك القيود عليها خاصة تلك التي تخص الطوائف التي تعيش تحت سلطانها وسلطتها، حيث أحال هذا النوع من المعاهدات الطوائف والمذاهب إلى سلطة الدول الأوربية حسب مذاهبها الدينية.

إن إنطلاق السلطنة من قاعدة أن الملل والطوائف غير الإسلامية حرّة في معتقداتها، هو الذي جعل الامتيازات تشمل دائرة أوسع من مجال العقيدة إلى شؤون التجارة، وما يسْتتبع ذلك من حصانة تجارية وقضائية، مكّنت الحمايات الأجنبية من إيجاد موطئ قدم لها في البلاد العثمانية.

وبفعل ذلك أصبحت هذه الدول هي القيّمة على هذه الطوائف، تُدير شؤونها وتُدبّرها وفق سياساتها ونواياها... و يبقى أن نذكر أننا هنا لسنا بصدد محاكمة الدولة العثمانية وفق المعايير الحديثة أو بصدد الحكم عليها، بل نبتغي ونرمي إلى رصد تلك الأخطاء، والتنبيه إليها، حتى لا تتكرّر في حاضرنا ومستقبلنا.

[1] لن تُتيح لنا طبيعة موضوعنا بمعالجة هذه العوامل كمظاهر للتغلغل الأوربي في بلاد الشام، وتبيان آثارها. ولذا يمكن الحصول على معلومات وافية عن دور عوامل التنصير والتعليم والامتيازات، كأبرز آليات التغلغل في كيان الدولة العثمانية، بالرجوع إلى: عبد الفتاح إسماعيل غراب، العمل التنصيري في العالم العربي، رصد لأهم مراحله التاريخية والمعاصرة، رسالة ماجستير منشورة، مكتبة البدر، د.م.ن، 2007. وأنظر أيضا بعيو، مرجع سابق، ص 53.

وُلدت الفكرة القومية العربية سنة 1263 هـ / 1847 م غداة تكوين جمعية أدبية في بيروت، تحت الرّعاية الأمريكية، وبتأثير من المدارس البروتستانتية التي بدأت تتسلّل إلى بلاد الشام في هذه الفترة. وهي ذات السنة التي اعترفت فيها السلطة العثمانية بالطائفة البروتستانتية، وقد قامت هذه الجمعية بإصدار القصائد ذات الصبغة العربية القومية[1].

مع مرور الوقت، اجتاحت الأفكار القومية العربية العناصر التي تتألف منها السلطنة في بلاد الشام، فبدأ الحس القومي منذ القرن 13 هـ / م 19 يتغلغل في الخطاب العام للنخب الفكرية لتتبنّى طروحاتٍ ونماذج قوميةٍ، تتحدث عن الهوية السورية لتنظيم المجتمع على غرار ما كان حاصلا في أوربا، وتكون بديلة للرابطة العثمانية[2]. وبذلك بدأ مفهوم القومية ينخر في نظام الملّة ويفكّكه، لا سيما بعد نجاح الثورة اليونانية.

وبالتوازي مع الترهّل الذي بدأ يَفتِك بالسلطنة، ويُخَلخِلُ أركانها، انبثقت فكرة القومية العربية وقَوِيَت، رويداً رويدا، وظهر تيار سياسي واجتماعي مرتبط بجوهر الثقافة الأوربية، التي ترعرع فيها الفكر القومي، وكان عماد هذا التيار الأول هو النُخب النصرانية[3]. فمن الثابت تاريخيا أنّ النصارى وفي مقدمتهم الموارنة كانوا وراء القومية العربية في سبيل التخلص من الحكم العثماني.

اضطلعت هذه النخب بدور بارز وظاهر في الحياة الفكرية في هذه المرحلة. فلم تكن الحضارة الغربية تبدو في نظرهم غريبة بسبب وحدة الدّين، والحماية التي كانت يُوفرها هذا الغرب للنصارى داخل الدولة العثمانية[4].

---

[1] النفزاوي، مرجع سابق، ص 299.

[2] ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، د.ت.ن، ص 377.

[3] احسان اوغلي، مرجع سابق، ص 386.

[4] الصليبي، مرجع سابق، ص 184-185. وأنظر أيضا حوراني، تاريخ الشعوب ... ص 375.

على النقيض من النخب النصرانية، وقف المسلمون العرب ضد التيار القومي العلماني، وقدّموا الرابطة الدينية على الاعتبارات القومية[1]، فقد كانوا حتى هذه الفترة لا يزالون على ولائهم للسلطنة[2]، ويعترفون بشرعيتها كخلافة إسلامية.

اعتبر المسلمون أنّ ما يحدث، إنّما هو مؤامرة حاكتها الأيادي الخارجية، وتُحرّكها بالتعاون مع الأقليات، على حساب الأغلبية المسلمة في بلاد الشام، وأيضا على حساب الدولة العثمانية، القوة الإسلامية الوحيدة المُتبقية، فكان ردّهُم على هذه الدعوات بالالتفاف بقوة حول الحكم العثماني.

لقد كانت للمجلات والصحف التي أنشأها نصارى بلاد الشام جُرأة وإقداما في طرح موضوع القومية العربية، وفتح نوافذ الثقافة الغربية على مصراعيها، وتشكيل

كانت الأمة الإسلامية مُمثلة في الدولة العثمانية الهدف الأكبر، الذي ظلّ يشغلُ أوربا خلال مرحلة الضعف والانهيار. فكانت وسائل وأدوات القضاء على هذه الدولة كثيرة ومتعددة، وأهمها الغزو الفكري والثقافي الذي أبهر أعدادا بالغة الكثرة من الشرقيين، وجعلتهم يتماهون مع المشاريع الفكرية التي صممت لتكون وباء ينخر جسد هذه الدولة، والشعوب التي عاشت في كنفها.

إنّ التغلغل الأجنبي بشتى انواعه في بلاد الشام خلّف، ليس فقط وقائع اجتماعية تجلّت بشكل واضح في خلخلة التوازن في علاقات الطوائف بعضها ببعض، أو حقائق اقتصادية من خلال دعم طوائف بعينها على حساب الطوائف الأخرى، بل تعدّى الأثر إلى صياغة تناقض في الولاءات الطائفية الفكرية والثقافية والسياسية لكل طائفة، وهذا بعد أن تحوّل التعليم الذي امتطاهُ هذا الغرب إلى وظيفة سياسية لزرع وإنماء النزعة القومية في النفوس بعيدا عن الرابطة الإسلامية، بغية تفكيك الدولة العثمانية من الداخل.

فالغرب هو من فرض نموذجه وقدمه عبر القومية والتبشير والاستشراق والتعليم، ورحنا نعتقد أننا أصَبْنا الحداثة، ففكرة اليقظة العربية التي راجت بيننا لم تكن سوى حالة من التغريب اندفعنا في طريقها، ولم نجنِ منها شيئا لا ماضيا ولا حاضرا.

وهكذا فإنّ انتشار التعليم الغربي، لم يكن في صالح بلاد الشام، على الرغم من جهده في رفع المستوى الثقافي، وجعل هذه البلاد أكثر المناطق العربية تقدما من الجانب الثقافي، فإن هذا التعليم عمل على تصعيد الروح الطائفية من خلال المادة التعليمية التي كانت تعتمد عليها مناهجه، بل إنه أدى إلى زيادة عدد الطوائف حسب عدد الدول الأوربية المتنافسة على أرض الشام.

ومما يزيد اليقين في أنّ الفكر القومي المجلوب من الخارج عن طريق التعليم الذي تولته الارساليات، أنه كان أحد عوامل التفجير الطائفي خلال القرن 13 هـ / 19 م هو ما يحدث اليوم في هذه المنطقة من تطاحن طائفي ومذهبي، تداخلت فيه المصالح المحلية والدولية.

[1] حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 353.

[2] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 111. وأنظر أيضا الصليبي، مرجع سابق، ص 187.

التطلّعات القومية. فنشأ جيل يرتاح إلى الحديث باللغات الأوربية. فمثلا انتشر بين هذه النخب استخدام اللغة الفرنسية، التي كان لها دور فعّال في تكوين الطبقة المثقفة النصرانية[1].

ونشأت حركة أدبية جديدة، لها صلة وثيقة بالإرساليات الأجنبية سيما الامريكية[2]، وكانت طليعتها النخب المثقفة النصرانية، ومن روادها الأوائل: ناصيف اليازجي[3]، وهو من الكاثوليك الملكيين، وبطرس البستاني الماروني[4]، وغيرهما. وتمركزت أغراض هذه الحركة الأدبية في الإشادة بقوة أوربا وتقدمها، والانبهار بعظمة مؤسساتها السياسية[5].

طالب هذا الاتجاه القومي في بداياته إلى إعادة بناء الدولة العثمانية، وإعادة تنظيم العلاقة معها، بما يضمن مصالح العرب القومية، ويكون هذا البناء على أساس أمة واحدة، تكون قاعدتها لغة مشتركة، تجمع بين الذين يختلفون في العقائد الدينية.

---

[1] لونغريغ، مرجع سابق، ص 58. وأنظر أيضا التميمي وبهجت، مرجع سابق، ص 21.

[2] Policy in The Middle East, IOR/L/18/B219, Qatar National Library, p. 1-8.

هذه الوثيقة التي تحمل عنوان السياسة المتبعة في الشرق الأوسط، عبارة عن مذكرة سياسية حول الأبعاد الإنسانية والدينية والسياسية في الشرق الأوسط . دونت في عام 1915 م، بقلم المقدم مارك سايكس، المستشار السياسي والدبلوماسي والعسكري البريطاني، والذي كان مختصاً في شؤون الشرق الأوسط، ومناطق سوريا الطبيعية خلال فترة الحرب العالمية الأولى. وفي هذا التقرير يعلل صاحبه ظهور الفكر القومي العربي بالدور الكبير الذي قامت به الارساليات الأجنبية وفي مقدمتها الفرنسية، وأيضا دور الرحلات السياحية والدينية، ونشاط المهاجرين النصارى في الخارج الذين كانوا همزة وصل بين بلاد الشام والتيارات الفكرية التي ترعرعت ونمت في أوربا و الولايات المتحدة الأمريكية.

[3] ناصيف اليازجي (1871-1800 م): كاتب وشاعر لبناني، يُعد من أعمدة النهضة الأدبية الحديثة، اهتمّ باللغة العربية التي اعتراها الضعف والرّكاكة. أنظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 502.

[4] بطرس البستاني (1883-1819 م): لغوي وموسوعي وصحافي لبناني، يعتبر أحد وجوه النهضة العربية، من أهم مؤلفاته دائرة المعارف. أنظر: البعلبكي، ص 105. وأنظر أيضا كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 113. وكذلك الصليبي، ص 186-187.

[5] حوراني، الفكر العربي... ص 372.

فقد آمن أصحاب هذا الاتجاه باللغة العربية وامكانياتها، وأبدَوا اعتزازا بحضارتها ومنجزاتها[1].

وكانت تلك الأفكار التي اعتنقها النصارى صادرة عن التأثير الذي أحدثته مدارس الارساليات[2]، التي أنبتت البذور الأولى للقومية العربية، وكان لها دور فعّال في بعثها، فقد كانت هذه الارساليات تعيش عصرها الذهبي[3]، وهي التي تقف وراء غلبة نموذج المجتمع الأوربي خصوصا الفرنسي على تفكير الفئة الأكبر من النصارى.

يُشار هنا إلى أنه كان ثمّة انتشارا واسعا للتعليم الأجنبي في الأوساط النصرانية الشامية أكثر مما كان عليه في الأوساط الإسلامية، ويرجع ذلك بالخصوص إلى حاجة النصارى إلى الانفتاح على الثقافة الأوربية للقيام بدور الوساطة التجارية والترجمة في القنصليات الأجنبية المنتشرة في بلاد الشام.

تطوّرت هذه الدعوة، لا سيمّا لدى الطوائف النصرانية، إلى العمل على إحياء شعورعربي إقليمي، غرضه تأسيس تلاحم إسلامي مسيحي مبنيا وقائما على تجاوز العصبية الدينية إلى العصبية العربية، وترسيخا لقومية عربية بطابع علماني[4]، يتولّى

---

[1] حوراني، الفكر العربي... ص 378.

[2] نفسه، ص 328.

[3] الجميل، تكوين العرب...، ص 500.

[4] الصليبي، مرجع سابق، ص 195. وأنظر أيضا

Khairallah, op.cit., p. 106.

يظهر أن ميل الأقليات الدينية إلى تفضيل الدولة العَلْمَانِيَة عن قصد، وسعيها للبحث عن صِيغ لحل مشكلة التعايش المشترك،عن طريق بناء قومية عربية مبنية على عروبة تاريخية، يعود بالأساس إلى رغبتها في تحييد الإسلام، الذي تعتنقه الأغلبية، وإزاحته عن الحياة العامّة. فلا غرابة في أن يكون معظم دعاة هذا الاتجاه من النصارى العرب، فهذه الفكرة مقبولة ومعقولة لديهم بسبب أنّ الشأن الديني منفصل عن الشأن المدني والسياسي في الديانة النصرانية.

فليس غريبا أن ترتبط الدعوة القومية بالعودة إلى ماقبل الإسلام لبناء هوية حضارية مُؤسسة على موروث أجناس وأعراق شكّلت ماضي هذه المنطقة، ثم اتسعت هذه الدعوة وامتدّت في عالمنا الإسلامي، فأصبحنا نسمع عن ولاءات وانتماءات جديدة وبديلة، من مثل الانتماء العربي والفرعوني

شؤونها سلطان عربي[1].

إنّ هذه التطلعات والدّعوات، إنّما كانت نابعة من هواجس الخشية والرعب التي انتابت النُخب النصرانية من إمكانية ميلاد أمة عربية، تتسلّط عليها الأغلبية المسلمة، فلم تجد مخرجا لهذه المسألة، سوى الإيمان بالقومية العربية، والترويج لفكرة أمة عربية منفصلة عن الأساس الديني، ومقطوعة الصلة به[2]. فقد آمنت تلك

= والبربري والتركي...وخَفَتَ الانتماء الإسلامي وتَراجَعَ، فضاعت الأمة بين هذه العناوين والانتماءات، وزادتها تمزقا وخيبة.

ثم إننا نتساءل أيضا عن طبيعة ولاء النخب العربية النصرانية للغرب، والقائمة أساسا على رابطة الدّين. فالموارنة على سبيل المثال، مرتبطون بفرنسا بسبب رابطة المذهب الكاثوليكي دون غيرها من الروابط. فكيف يُطلب من الأغلبية المسلمة أن تتخلّى عن رابطة الإسلام التي تجمع بينها برغم التعدد القومي والعرقي؟

[1] نجيب عازوري، يقظة الامة العربية، تعريب أحمد بوملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت.ن، ص 37

[2] حوراني، الفكر العربي... ص 332.

ليس هناك أدنى شك، في أنّ القومية ذات علاقة وثيقة بالبيئة الغربية، نشأت وترعرت في أوروبا من واقع موجود، تطور منذ العصور الوسطى، بعد أن اهتزَّ الاعتقاد النصراني بفعل أساءة الكنيسة استعمال هذا الاعتقاد، وخاصمت شعوبها الدّين الذي تسبب لها في متاعب ورذائل مُنكرة، لا مجال لذكرها، جعلها مرغمة على التنكّر له، والكُفر به. فتلك الأسباب الموضوعية، إلى حدّ بعيد، هي من دفعت أوربا إلى هذا النهج، في حين أنّ الإسلام لم يفعل شيئا يُذكر في هذا المضمار.

وأمام هذه الحقائق، هل يبقى أدنى شك بأن مبدأ القومية مفهوم مَجلوُب ومستورد من أوربا، وليست له أدنى علاقة بتاريخنا ولا واقعنا. فهو استجابة للاستعمار بكل ما ينطوي عليه من أحقاد وأطماع، وانبهار أمام التفوق الغربي ونُظُمِه الحياتية. والغرض منه الالتفاف على ديننا ومصالحنا، وإضعاف الرابطة الإسلامية، بتقليص دور الدين في حياتنا، بحجة التخلص من الركود الذي تسبب فيه العثمانيون أحيانا، وأن الدين أفيون، يدمر و لا يبني أحيانا أخرى.

من حقنا أن نقول: يظهر مما سبق ان النظرية القائلة بأن القومية هي أساس وحدة العرب، وعامل ارتفاع شأنهم بين الأمم، هي مجرّد فِرية واختلاق، وحاضرنا يؤكد ذلك. وإنّ الانتساب الى القومية العربية لا يزيد العرب ولا ينقصهم شيئا. قالعامل الذي أخرجهم من جزيرتهم ورفعهم، وجعلهم يقودون العالم هولا ريب، الإسلام دون سواه.

لم يُؤرَّخ للعرب بمجد ولا حضارة ولا غيرهما... إلا بعد أن رفعوا راية الإسلام وفتحوا به البلدان فمجيء الإسلام هو الذي أتاح للعرب الزخم والاندفاع الذي ارتقى بهم إلى مستوى الشعوب العظمى التي أقامت دولة كبرى، وحضارة جليلة شقّت منعطفا جديدا في التاريخ، وبدّلت مسار العالم وتركت بصماتها واضحة على تاريخه.

إن فِعل الدين هو الذي صنع مسلما، ينفر من كل تعصب جنسي أو استعلاء عنصري، وعلّمه أن الإسلام لا يُلغي الانتماء القومي وخصوصياته، ولا يتعدّى عليه، ما دام هذه الولاء لا يتعارض ولا

النخب بأن كل مآسي الشرق تأتي من الدّين، ويجب مواجهة الانتماءات الدينية وإعدامها، لأنها كانت أخطر العناصر التي تهدد الوحدة والتطور، وتقف حاجزا أمام الوطنية السورية، فالتقدم الذي يعيشه الغرب إنّما جاء حصيلة إزاحته للدين من الحياة. فاستقرّت القومية عند هذه النُخب على اعتبار اللغة العربية هي معيار الانتماء القومي[1].

ولتحقيق هذه الطموحات والآمال القومية، تشكلت منذ 1292 هـ / 1875 م جمعيات شُبانية نصرانية سرّية، أغلبها في بيروت[2]، ظهرت فيها النزعة القومية بقوة، فَعَادتْ الأتراك وخاصمتهُم، وحمّلتهم مسؤولية تخلف العرب والإضرار بهم كثيرا[3]، وكانت هذه الجمعيات مُكونة في الغالب من العناصر الذي التحقت بمدارس الارساليات الأجنبية، التي لم تكن تخلو منها قرية من قرى النصارى[4]. ثمّ كرّت السبحة، وتشكلت مثل تلك الجمعيات السرية البيروتية في عموم بلاد الشام.

قامت تلك الجمعيات التي اتخذت من الحركات القومية الاستقلالية في البلقان وخاصة في اليونان نموذجا لها[5]، بتعليق المناشير على الجدران، وعلى أبواب

=يتناقض مع الانتماء الإسلامي. لا يجهلُ أي شخص مطلّع، أنّ القومية العربية أخفقت - بعد أن حولّها أصحابها إلى واجهة للاستبداد والطغيان - تماما في تشكيل وحدة عربية ولو وحدة جزئية، وانهزمت أمام التحديات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية المطروحة. وانكسرت أمام المشروع اليهودي في فلسطين، بعد أن اكتفت برفع الشعارات القومية، مُتجاوزة الرابطة الدينية.

إننا عندما نُديرُ ظهورنا للأخوة الدينية، ونجعل من أخوة العرق بديلا لها، نضرب صفحا عن الملايين من غير العرب، الذين نافحوا عن الإسلام وخدموه في شتى المجالات ... وقد مرّ بنا في مباحثنا السابقة ما قدمه الأيوبيون الأكراد و المماليك والعثمانيون، وغيرهم كثير، فالتقوا كلهم على صعيد واحد في مواجهة الحملات التي استهدفت الإسلام والأوطان والعباد، في ظل خلافات عربية كانت غارقة في غَيّها ولهْوِها.

[1] النفزاوي، مرجع سابق، ص 205. وأنظر أيضا

Khairallah, op.cit., p. 106.

[2] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 126. وأنظر أيضا الخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 29.

[3] عازوري، مصدر سابق، ص 210.

[4] نفسه، ص 122.

[5] عازوري، مصدر سابق، ص 218.

المساجد والكنائس في بيروت، تدعو فيها إلى مكافحة السيطرة العثمانية، وتطالب بالاتحاد والحكم الذاتي. وبذلك تكون بلاد الشام هي قلب الحركة القومية الناشئة.

وكانت هذه الحركة تطالب أيضا بالاعتراف بالعربية كلغة رسمية[1]، لتكون رباط قومي بين المتكلمين بها، كما أخذت تستخدم اسم سوريا على نطاق واسع، تُقدّمه على ما سِواه وتعتزّ به[2]، وتنادي بالنخوة العربية والحمية السورية[3].

إضافة إلى ما ذكرناهُ أعلاه، من ظروف نصرانية محلية ترعرع فيها الفكر القومي العربي المسنود من الغرب، نُشير إلى الدور الذي اضطلع به حزب الاتحاد والترّقي 1894-1895 م، الذي كان له شأن كبير وبارز في تكوين حركة تركيا الفتاة، وبلورة المشاعر القومية التركية، والتشديد على الطابع القومي التركي للدولة العثمانية[4].

إنّ بداية انتقال السلطة في الدولة العثمانية من القاعدة الدينية، التي شكّلت أساس الجمع لعدد من الشعوب، رغم الفروق العرقية والدينية، إلى عنصر القومية، زاد في يقظة الأقليات الساعية إلى بلورة تطلعاتها الخاصة في الانفصال والاستقلال عن الكيان العثماني. ومن ثمّ، فإنّ صعود القومية العربية يعكس تغيرات واسعة وعميقة في المجتمع الشامي، خصوصا بعد صعود أنصار تركيا الفتاة.

---

[1] الجميل، تكوين العرب...ص 505. وأنظر أيضا كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 126.
[2] حوراني، الفكر العربي... ص 328.
[3] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 125.
[4] الجميل، تكوين العرب...ص 513.
كانت جمعية الاتحاد والترقي هي الستار الذي توارت خلفه منظمة تركيا الفتاة، والتي نشأت في جنيف 1891 م، وكانت حركة فاعلة ونشطة، تظم طلاب وشباب كانوا يتلقون تعليمهم في البلاد الأوربية، فتأثروا بالفكر القومي السائد هناك، وراحوا ينادون بالإصلاح ويُرَغِبُون فيه. ثم نقلت هذه الجماعة مقرها الى باريس، وتبنّت هدف أساسي لها وهو وضع دستور للدولة العثمانية على غرار الدساتير الأوربية. أنظر حتي، ج2، مرجع سابق، ص 345.

لا شك في أنّ هذه الحركة كان لها وقْعا وأثرا بالغا على نظيرتها العربية، بما أصاب السياسة الإسلامية للسلطنة من تحوُل وانحراف صوب السياسة التركية وزحف موجة التّتريك، التي سعَت لصبْغ رعاياها، بمختلف هوياتهم بالصبغة التركية الخاصة[1].

أثمرت الظروف التي كانت تمر بها بلاد الشام والدولة العثمانية من جهة، ومساعي ونشاطات الجمعيات النصرانية من الجهة الأخرى في انقلاب المسلمين العرب على موقفهم السابق، وانساقوا وراء الفكرة القومية، وأخذوا يبتعدون عن الرابطة العثمانية، ويسيرون باتجاه تبني مبدأ الوطن القومي السوري، وفي مقدمتهم عبد الرحمن الكواكبي[2].

لقد تبلور هذا التحوّل لدى المسلمين العرب الشاميين بشكل خاص على يد الكواكبي، من خلال طرحه لموضوع تعريب الخلافة. فهو يرى أن الأتراك قلّة،

وبمقدور العرب التخلّص منهم بضربة مكنسة! والخلافة ينبغي أن تكون في يد العرب كاتجاه مُضاد للخلافة العثمانية[3]، فالعرب هم في قلب الإسلام من بين شعوبه العديدة[4].

وبذلك تصاعد انتشار مشاعر الضغينة واحتقار الأتراك بين العرب، وشاع بينهم أنّ الدين الإسلامي دين العرب، وأنّ **"النبي عربي، والقرآن عربي، ولغة**

---

[1] الجميل، تكوين العرب...، ص 516.

قدّم الدكتور سيار الجميل العديد من التفسيرات للمنحى القومي المتطرف الذي تبنته تركيا الفتاة خاصة مواقفها السلبية تُجاه القوميات الأخرى المنضوية تحت سلطة الباب العالي، حاصة منها العنصر العربي وكان للمؤثرات الغربية السياسية والاقتصادية دور بارز وجلّي في تلك الانطباعات والأحكام القومية التي اطلقتها تركيا الفتاة. أنظر: الجميل، تكوين العرب...، ص 326-327.

[2] عبد الرحمن الكواكبي (1849- 1902م): مفكر سوري، ولد لأسرة مسلمة في حلب، اضطلع بمهمة إصلاح وضع الأمة الإسلامية، فاصطدم بالسلطة العثمانية. من أشهر مؤلفاته طبائع الاستبداد. أنظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 370.

[3] الجميل، تكوين العرب...، ص 502.

[4] عازوري، مصد سابق، ص 197. وأنظر أيضا الخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 30.

السماء عربية"[1]، وأنّ ادّعاء السلطان العثماني الخلافة هو اغتصاب للحق العربي فيها.

أدب الرحلات: مع انحسار الدولة العثمانية، وما رافق ذلك من تحولات سياسية واقتصادية في أوربا، افتُتِحت علاقة جديدة بين الشرق والغرب، صاغها تزايد الفضول الأوربي في معرفة الشرق، فازداد عدد الأوربيين الوافدين على بلاد الشام - كأصحاب رسالة تنويرية! - على شكل جماعات سياحية دينية لزيارة الأماكن المقدسة، وكذا لفهم طبيعة المجتمعات التي تسكن هذه المنطقة[2]. فكان القرن 13 هـ / 19 م فعلا قرن الرحلات بلا منازع، والتي شكلت حملة شرسة اتخذت من التأليف والتدوين سلاحا لها، يمهّد للتدخل الأجنبي.

وهكذا فإنّ عدد بالغ الكثرة من الكتاب وَفَدَ على بلاد الشام، وبدأ يتحدّث عنها ويصفها، ويعتمد آراء معينة عنها، رغبة في إعادة صياغتها وبنائها، ومن ثمّ إخضاعها والسيطرة عليها. وانصرفت جل كتابات هؤلاء الوافدين على اتهام

---

[1] عازوري، ص 209. وأنظر أيضا كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ، ص 126.
لنا الحق في هذا المضمار ان نتساءل عن التضخيم المقصود لتاريخ العرب قبل الإسلام، مقابل التهوين والتقليل من شأن الإسلام في رفع مكانة العرب، والدفع بهم إلى تصدُر الحضارة البشرية من جانب، والسعي الحثيث إلى استئصال كل ما له علاقة بجذور ثقافتنا الإسلامية وأصولها ليتمّ قطعها عن بيئتنا. وكذا عن مدى صحة ومعقولية مثل هذه الأفكار والإدعاءات التي جعلت من النبي (عليه الصلاة والسلام) والقرآن الكريم تعبيرات متقدمة عن القومية العربية! وأنها ثمرة خروج الجيوش من الجزيرة العربية للفتح.
لقد غاب عن هؤلاء أن الإسلام رسالة عالمية وليس دعوة قومية، وهي السمة الرئيسية لنبوة محمد (عليه الصلاة والسلام). كما تناسوا عن عَمد أنّ قريش العربية هي أول من أفصح عن العداء للنبي، فحاصرته وقاتلته وتآمرت عليه، فلو أنه كان يريد تزعُم حركة قومية لتجسيد أمانيهم في نهضة عربية لاتبعوه من اليوم الأول.
فلا يجب على من يختلق مثل هذه الأباطيل التلاعب بالتاريخ، لتشوية حقائقه الساطعة، خدمةً لمبدأ القومية الذي أثبتت الأيام، أنه لم ينجح سوى في جلب النكسات والخيبات، لأنه رابطة ضيّقة لا تصلح أبدا في ربط الإنسان بأخيه الإنسان، فهي قد تصلح في بيئة معينة تكون عالية التجانس عرقيا ولغويا وتاريخيا... وهذه الحالة نادرة الحدوث، إن لم نقل انها مستحيلة الوجود.

[2] حوراني، الفكر العربي... ص 367.

الإسلام، بأنه هو مصدر المشاكل التي تَضْطَرِمُ بين الطوائف، وأنّ الحل هو العقلانية الأوربية النصرانية[1].

خشِيت النخبة في أوربا من يقظة يكون دافعها الإسلام، ومن انتفاضة غير محسوبة لهذه الشعور لدى المسلمين، مما يمثل خطرا حضاريا، على الصعيدين الأخلاقي والعسكري، ولذا وجب التصدي له[2]، ولو عن طريق التلاعب بالحقائق التاريخية والواقع، فصارت تلك الدراسات مهيمنة على المشهد التاريخي، تستخدم الطائفية كأحد مفاتيح مشروع التفريق، وما يستتبعهُ من فرضٍ للسيادة والهيمنة.

جمعت تلك الكتابات قدرا كبيرا من المعلومات المغشوشة والباطلة عن تاريخ طوائف الشام، وعرض لوحة معقدة ومركبة، قاعتها اضطهاد مزعوم للنصارى في بلاد الشام[3]، وصوّرت جبل لبنان على أنه ملاذ جبلي، لا يعرف الخنوع أمام الاستبداد الإسلامي[4].

إنّ هذه المرويات هي من دفع هذه الطوائف إلى إعادة قراءة تاريخها وتأويله، وإعادة النظر في هويتها والتعريف الخاص بها، وقد صاحب تلك المرويات الطائفية

---

[1] المقدسي، مرجع سابق، ص 28.

[2] حوراني، الفكر العربي... ، ص 369.

ومن بين صور التزييف والتشويه المقصود لتاريخ طوائف بلاد الشام، هو أن بعض الرحالة الفرنسيين نسبوا الدروز الى أصول فرنسية، فهم وفق زعمهم من سلالة أحد قادة الحملات الصليبية الفرنسيين يسمى الكونت Dreux الذي بقيت سلالة في لبنان وظلت تحتمي بالجبال، والحجة التي ساقها هؤلاء لتبرير هذا الربط هو التشابه بين اسم الكونت Dreux واسم الدروز الذي يكتب بالفرنسية Druses. وأمّا الرحالة البريطانيون فقد صوروا الدروز على أنهم يُشبهون سكان المرتفعات الأسكتلندية. ووصل الأمر بهؤلاء الى الادعاء بأنّ الدروز أنفسهم كانوا يتفاخرون، بأن فرعا منهم كان قد عاش في هذه المرتفعات. أنظر:

Ernest Louet, Expédition de Syrie 1860-1861, Amyot Éditeur, Paris, 1862, p. 3 ; Conder, op.cit., p. 81.

[3] Jobin, op.cit., p. 166 ; Louet, op.cit., p. 3.

[4] المقدسي، مرجع سابق، ص ص 30-32.

تجييش روح التعصب وتصارع للهويات، وصعود كبير للطائفية، خصوصا لدى الجماعات التي تشعر بالغُبن التاريخي.

تلازمت هذه الكتابات المغلوطة، مع كتابات أخرى تتحدث عن خصائص كل طائفة وطبائعها، وتستجدي ولاءها، ولو عن طريق الإساءة إلى طوائف أخرى ارتمت في حماية الخصوم في أوربا. فالدروز مثلا في بعض الكتابات الفرنسية يظهرون في صورة الوثني والهمجي صاحب الطبيعة العدوانية، الذي يعشق الشجار والقتال ومتعطش للدماء، ويضطهد الموارنة الذين كان لهم الفضل في إيواء الدروز حين تعرّضوا للاضطهاد[1].

وفي نفس هذا الصعيد، تحدثت كتابات أخرى عن أن مصدر البربرية واللصُوصية هم العرب والأكراد، فهما يتصدران العنف المتأصّل، بينما تُثني نفس تلك الكتابات على الطوائف النصرانية، وعلى رأسها الموارنة[2] **"الذين يشكلون شعبا على حدة في الشرق، نكاد نقول جالية أوربية رُمِيت بالمصادفة في وسط الصحراء"**[3].

واجتهدت تلك الكتابات في البحث عن ماضي الطوائف في بلاد الشام ونزاعاتها التاريخية، وأيضا عن ما من شأنه أن يُعلي مكانة هذه الجماعات الدينية وما يربطها، بصورة أو بأخرى بالتاريخ الأوربي، لأنّ هذه الطوائف تعيش في عالم متخلف، مُحاط بالانحطاط والبربرية، وهو ما ساعد على ترسيخ الانشقاقات والمنازعات الطائفية والعرقية.

---

[1] Jobin, op.cit., p. 17; De Baudicour, op.cit., p. 9-10; Louet , op.cit., p. 3.

[2] Renan, op.cit., p. 114-115.

[3] نقلا عن أحد الرحالة الأوربيين في وصفه للموارنة. أنظر: كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية...، ص 44-45.

كما كتب أحد هؤلاء عن التعدّيات الدينية والاضطهاد المزمن، الذي يمارسه المُحمّدِيُون - يقصد المسلمين - في حق الطوائف الأخرى، وأنهم يقفون مانعا وعائقا أمام التخلص من صور التأخر والخمول، الذي لايزال غير المُحمّديين يعيشونه ويتأثرون به[1]، فتحوّل نصارى بلاد الشام في كتابات هؤلاء إلى ضحايا لطغيان السيطرة الإسلامية[2]، والتي تسببت في بحار من الدم النصراني[3].

والجدير بالذكر هنا، أنّ هذه الصورة المُغالية في التشويش والتزييف، والتحامل والرُؤية الخاطئة عن وضع بلاد الشام وطوائفها، التي رسمها هؤلاء الرحالة، كان لها أثر هائل وواضح على الرحالة اللاحقين، الذين راحوا يُعزّزون تلك الصورة، ويستشهدون بكتابات أسلافهم، ويرددون ما وَرَدَ فيها من تزييف، من دون أن يُكلّفوا أنفسهم فحصها وتمحيصها. ومع الوقت ترسّخت هذه الصورة في الذهنية الأوربية، وبات الاستعمار في نظر هؤلاء، عملا تنويريا وإنسانيا ضروريا.

2- التدخلات الطائفية الخارجية.

كانت بلاد الشام خلال القرن 13 هـ / 19 م أحد أهم محاور اهتمامات السياسة الأوربية، فقد أدركت دول أوربا أهمية الولاءات والانتماءات الطائفية في مجتمع تُميّزُ تركيبته السكانية التعدد والتنوع، فسعت كلٌ منها إلى وضع قدمٍ لها في الساحة الشامية عبر تولّي حماية طائفة معينة. فالأطماع الاستعمارية جعلت من الطائفية عامل تفجير داخل السلطنة.

لقد كانت المنطلقات والمُبتغيات الأساسية لتلك التدخلات، التي مارستها القوى الكبرى، قراءة طائفية مُغرضة لمجتمع بلاد الشام، هدفها تفجير الوضع الطائفي،

[1] تشرشل، مصدر سابق، ص 11.

[2] المقدسي، مرجع سابق، ص 30.

[3] Dentu, op.cit., p. 8.

لكي يستمر بأي معنى، وبأي ثمن، حتى ولو ادّى ذلك إلى التضحية بمصالح الطوائف التي تمت حمايتها[1].

يعود تاريخ الولاءات والارتباطات الطائفية للقوى الخارجية في بلاد الشام إلى عهد الحروب الصليبية التي كان مبتغاها تحرير القدس من سيطرة المسلمين، حيث كان الموارنة الأكثر ميلا، من بين نصارى الشرق لهذه الحملات، وقدّموا لها يد المساعدة[2]، فشاركوا بقوة خلال الحملة الأولى في اقتحام القدس، ولرد الجميل، أقرّ لهم الفرنسيون بحقهم في حمايتها[3].

وعندما قاد لويس التاسع[4] الحملة الصليبية على مصر، احتشد جيش من الموارنة في قبرص... وبعد هزيمته وأسره، ثم إطلاق سراحه، بعث برسالة إلى الموارنة في جبل لبنان في 17 صفر 648 هـ / 21 ماي 1250 م، يلتزم فيها بتوفير الحماية للموارنة، كما يوفرها للفرنسيين أنفسهم[5]. ولقد تمسّك ملوك فرنسا بهذه الروابط التي كانت تشُدّهُم للموارنة عبر مختلف المراحل التاريخية.

وخلال الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت على بلاد الشام، زارهُ وفد من الموارنة في فلسطين عام 1213 هـ / 1799 م ليعبروا له عن التأييد ووقوفهم إلى جانبه، حيث أكّد بونابرت التزام فرنسا التاريخي برعاية مصالح الموارنة، والدفاع عنهم قائلا: **" أعرف أنكم فرنسيون منذ أقدم العصور"**[6]. بينما وقف الدروز ضد

---

[1] مشاقة، مصدر سابق، ص 154.أبو نهرا، مرجع سابق، ص ص 1-45.

[2] ابكاريوس، مصدر سابق، ص 35.

[3] فغالي، مرجع سابق، ص 48.

[4] لويس التاسع (1214-1270 م): ملك فرنسا خلال الفترة (1226-1270 م). قاد الحملة الصليبية السابعة عام 1248 م، أُسر في المنصورة بمصر عام 1250 م، وحين أطلق سراحه عاد لفرنسا لتجهيز حملة أخرى، لكنه مات بالطاعون. أنظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 394.

[5] فغالي، مرجع سابق، ص 50.

[6] كمال ديب، هذا الجسر العتيق، سقوط لبنان المسيحي، ط 1، دار النهار، بيروت، 2008، ص 72.

هذه الحملة خوفا من سيطرة بونابرت على مقاطعاتهم، وبذلك وقفت الطائفتان موقفين متناقضين من هذا الحدث العظيم.

وحين اعتبرت فرنسا نفسها حامية النصارى الكاثوليك في الشرق[1]، جرى العُرف والتقليد على اعتبار التحالف الماروني الفرنسي في غاية العراقة، حتى أنه أُطلق على الموارنة اسم فرنسيو الشرق[2]. وأصبح الفرنسيون يُحيون هذا التقليد القديم، كلّما احتاجوا إلى موطئ قدم في المنطقة.

ونحن لا نعلّق على ما قدّمناه بخصوص العلاقات الفرنسية المارونية، وإنّما نترك الحديث لأحد رجال الدين الموارنة الذي عبّر عن هذا الارتباط بقوله: **"...وفي سوريا بلد يسمى فرنسا الثانية، وشعب يُعرف بفرنساوي الشرق، وهذا الشعب هو موارنة لبنان"[3]**، فكانت فرنسا بالنسبة للموارنة هي الأم الحنون[4].

امتدّت تلك الارتباطات الخارجية لتشمل، ليس فقط الدول الأوربية الكبرى، بل كل دول أوربا بوجه عام[5]. وبذلك انسحب الوضع الماروني على بقية الأقليات الدينية في بلاد الشام، الأمر الذي جعل كل طائفة ترتبط بشكل رسمي بدولة من الدول المتنافسة في بلاد الشام. ثم أخذت هذه الأخيرة تُحرّض الطوائف وتُغريها بالانفصال، عن طريق إضعاف الانتماء العثماني[6].

غدى الموارنة، بفعل هذا الارتباط، يُصلُون لنصرة فرنسا، والروم الأرثوذكس يُصلُون لنصرة روسيا[7]. وحَيَال هذا النشاط، عززت بريطانيا علاقاتها هي الأخرى بالدروز. فمنذ أنْ بدأت بريطانيا بإرسال المبشرين البروتستانت مع بداية القرن

---

[1] تشرشل، مصدر سابق، ص 18-19. وأنظر أيضا أبو نهرا، ص ص 1-45.

[2] Jobin, op.cit., p. 25.

[3] ابكاريوس، مصدر سابق، ص 38.

[4] حكمت البير الحداد، لبنان الكبير، ط 3، دار نظير عبود، د.م.ن، 1996، ص 38.

[5] حوراني، الفكر العربي... ص 304.

[6] الصائغ، مرجع سابق، ص ص 1-41.

[7] أبو نهرا، مرجع سابق، ص ص 1-45.

13 هـ/ 19 م، اعترضت نشاطها الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية بسبب الخلافات المذهبية.

لم تجد بريطانيا، المُنافحة عن البروتستانتية، بُدا من محاولة جذب الدروز صوب سياستها ومذهبها الديني[1]، والاهتمام بهم ودعمهم، بعد اصطدامها بالنصارى من المذاهب الأخرى[2]، وفشلها في تحويل الموارنة إلى قاعدة تعتمد عليها في المنطقة. ولهذا الغرض عقد تفاهم بريطاني درزي عام 1256هـ / 1841 م، أهم ما نصّ عليه حماية بريطانيا للدروز[3]، فأصبح قناصلها يتدخلون في القضايا التي تتعلق بشؤون هذه الطائفة[4].

ومع مطلع القرن 13 هـ / 19 م، ارتقت الجماعات النصرانية في المجال التجاري، نتيجة الحماية التي حصلت عليها من قناصل دول أوربا. حيث منحت هذه الحماية امتيازات خاصة للتجار النصارى، مثل دفع ضرائب أقل من تلك التي يدفعها التجار المسلمون على نشاط التصدير والاستيراد[5]، والإغداق عليها بالمال الذي كان إحدى النوافذ الواسعة للتدخل الأجنبي[6].

كما استخدمت فرنسا، وغيرها من دول أوربا المصالح التجارية لدعم الأقليات، فتغلغلت في البلاد بقصد التفتيت، حيث سيطرت شركاتها على صناعة الحرير، التي كانت توظف الموارنة والروم الأرثوذكس والكاثوليك والدروز[7].

---

[1] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 477.
[2] أبو نهرا، ص ص 1-45.
[3] الصائغ، ص 1-41. وأنظر أيضا
Moutran, op.cit., p. 58.
[4] أبو شقرا، مصدر سابق، ص 45.
[5] الأتاسي، مرجع سابق، ص 24.
[6] تشرشل، مصدر سابق، ص 15. وأنظر أيضا مكاريوس، مصدر سابق، ص 75. وكذلك التميمي وبهجت، مرجع سابق، ص 23.
[7] الأتاسي، ص 49.

وفي جانب آخر استخدمت فرنسا المِنح الدراسية، التي كانت تمنحها لأبناء الطوائف النصرانية الشرقية للدراسة في باريس، ليكونوا بعد ذلك قناصل ووُكَلاء قناصل، ومترجمين، خاصة من الموارنة[1]. وبالتالي أخذت الهوة تتوسّع وتتعمّق بين هذه الطوائف لصالح الطائفية.

وكانت هذه الهيمنة تتطور مع تزايد ضعف الدولة العثمانية، وخُمول أجهزتها الإدارية، إلى الحدّ الذي أصبح فيه تُجار أوربا مع قنصلياتهم يشكلون جاليات قوية لها من القوة ما يفوق تلك التي بيد السلطات الرسمية المحلية[2]. وكان من بين ضحايا هذه الصراعات والولاءات المسلمون السُنّة، الذين لم يكن لهم ولاءات خارجية[3]، فلم يجدوا أمامهم سوى البقاء على تأييدهم للسلطنة العثمانية، كما سبقت الإشارة إليه.

لم تكتف الدول الأوربية بالتأييد السياسي للطوائف في بلاد الشام، بل تعدّته إلى تأييد كل ما شأنه الإخلال بالتعايش الطائفي. فقد باركت فرنسا الحملة المصرية على بلاد الشام وأيّدتها وشجعتها في بدايتها[4]، للتشويش على بريطانيا من خلال وضع الحواجز في طريقها للهند. لكنها تخلّت عنها والتزمت بأن لا يكون لمصر نهج سياسي مستقل عن الدولة العثمانية، بما قد يحقق مصالح روسيا في المنطقة[5].

كما يمكن أيضا تبرير تبدل سياسة فرنسا تجاه نوايا محمد علي في بلاد الشام إلى انشغالها بالتوسع الاستعماري في الجزائر، وما كان يُلاقيه من مقاومة. وبذلك خسرت فرنسا اللعبة السياسية - ولو مؤقتا - التي كانت جارية في هذه المنطقة بخسارة المشروع المصري، وإفشاله بضغط أوربي تزعمته بريطانيا.

---

[1] الحداد، مرجع سابق، ص 25. وأنظر أيضا فغالي، مرجع سابق، ص 53.

[2] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 42-43.

[3] ابكاريوس، مصدر سابق، ص 46.

[4] مشاقة، مصدر سابق، ص 137. وأنظر أيضا

Dentu, op.cit., p. 7.

[5] مشاقة، ص 137.وأنظر أيضا ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 22-23. وكذلك الجميل، تكوين العرب...ص 335.

وأما بريطانيا فقد رأت في استمرار الحكم العثماني في بلاد الشام أفضل من أن تكون تحت سلطة دولة مصرية فتية قوية تهدد مصالحها في الهند[1]، فسياسة المحافظة على الدولة العثمانية التي انتهجتها بريطانيا، لم تكن سياسة ثابتة ومستقرة، بل كانت مرتبطة بمدى حاجتها لذلك، والظروف المحيطة بها.

ولهذا الغرض أرسلت بريطانيا أسطولها إلى بلاد الشام لإجبار المصريين على التقيُد بما ورد في مؤتمر لندن، وبما يفضي إلى الانسحاب[2]. ولقد كان لهذه التناقضات السياسية الدولية وقْعَها على مجتمع الطوائف وخلافاته، والولاءات المتباينة فيه، لا سيما النصارى، الذين وجدوا أنفسهم في دائرة هذه الصراعات وصميمها[3].

بعد الاعتداءات التي طالت النصارى في عام 1276هـ / 1860 م، برز التدخل العسكري كأبرز العوامل والمسببات للمشكلة الطائفية. حيث أرسلت فرنسا جيشها الى بلاد الشام للوقوف إلى جانب النصارى[4].

وعلى إثر هذا التدخل في أرض عثمانية، بدأت السياسة الفرنسية تتجه صوب بلورة فكرتها القديمة في إقامة كيان خاص بالنصارى، يكون تحت إدارتهم. وهو ما تؤكده مراسلة وزارة الخارجية الفرنسية إلى ممثليها في الدولة الأوربية الكبرى، تحثهم فيها على شرح خططها في هذا الاتجاه[5].

---

[1] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 22-23.

[2] الدبس، ج 8، مصدر سابق، ص 178-179.

[3] ابكاريوس، مصدر سابق، ص 45. وأنظر أيضا أبو نهرا، مرجع سابق، ص ص 1-45.

[4] مشاقة، مصدر سابق، ص 186-187. وأنظر أيضا الخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 26. وكذلك فغالي، ص 51.

[5] le ministre des affaires étrangères aux representants de l'empereur a londres, vienne, saint petersburg et berlin, Documents diplomatiques communiqués par le gouvernement français au Sénat et au corps législatif a l'ouverture de la session de 1862, Ministère des affaires étrangères, Amyot Éditeur, Paris, 2 Avril 1861, pp.220-227.

مع بدايات القرن 13 هـ / 19 م بدأ كل شيء يتغير في بلاد الشام، إذ تبلورت صور وأشكال جديدة للروابط، مُعززة ببداية تدفق الأجانب كرُسل للحضارة - كما زعموا - وما سطروه في مؤلفاتهم من دسٍ وتلفيق حول طوائف بلاد الشام، غرضُهُ الكبير توسيع الشقة بينها، ثمّ إبراز مظلومية نصارى الشرق وتداولها بين القوى الكبرى، وما استتبع ذلك من تدخلات ومنازعات مهّدت لتفجير الأزمات الطائفية.

لقد أضحى تدخل الدول الأوربية لحماية الطوائف في المنطقة يتمُ بشكل مباشر فَبَسطَت فرنسا حمايتها على الموارنة، ودخل الدروز في حماية بريطانيا، والروم الأرثوذكس في حماية روسيا، والروم الكاثوليك تأرجحوا بين الحماية الفرنسية والنمساوية، وبقي المسلمون مُوالون للباب العالي، وتحت سلطته.

كما شهدت هذه المرحلة من تاريخ بلاد الشام ازدياد الثروة والنفوذ والمستوى الثقافي لدى الطوائف النصرانية، وما نتج عنه من استتباع لقوى الخارج، فاشتد شعورهم الديني الطائفي، لا سيما وأن هذا القرن شهد تشكل التمركز السكاني الطائفي بفعل التقسيمات الإدارية المفروضة على الباب العالي، وأخذ هوية ثابتة ومحددة، لترتسم معه الخريطة الطائفية في بلاد الشام، وتبدأ معالم مستقبله في التشكل.

=يجب أن نشير هنا إلى الثناء الذي ورد في المراسلة في حق الموارنة، والتي وصفت تضحياتهم وصمودهم في وجه أحداث الشغب والغضب التي كان يفجرها الدروز والمتاولة والمسلمين، رغم أكثريتهم العددية. وأطْرَت على ارتباطهم بأصولهم وتعلقهم بأرضهم.

كما أوردت المراسلة تعداد السكان في لبنان منفصلا عن سوريا، فقدّرت عدد المسيحيين بـ 200.000 نسمة، والدروز 25000 نسمة، والمسلمون بكل مذاهبهم أقل من 17000 نسمة، وشددت المراسلة على ضرورة أخذ هذا الإحصاء بعين الاعتبار، و انه يستوجب على القوى الكبرى أن تعمل ما بوسعها للمحافظة على النصارى، عن طريق تمكينهم من القوة لحماية أنفسهم.

ويبدو أنّ هذا الإحصاء والتعداد كان مدخلا لتصنيف وترتيب الطوائف، قصْدُهُ جرّ الطوائف من حالتها الطبيعية إلى الصبغة السياسية، عن طريق تجنيد المشاعر تجاه الجماعة العددية. ولهذا اولت المراسلة أهمية بالغة للإحصاء، كآلة لخلق تنظيم جديد أساسه طائفي.

الفـَصلُ الثَّالِث

آثَارُ الطَّائِفِيَةِ عَلَى الدّولَةِ العُثمَانِيَة وَبِلَادِ الشَّام

المبحث الأول: آثار الطائفية على الدولة العثمانية.

1- صعود الطائفية، وإنشاء لبنان الكبير.
2- مواقف الطوائف من لبنان الكبير.

المبحث الثاني: آثار الطائفية على بلاد الشام.

1- المجازر الطائفية.
2- الدويلات الطائفية.

إنّ التصدي لدراسة انعكاسات الطائفية على الدولة العثمانية، وبلاد الشام والخوض في الصراعات الدامية التي انجرّت إليها طوائف هذه البلاد، يتطلب التقيُد بموضوعية البحث وسلامة النوايا، والكثير من الحذر والحيطة في رواية تاريخ تلك الصراعات، وهذا نتيجة تنوع واختلاف الدراسات التي تناولت الموضوع، وكذا الآراء التي أوردها المؤرخون والباحثون في هذا الصعيد.

إنّ معالجة مثل هذه المواضيع يعتبر من النشاطات غير البريئة، فهي غالبا ما تُثير الريبة والشك. فَبَيْنَ مُناصرٍ ومتحمسٍ لطائفة بعينها، وآخر جاحد مُتحايل ضد أخرى، فلكل طرفٍ منطلقاته الدينية والفكرية والتاريخية، وأيضا الأهواء السياسية التي يُقيّمُ علي ضوئها مواقفه، ويبنى وِفْقَها نِيَّاتِه ومَقاصِده.

وفي وسط هذا الرّكام الهائل من الاختلافات والمتناقضات، يحتاج الباحث إلى بصيرة ثاقبة، وقدرة مُميزة على التمحيص والفحص الدقيق للمادة التاريخية المرتبطة بهذا االصّعيد. هذا زيادة على التجرُد من الذاتية، والعصبية العمياء التي تجعل الباحث يؤول إلى فرد وعنصر من هذه الطائفة أو تلك، ينظر إلى الأحداث من منظارها وعينها.

إنّ ما يجب التنويه إليه، هو أنّ هذه الفترة شهدت تغيرات أساسية في أوضاع الطوائف والأوضاع السكانية، إذ تبلورَ وضع الطوائف ومحالَ توطُنها، وتصاعد المد الطائفي ممّا زاد في ارتباك سياسات الدولة العثمانية في بلاد الشام، وقوّض أسس التعايش الطائفي.

وتزامن هذا الارتباك مع تدخل القوى الخارجية في شؤونها، وفي أحوال الطوائف عن طرق إذكاء الخصومات بينها، ممّا زاد من ضراوة التناقضات الطائفية. فكانت السلطة كلما أرادت تنظيم شؤون إقليمها وطوائفه بما يحقق الأمن والاستقرار، ويُخمد الفتن التي كانت تندلع بين الفينة والأخرى، ويعيد السكينة بين

الجماعات الدينية، فهي وحدها من كان يعرف المنطقة ومكوناتها وتستطيع إصلاح أحوالها على النحو الصحيح... تقوم هذه الدول بتهديدها بقطع العلاقات السياسية وسحب السفراء تارة، وإرسال الأساطيل إلى السواحل تارة أخرى.

وفي عام 1332هـ / 1914 م انخرطت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، وأثناء هذه المواجهة أكملت الدولة الاستعمارية تفكيك وتقسيم ما تبقّى من تركة الرجل المريض، وتمّ ذلك من خلال اتفاقية سايكس -بيكو 1334هـ / 1916 م[1]، التي نصّت على توزيع البلاد العربية بينهما. وكانت هذه هي الفرصة التي انتظرتها فرنسا منذ أمد، لوضع يدها على جبل لبنان، ليكون مركزا لها، معتمدة على ما لها من حُظوة دينية وسياسية واقتصادية فيه.

وتزامنا مع ذلك، قدّمت الدول الاستعمارية الكثير من الوعود المتناقضة للعرب مقابل نيل دعمهم، فأعلن الشريف حسين بن علي[2]، شريف مكة، الحرب ضد العثمانيين. وفي عام 1336 هـ / 1917 م أصدرت بريطانيا وعد بلفور[3] لليهود الخاص بفلسطين.

انتهت هذه الحرب بعقد مؤتمر الصلح في باريس. وبعد خروج العثمانيين من سوريا في ذو الحجة 1336 هـ / سبتمبر 1918 م، دخل الأمير فيصل بن الحسين[4] إلى دمشق، وشكّل حكومة عربية في مُحرم 1337 هـ / أكتوبر 1918 م، ورفع العلم العربي فوق الإدارات.

---

[1] اتفاقية سايكس-بيكو: تُنسب إلى واضعَيْها، الفرنسي جورج بيكو، والبريطاني مارك سايكس.

[2] الشريف حسين بن علي (1853-1931 م): شريف مكة في الفترة (1908-1916 م). أعلن الثورة العربية على العثمانيين عام 1916 م، خلال الحرب العالمية الأولى. ولمّا هزمه آل سعود، لجأ إلى قبرص. أنظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 172.

[3] بلفور: يُنسب الوعد إلى وزير خارجية بريطانيا جيمس آرثر بلفور.

[4] فيصل بن الشريف حسين (1885-1933 م): هو ملك سوريا عام 1920 م، وبعد أن طردته فرنسا من دمشق، عينته بريطانيا ملكا على العراق (1921-1933 م). لعب دورا كبيرا في الثورة العربية 1916 م. أنظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 339.

1- صعود الطائفية، وإنشاء لبنان الكبير.

تعتبر قضية إنشاء لبنان المستقل من أبرز المسائل في تاريخ الطوائف في بلاد الشام، فقد تشابكت فيها المصالح الطائفية الداخلية مع مصالح القوى الأجنبية التي كان لها الأثر الجلي في كل الاختيارات الخاصة بكل طائفة، وتتحكم فيها بما يتماشى مع ما رُسم من مخططات للتقسيم والتفتيت، لا سيما في ظل الظروف الدولية التي بدأت مع القرن العشرين، وفي مقدمتها الحرب العالمية الأولى.

إن المفاصل التاريخية في تشكيل لبنان ليست وليدة الحقب الأخيرة من تاريخ بلاد الشام خلال الحكم العثماني، بل إنها تعود إلى فترات مُوغلة وضاربة في الماضي، مرتبطة ارتباطا متينا بوضعية جبل لبنان عبر مختلف الحقب الزمنية التي تعاقبت على هذه البقعة. فرغبة الدول الكبرى في تكوين كيان وطني للنصارى في بلاد الشام، مشروع قديم[1]. ولذلك يجوز لنا أن نشدّد على أنّ جبل لبنان سيكون له الدور الأول في نشوء الكيان اللبناني.

ترافق الاضطهاد الذي تقلّب فيه الموارنة منذ انتقالهم المذهبي، وما انجرّ عنه من خلافات دينية حادة مع البيزنطيين، مع حركة نزوح كبيرة لهم نحو جبل لبنان[2]. وجعلت منهم طبيعته الوعرة، جماعة دينية ذات كيان مستقل ومنعزل عن سائر الطوائف، التي كانت تسكن في جِوار الجبل، فانطوى هؤلاء في جبلهم لضمان سلامتهم وصيانة عقائدهم، وليكونوا فيه القوة السكانية الأولى من حيث العدد[3]. فليس من الغريب أن تكون هذه الطائفة، هي رأس الحربة في صياغة مشروع لبنان الكبير والدفاع عنه، سعيا إلى تجسيد وجودها التاريخي بكل خصوصياته.

---

[1] Nadine Picaudou, La déchirure libanaise, Editions Complexe, Bruxelles, 1989, p 57.

[2] منير إسماعيل، التحولات السياسية في مجتمع الإمارة الشهابية 1697-1842، في المؤتمر الأول للجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية، ط 1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، 1996، ص 86.

[3] ديب، مرجع سابق، ص 68.

غداة الفتح العثماني لبلاد الشام، واجه العثمانيون صعوبات كبيرة في إخضاع الدروز والسيطرة عليهم، فأقرّ السلطان العثماني سليم الأول أمير المعنيين[1] فخرالدين الأول الدرزي حاكما على جبل لبنان[2]، وبعد سقوط حكمهم تولى الشهابيون السلطة في الجبل سنة 1109 هـ / 1697[3]، ثمّ أصبح أميره مارونيا منذ 1770 م حتى 1843 م[4].

ومع بداية حكم الشهابيين، ساءت العلاقة مع سكان الجبل من الدروز الذين اضطرت جماعات منهم إلى النزوح، فقلّ عددهم، مقابل ازدياد أعداد الموارنة[5] مع تشجيع الأمير بشير الشهابي، الذي تولى حكم الجبل في 1202 هـ / 1788 م، لنصارى الشام على الهجرة صوب الجبل[6] بعد أن تَنَصُّر قِسم من الأسرة الشهابية[7].

---

[1] المعنيون: أسرة عربية درزية استقرت في جبل لبنان خلال العهد العباسي لمواجهة الحملات الصليبية. أنظر: طنوس الشدياق، مصدر سابق، ص 235.

[2] يوسف السودا، تاريخ لبنان الحضاري، ط 1، دار النهار للنشر، بيروت، 1972، ص 15.

[3] منير اسماعيل، ص 6.

[4] ديب، ص 68.

[5] منير اسماعيل، مرجع سابق، ص 91.

[6] ديب، مرجع سابق، ص 74.

[7] بدأت حركة التنصّر هذه عند نساء الأسرة الشهابية سنة 1707 م، ثمّ التحق العديد من الأمراء الشهابيين بها، وأيضا عدد قليل من الأمراء اللّمعيين الدروز. وقد نتج عن هذا الأمر ترجيح كفة الموارنة بشكل حاسم في جبل لبنان. ففي عام 1770 م تسلّم أول أمير نصراني مقاليد الحكم في الجبل. ويعود هذا التحول الديني من الإسلام السني إلى النصرانية على المذهب الماروني إلى رغبة الشهابيين في استمرار ولايتهم على هذه المنطقة التي يغلب عليها الموارنة، الذين كانوا سندهم وعماد حكمهم. فالمسلمون السنة كان عددهم قليل جدا في الجبل، ولا يمكن الاعتماد عليهم في استمرار الحكم في أيديهم.
وأما الدروز، فإنه بحكم طبيعة عقيدتهم المنغلقة، فهي لا تسمح لمن هو خارج الطائفة بأن يكون درزيا فلم يلجأ الأمراء الشهابيون إلى التحول إلى العقيدة الدرزية. فالهدف الوحيد من التحول إلى النصرانية هو أن يظل الحكم في الجبل بأيدي الأسرة الشهابية مهما كانت الظروف. ولهذا نجد أن الأمراء المتنصرين مارسوا التقية، وتظاهروا بالإسلام وتستّروا على نصرانيتهم، لأنّ السلطة العثمانية كانت تفرض أن يكون الحاكم في الأقاليم العثمانية مسلما على مذهب أهل السنة. أنظر: منير اسماعيل، مرجع سابق، ص ص 92-94. وأيضا أبو نهرا، مرجع سابق، ص ص 24-26.

فتعاظمت روح استقلال الجبل، وبدأت النزعة الانفصالية تسود فيه[1]. ثم امتدّت هذه الرغبة في بناء كيان نصراني مستقل عن بيئته وصولا إلى القرن 13 هـ / 19 م.

لم تكن الدسائس الخارجية بعيدة عن مشاعر القومية اللبنانية التي ولدت وتسرّبت إلى الجبل. فقد أضافت الحفريات الأثرية التي قام بها علماء فرنسيون، ثمّ أثريون لبنانيون نصارى، في مدن لبنانية مقوِما جديدا إلى ما أصبح يعرف بالقومية اللبنانية[2].

كان الهدف الخاص لهذه الحفريات هو تقوية النظرية القائلة بأنّ قاعدة لبنان الحضارية والتاريخية هي الحضارة الفينيقية، والكنيسة المارونية هي كنيسة لبنان وشجرة الأرز شعار كهنتها، ولهذا فجبل لبنان لا تربطه أيّ صلة بالبيئة الشرقية[3].

---

[1] جودت باشا، مصدر سابق، ص 349-350.

[2] ديب، مرجع سابق، ص 68.

[3] نفسه، ص 68.

لم يكن لبنان عبر تاريخه سوى قطعة لصيقة ببلاد الشام، لا يمكن أن تنفصل عنها، ولا أن تتجزأ منها ولا أن تتميز عنها تاريخا وحضارة. فهو بحكم موقعه كان عبر تاريخه ممرا للوافدين والغزاة أو مستقرا لهم، كما كان عرضة للموجات البشرية التي زحفت إليه على غرار كل بلاد الشام، وهو ما سُقناه في فصل سابق. ولذا لا يمكن تدوين تاريخه بمعزل عن محيطه.

زيادة على ذلك، فكلمة لبنان لم يكن لها أدنى حضور سياسي أو جغرافي إلا بعد أن امتلك الجبل استقلاله الإداري، تحت اسم المتصرفية. وكذلك لم يعرف لبنان الاستقلال منذ بداية التاريخ فيه، بل كان على الدوام خاضعا لسلطة الدول التي تعاقبت على حكمه - وهو ما سبق عرضه في الفصل الأول من موضوعنا - أو ممرا لتنقلات الأمم والشعوب بين الشرق والغرب، والتي آثر بعضها الاستقرار فيه، بما فيهم الفينيقيون الذين تحوّلوا إلى المرجع الحضاري الوحيد والأساسي للنخب النصرانية، وحجر الزاوية في المسارات التاريخية التي تمّ اختراعها، تارة بالتضخيم والتهويل، وتارة بالتحريف والتدليس.

إن احتكار التاريخ الفينيقي وحضارته من طرف قسم من طوائف الشام، وتحويله إلى ميراث مرتبط بجزء من أرضها المتمثل في جبل لبنان، والذي كان أصلا تسمية تطلق على المناطق التي يتواجد فيها الموارنة، هو مجرد أزعُومات واختلاقات لا سند تاريخي لها. ففي عهد الفينيقيين كانت الأرض مقسومة بين دويلات متنافرة، ولم تعرف أرض لبنان دولة لها تاريخ معزول ومنفصل عن بلاد الشام، وكذا بالنسبة لكل المراحل التي تلت الحقبة الفينيقية، وهو ما ذكرناه واستعرضناه في فصل سابق.

إنّ الشيء الغريب الذي وقفنا عليه في الكتابات التي دونها مؤرخون نصارى سكنتهم الطائفية واستَلَبتهُم، وهم كُثُر، أنها حاولت جهدها إثبات أزلية لبنان وخلق تاريخ جديد، بمعالم واهية، رسموها لتكون مرتكزات خاصة بهم، وعلى مقاس كل تلك الآمال والتطلعات التي تشبثت بها الطوائف

ومن جهة أخرى، رافقت حركة الاتصالات التي كانت آخذة في التزايد بين الموارنة والقوى الخارجية، وفي مقدمتها فرنسا في ضعف الارتباط بالدولة العثمانية وفي نمو شخصية نصرانية مستقلة عن مجموع السكان في بلاد الشام. وقد كان للمدارس الأجنبية والمنح الدراسية التي خُصَّ بها الموارنة دون غيرهم في نمو هذا الشعور المتحمس لتشكيل كيان لبناني مستقل.

في جانب آخر، كانت الكنيسة المارونية تستغل خوف النصارى من المحيط الإسلامي بعد الأحداث الانتقامية التي تلت انسحاب المصريين من بلاد الشام، في بسط نفوذها على الجبل، مستفيدة من القوة الاقتصادية الضخمة التي غَدَت تملكها. فأصبح الموارنة مرتبطون بها دينيا واقتصاديا، وتحوّلت مع الزمن إلى الناطقة باسمهم، وبذلك حوّلت المجتمع الماروني إلى كيان يعيش ضمن دائرة معزولة دينيا وفكريا وجغرافيا. كما متنّت الكنيسة تحالفها مع فرنسا إلى الحدّ الذي أبانت عن رغبتها في إقامة دولة مارونية تحت حماية فرنسا.

لقد كان للبطريرك عبر تاريخ الموارنة دور التوجيه والقيادة، فهو أحد أهم عوامل ثبات الموارنة في الجبل وتماسكهم الاجتماعي، فلم يكن يملك السلطة الدينية

= النصرانية وعلى رأسها الموارنة، منذ أن دبّ الضعف في الدولة العثمانية، وبداية تواصل القوى الخارجية مع بلاد الشام، وتركيزها على الأقليات لتفجير هذه الدولة من الداخل. فقد قام هؤلاء بتجيير تاريخ بلاد الشام سياسيا لتقوية ودعم النظرية القائلة بانّ لبنان لم يكن سوى ولادة وانبعاث لفينيقيا القديمة.

لقد أعطى هؤلاء المؤرخون التاريخ هيئة وشكلا بعيديَن عن الوقائع التاريخية ومُنعطفاتها، وأضفوا على النصارى وبالخصوص الموارنة خصائص وقِيم تُميزهم عن سائر الطوائف، واعتبروا غيرهم أقواما طارئة على هذه الأرض.
كما ابتكر هؤلاء تاريخا غاصا وطافحا باضطهاد مُورس ضد طوائف بعينها، وأهمها الموارنة. وكان الهدف من تزوير الحقائق التاريخية هو تحقيق أهداف سياسية واستدرار العطف الخارجي. ولهؤلاء عشرات الكتب في هذه المواضيع، ولا مجال هنا لتعدادها، إذ يكفي للوقوف على بعض صور المرويات الطائفية، وذلك التهويل الذي يصب في تاريخ مُوجّه وخاص بالطائفة المارونية دون سواها، مراجعة على سبيل المثال: الحداد، مرجع سابق، ص ص 96-113. وأنظر أيضا السودا، مرجع سابق، ص 13 وما يليها.

فحسب، بل جمع إليها القيادة الزمنية[1]. وأمّا من حيث ازدهار المجتمع الماروني في الجبل، فهو ناتج عن الاستثمارات الفرنسية في صناعة الحرير، والمعتمدة على تربية الشرانق في مزارع التوت، فقد كانت هي الصناعة الكبرى في لبنان[2].

لم تكن الطائفية الدينية بعيدة عن ايقاظ الوعي السياسي لدى نصارى الشام الذين تلقوا تعليمهم وثقافتهم من مدراس الارساليات، في ضرورة تكوين مجتمع نصراني خاص ينتمون إليه، فولدت فكرة لبنان المستقل، لا سيما وأنّ الموارنة كانوا أوسع الطوائف انتشارا فيه[3] ليكون مركز نصرانيةٍ حرّة، تحت رعاية وحماية دولة أوربية كاثوليكية[4].

بعد أحداث 1256 هـ / 1840 م الطائفية، حدثت تغيرات هائلة في جبل لبنان، حيث أعطى التنظيم الإداري الجديد ما يشبه الاستقلال للجبل، وأدت الى توسع نطاق الشعور بالوطنية اللبنانية، مدعوما بزيادة طغيان سلطة البطريركية ونفوذها، وكان هذا التنظيم الجديد ممّا أيقظ النعرة الطائفية على وجه أكمل.

لقد أضحت الكنيسة المارونية تلعب دورا أساسيا ورئيسيا، ومعها أضحى البطريرك رمزا للشخصية المسيحية. فطالبت الكنيسة بإقامة دولة نصرانية تحت وصاية فرنسية، للتخلص من الهيمنة الإسلامية ولبّت فرنسا الطلب، وطرحت

---

[1] الحداد، مرجع سابق، ص 96.

[2] محمد كرد علي، ج 4، مصدر سابق، ص 207. وأنظر أيضا فغالي، مرجع سابق، وكذلك ديب مرجع سابق، ص 74. وكذلك

Carol Hakim, The Origins of the Lebanese National Idea*: 1840–192*, The University of California, California, 2013, p. 24.

[3] الصليبي، مرجع سابق، ص 20.

[4] حوراني، الفكر العربي...ص 328.

مشاريعا في هذا المضمار[1]، إلا أنها اصطدمت بالمواقف البريطانية المعارضة، مثلما سنرى.

منذ عام 1277 هـ / 1861 م حصل جبل لبنان على أنظمة جديدة لإدارته حوّلت استقلال لبنان من حلم إلى حقيقة وواقع، بعد أن أصبح مستقلا بذاته، بأكثرية نصرانية على إثر اتفاق دولي[2] ترتّبَ عن مؤتمر عُقد في بيروت بمبادرة فرنسية في 1276 هـ / سبتمبر 1860 م لأجل تحقيق السلام بين طوائف الجبل بعد الأحداث التي وقعت في هذه السنة[3].

وكانت أهم قرارت المؤتمر: تعيين موظف عثماني نصراني كاثوليكي غير لبناني حاكما للجبل لمدة خمس سنوات، يعرف باسم المتصرف، يُعَيّنه الباب العالي ويحظى بموافقة القوى الكبرى[4]. كما تمّ فصل بيروت وصيدا ووادي التيم وشرقي البقاع من الجبل[5].

وإلى جانب ذلك، التزمت السلطة العثمانية بسحب مراكز جيشها من الجبل، وتعويضها بفِرق للدرك من أبناء المنطقة، وإبطال الخدمة العسكرية فيه، وإعفاء سكانه من دفع الضرائب للسلطة العثمانية[6]. وبقي الحكم الذاتي الذي حظي به لبنان حتى عام 1333 هـ / 1915 م حين ألغته السلطة العثمانية[7] بفعل ظروف الحرب العالمية الأولى.

---

[1] Hakim, op.cit., p. 13, 28.

[2] حوراني، الفكر العربي...ص 328.

[3] كمال الصليبي، بيت بمنازل كثيرة، الكيان اللبناني بين التصور والواقع، ترجمة عفيف الرزاز، ط 6، دار نوفل، بيروت، 2013، ص 32.

[4] مشاقة، مصدر سابق، ص 194. وأنظر أيضا حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 344.

[5] حتي، ص 344.

[6] حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 344.

[7] لونغريغ مرجع سابق، ص 67.

حَازَ الموارنة على الحصة الكبرى في وظائف المتصرفية، التي كانت عمليا الشكل القانوني الأول للطائفية في بلاد الشام. ففي جهاز الدرك الذي يتكون من 2000 عنصر، كان عدد الموارنة فيه 1200 عنصر، والدروز 200 عنصر، والشيعة 60 عنصر، والسنة 50 عنصر، والباقي (350 عنصر) قُسّم بين المذاهب النصرانية الأخرى[1].

وكانت تلك القرارت من ملامح صعود لبنان النصراني، من خلال استمرار هيمنة الموارنة على الجبل. ومع كل هذه المكاسب التي تحققت للموارنة، كانت فرنسا مستمرة في الضغط على الباب العالي لمزيد من الاستقلال، وأدوات الحكم الذاتي للجبل تمهيدا لفصله.

وبالرغم من تلك الامتيازات التي مُنحت لهم، رفض الموارنة نتائج هذا المؤتمر، واعتبروا فرنسا خائنة لقضيتهم، لأنها ركزت في هذا المؤتمر على مطلب خلق دولة عربية تابعة لها بين الأناضول ومصر، يرأسها الأمير عبد القادر الجزائري، لكن بريطانيا عارضته[2].

بعد هذه المعارضة قلّصت فرنسا مطالبها، وطرحت مشروعا بديلا، قاعدته إنشاء دولة نصرانية في الجبل، يقودها كاثوليكي، حتى ولو لم يكن لبنانيا، مع توسيع حدود الجبل ومنحه المدى الجغرافي والاقتصادي الملائم للمشروع السياسي، ليكون قادرا على الحياة والاستمرار. غير أنّ بريطانيا عارضت هذا المشروع أيضا، ليتمّ في الأخير إقرار نظام المتصرفية[3].

---

[1] ديب، مرجع سابق، ص 81.
للاطلاع على تفاصيل ومواد الإتفاق الدولي الخاص بالنظام الإداري الذي طُبق في جبل لبنان بعد أحداث 1860 م - وهي الأحداث التي سنستعرضها في الصفحات القادمة - يراجع: مشاقة، ص ص 194-199. وأنظر أيضا السودا، مرجع سابق، ص ص 220-223.

[2] الحداد، مرجع سابق، ص 34.

[3] الحداد، ص 34. وأنظر أيضا السودا، مرجع سابق، ص 220.

وأثناء هذه المرحلة، انقسمت النخبة المارونية إلى ثلاثة اتجاهات: الأول مؤيد لخصوصية جبل لبنان، ويطالب بإمارة في الجبل بحماية فرنسية، مستندين في ذلك إلى أنّ لبنان فرنسي اللّغة والانتماء، وسكانه نصارى فرنسيو القومية، وأشار أصحاب هذا الاتجاه إلى إقامة علاقة مع فرنسا شبيهة بالعلاقة التي أقامتها في الجزائر، بمعنى تحويل الجبل إلى مقاطعة فرنسية مع تجنيس سكانه[1].

وأمّا الاتجاه الماروني الثاني المدعوم من المؤسسة الدينية المارونية، فكان مطلبه يرتكز على توسيع حدود جبل لبنان (لبنان الصغير) وتحويله إلى مقاطعة فرنسية[2]. فيما طالب الاتجاه الثالث بإقامة دولة عربية موحدة في سوريا، بزعامة الأمير فيصل، ويحصل فيها لبنان على مكانة خاصة. واشترط أصحاب هذا الطرح أن تكون الدولة السورية عَلْمانية، لا محلّ فيها لخلافة إسلامية[3].

لقد نقل النظام الإداري الجديد استقلال لبنان من مجرد طموح تاريخي رَاوَدَ نصارى جبل لبنان في إقامة كيان نصراني، إلى حيّز الواقع المعترف به دوليا، لا سيما وأنه أعطى المؤسسة الدينية المارونية الدور الأول في تعيين الموظفين العاملين في نظام المتصرفية، ليكون هؤلاء قادرين على تحمل أعباء الحكم في المستقبل[4].

إلى جانب التحيّز الواضح لهذا النظام، وتمكّنه من القضاء على الفوضى الطائفية ظاهريا ومؤقتا، إلا أنه لم يستأصل الطائفية من النفوس، بل إنه لم يكن

---

[1] طرابلسي، مرجع سابق، ص 139.

[2] حسان حلاق، تاريخ لبنان المعاصر 1913-1952، ط 3، دار النهضة العربية، بيروت، 2010، ص 51. وأنظر أيضا ديب، مرجع سابق، ص 86. وكذلك الحداد، مرجع سابق، ص 111.

[3] النفزاوي، مرجع سابق، ص 276-277. وأنظر أيضا طرابلسي، مرجع سابق، 138.

[4] الحداد، ص 35-36. وأنظر أيضا

Hakim, op.cit., p. 3.

مُؤهلا ولا قادرا على بعث التفاهم والتوافق مادام هو في حدّ ذاته أُريدَ له أن يكون قائما على أساس طائفي جلي.

وفي عام 1328هـ / 1910 م طالب الموارنة بتوسيع حدود جبل لبنان الى المناطق التي يسكنها المسلمون لتشكيل دولة عربية برعاية فرنسية[1]. فَجَرَت مفاوضات بين جمعية الاتحاد اللبناني والسلطة العثمانية لظم الأجزاء التي اقتطعت من لبنان بمقتضى نظام المتصرفية وهي (بيروت وصيدا ووادي التيم وشرقي البقاع). غير أنّ هذا الأمر لم يتحقق إلا بعد دخول الجيش الفرنسي إلى لبنان عام 1336 هـ / 1918 م.

شارك البطريرك الماروني على رأس وفد من الأحبار والكهنة في مؤتمر الصلح في باريس[2]، بتوجيه ومساعدة من فرنسا. فالكنيسة المارونية كانت هي القوة الأكثر تأثيرا وفاعلية، ولها القدرة على تحريك الطائفة المارونية، سواء داخل الجبل أو خارجه.

قدّم البطريرك مطالب ركّزت على تكبير وتوسيع جبل لبنان إلى ما كان يعتبره الحدود اللبنانية الطبيعية التاريخية، ودعم استقلاله حتى ولو كان حاكمه فرنسيا، لِما لهذا الأمر من ضمانة دولية[3]، وأيضا تأليف برلمان وطني يضمن حقوق الأقليات. وأصرّ البطريرك في مذكرته على أن يكون هذا الاستقلال كاملا وتاما حيَالَ أيّ كيان عربي يُقام في سوريا[4]، والمقصود هنا الدولة التي وُعد بها العرب خلال الحرب العالمية الأولى.

---

[1] Hakim, op.cit., p. 3.

[2] لونغريغ، مرجع سابق، ص 115. وأنظر أيضا حلاق، مرجع سابق، ص 83. وكذلك الصليبي، بيت بمنازل كثيرة... ص 44.

[3] الحداد، مرجع سابق، ص 115.

[4] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 303-304.

ولمؤازرة مواقفه، استعرض البطريرك الماروني في نهاية مذكرته التبريرات والحجج الموجبة التي دعَتهُ إلى المطالبة باستقلال لبنان برعاية فرنسية، فذكر الاختلافات الجوهرية الموجودة بين لبنان وبقية البلاد العربية بطوائفها، من جانب العرق والتاريخ والمستوى الاجتماعي[1]، ومن جانب التطلعات والتطور الفكري والسياسي لهذه الطوائف.، إلى أن وصل به إصراره إلى القول: " **إنّنا نفضل الموت جوعا في ظل صخورنا على أنْ نكون تابعين لدمشق**"[2].

ردّ دعاة الوحدة السورية، والرافضين لاستقلال لبنان على نشاط البطريرك الماروني في باريس، بعقد مؤتمر في بيروت بتاريخ 3 شوال 1337 هـ / 2 جويلية 1919 م، أكّدوا فيه على استقلال سوريا الكامل بما فيها لبنان، وأصدروا مذكرة احتجاج ضد سفر البطريرك إلى مؤتمر الصلح.

رفض المؤتمر مزاعم البطريرك بتمثيل اللبنانيين، "**فالطائفة المارونية التي يزعم غبطة البطريرك أنه يتكلم باسمها ليست إلا أقلية في لبنان الكبير المزعوم**"[3]. كما ورد في المذكرة إشارة إلى أنّ البطريرك بصبغته الدينية، لا يملك الحق في الحديث باسم المسلمين والدروز والأرثوذكس، وهي الطوائف التي تشكل الأكثرية في لبنان الحالي[4].

بعدها كثُرت مذكرات الزعماء الدينيين النصارى وتوالت إلى مؤتمر الصلح، مدعومة من نشاط الجمعيات المارونية في أوربا التي كانت تنشط في محاربة المدّ العروبي الدّاعي إلى وحدة بلاد سوريا الطبيعية[5]. فقد زاد خوفها من تصاعد هذه

---

[1] حلاق، مرجع سابق، ص 83.

[2] محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 184.

[3] حلاق، ص 86.

[4] الحداد، مرجع سابق، ص 115.

[5] نفسه، ص 57.

انسحبت هذه الجمعيات إلى اختلاق مقومات حضارية ذاتية، والترويج للروايات التي تهدف إلى التأثير في القرارت التي ستفضي إلى خلق لبنان الجديد، بعد أن رفعت لواء فينيقيا، واجتهدت لإبرازه منفصلا

القوى، ومن إمكانية حصول اتفاق سرّي بين الأمير فيصل وفرنسا على حساب التطلعات الاستقلالية.

أصرّت تلك المذكرات على أنّ الطائفة الدينية هي من يحدد ويصنف الهويات الوطنية. وأوضحت انّ النصارى احتموا بجبل لبنان هروبا من ظلم العرب المسلمين والأتراك، فالعداء الإسلامي مُتأصّل تجاه النصرانية، وهو ما يقتضي عدم ربط لبنان الكبير بسوريا، وتحت سلطة أيّ أمير عربي عقيدته إسلامية[1].

وفي هذا السياق، وفي واحدة من تلك المذكرات، احتجّ صاحبها بأنه " **إذا كانت اليوم تُطرح مسألة إيجاد موطن لليهود في فلسطين - وهي بلد ليست لهم – فحري أن يُترك لسكان لبنان الكبير بلدهم هذا هو لهم في كل وقت، فلبنان كان دائما وأبدا قلعة المسيحية في الشرق**"[2].

= عن تاريخ بلاد الشام، وتحويله إلى تاريخ خاص بطائفة معينة، مشدودة إلى مفهوم جديد ومبتكر هو القومية اللبنانية بأبعاد نصرانية، قائم على أنّ لبنان الذي يمتد تاريخه إلى الحقبة الفينيقية كان دأبُه ومسعاه دائما نحو الاستقلال، وأنّ لبنان الكبير بالمساحة التي يجب أن يكون عليها، موجود كأرض مستقلة ومنفصلة عن سوريا منذ عهد الإمارتين المعنية و الشهابية إلى أن أتى نظام المتصرفية الذي سلخ منه أجزاء كبيرة.

لقد تجاهل أصحاب هذه المقولة، أن الإمارة المعنية ثمّ الشهابية، وحتى عهد المتصرفية، لم تكن لبنان الحالي، إذ أنه بالكاد حكمت هذه الأطراف لبنان الماروني- الدرزي، أي جبل لبنان وحسب. كما تداعت هذه الجمعيات وقدّمت ما لديها من سرديات ومرويات وحجج تؤكد أنّ الموارنة هم أهل البلد، وهو ما يُعطيهم الحق في وراثة الانفراد بالحكم في لبنان. كما راح الكثير من المفكرين والمؤرخين يكتبون في تاريخ الطائفة المارونية بنزعة عاطفية أكثر منها موضوعية، مسنودة على حقائق التاريخ ووقائعه. فاجتهد هؤلاء في التفتيش عن أسس الوجود اللبناني التاريخي وجذوره، والهدف الذي وضعوه لأنفسهم هو تبرير ما كانوا يُطلقون عليه الأمة اللبنانية أو الأمة المارونية. فالتاريخ وفق زعمهم أثبت أنهم، أي الموارنة، كانوا عبر العصور والدهور هم الأكثرية وظلوا يحكمونه على الدوام. ثمّ راهن هؤلاء على إتهام العهد العثماني بكل نقيصة وسوء، وجعلوه مصدر كل ظلم وشرّ.

[1] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 309.

[2] نفسه، ص 310.

في 16صفر 1338هـ / 10 نوفمبر 1919 م[1] تمكّن الوفد اللبناني من الحصول على تعهد مكتوب من رئيس وزراء فرنسا، يتعهّد فيه بتمكين النصارى من توسيع حدود الجبل، وتأسيس دولة لبنان[2]، ويعتبر هذا التعهد هو حجر الزاوية في بناء الكيان اللبناني وفصله عن سوريا، على الشكل الذي رغب فيه البطريرك وطائفته.

بعد ذلك، جاءت زيارة البطريرك الماروني الثانية لباريس في جمادي الأول 1338 هـ / فيفري 1920 م لكي يطرح مشكلة حدود لبنان[3]. وهي الرغبة التي ترجمها القرار الفرنسي بتوسيع حدود الجبل على حساب جواره، والصادر في 16 ذو الحجة 1338 هـ / 31 أوت 1920 م.

وبموجب القرار الفرنسي ضمت بيروت والبقاع ومدن طرابلس وصيدا وصور ذات الأغلبية السنية والشيعية إلى متصرفية الجبل[4]. وفي اليوم الموالي تم الإعلان عن قيام دولة لبنان الكبير وعاصمتها بيروت[5]. وفي دستور لبنان الصادر بتاريخ 10 ذو القعدة 1344 هـ / 22 ماي 1926 م حُوّل لبنان الكبير إلى جمهورية تحت الرعاية الفرنسية[6]، مع الإقرار بحصص الطوائف في الحكم والإدارة، مع منح الأولوية للنصارى عموما، وللموارنة خصوصا.

---

[1] Picaudou, op.cit., p. 55.

[2] لونغريغ، مرجع سابق، ص 115. وأنظر أيضا ديب، مرجع سابق، ص 89. وكذلك طرابلسي، مرجع سابق، ص 130.

[3] Picaudou ,op.cit., p. 56.

[4] محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 184. وأنظر أيضا الصليبي، تاريخ لبنان...ص 209.

[5] فغالي، مرجع سابق، ص 26. وأنظر أيضا الحداد، مرجع سابق، ص ص 36-38. وكذلك الصليبي بيت بمنازل كثيرة... ص 44.

[6] بروكلمان، مرجع سابق، ص 763. وأنظر أيضا طرابلسي، مرجع سابق، ص 151. وكذلك Collelo, op.cit., p. 22.

وبذلك لبّت فرنسا رغبة سكان متصرفية جبل لبنان، باقتطاع لبنان من بلاد الشام، ووُضعه تحت السيطرة المارونية برعايتها، وهذا من خلال تعيين حاكم فرنسي لتجنب الخلافات الطائفية في حالة تعيين أحد من أبناء الطوائف حاكما[1].

فضّل الفرنسيون فصل لبنان عن سوريا استنادا إلى اعتبارات مختلفة، في مقدمتها إرضاء الموارنة حلفائهم التاريخيين الأوفياء، وأيضا الادعاء بأنّ الفروق الكبيرة بين الطوائف وغياب التجانس بينها يُحتّم فصلها لتجنب إخضاع الطوائف صغيرة العدد إلى الطوائف الكبرى، وما يستتبع ذلك من اضطهاد وتمييز[2].

2- مواقف الطوائف من لبنان الكبير.

لم يحصل الاجماع بين الطوائف حول الكيان اللبناني الجديد، وحول أبعاد هويته، ومسألة الولاءات الخارجية المتنافرة فيه. فالانتماء الطائفي كان من العوامل الحاسمة في الاختيارات السياسية للنخب التي كانت تتصدّر الجماعات الدينية وتتحدث باسمها، وترسم لها وضعها ومستقبلها. فهذا الكيان الجديد كان يعني بالنسبة للطوائف من غير الكاثوليك، سيطرة الموارنة والثقافة الفرنسية بالتحديد[3].

لقد كان للموارنة، وفي مقدمتهم الكنيسة، الدور الفاصل في نشوء لبنان الكبير، فرحبوا بالجيش الفرنسي، معتبرينه محررهم من الاستبداد التركي، ومُخلصهم من كل ما كان له علاقة بالعربي المسلم الذي لم يجلب معه سوى الفقر والتخلف والمصائب[4]. فالموارنة مع من أيّدهم من نصارى جبل لبنان كانوا يُصرّون على إقامة دولة منفصلة عن جوارها بشكل واضح، ويؤكدون عن يقين بوجود العناصر والمؤهلات المطلوبة لبناء قومية لبنانية.

---

[1] محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 184.
[2] لونغريغ، مرجع سابق، ص 149-150.
[3] حوراني، الفكر العربي... ص 330.
[4] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 109.

فالموارنة يملكون تاريخهم الخاص في المشرق، ووجودهم أسبق من الإسلام، وعاشوا كأغلبية في لبنان، وارتبطوا به، فأسهموا في ولادة القومية اللبنانية وإبرازها على أساس تراث حضاري وتاريخي تعود أصوله إلى الحقبة الفينيقية وما تلاها، وصولا إلى الحروب الصليبية. فالقومية اللبنانية ذات خصائص متميّزة ومُتفوقة حضاريا على ما سواها من القوميات المجاورة[1].

تنكّر الموارنة للمرحلة الإسلامية تاريخا وحضارة، وشطبوا عليها[2]، ولهذا كانوا يتحسسون من العروبة، خاصة إذا كانت مقرونة بالإسلام.، فهي لم تكن بالنسبة إليهم سوى صورة جديدة للرابطة الإسلامية الجديدة، ولهذا كانوا يُصرّون على أن تكون دولة لبنان الكبير - حسب تسمية الموارنة - مقطوعة العلاقة ومنفصلة تماما عن المحيط العربي[3].

لم يكن لبنان الكبير بالنسبة للطائفة المارونية سوى محطة فاصلة في مسارها التاريخي، وتأكيدا لمشروعها السياسي في وجه دولة على أرض الشام يقودها الأمير فيصل، تلتف حول هذا المشروع، وتُحوّله إلى مشروع إلحاقي، إن لم نقل احتلالي.

وقفت الطائفة الأرثوذكسية ضد الدولة الوليدة[4]، وانجذبت نحو مفهوم العروبة فأعلنت عن رغبتها في الارتباط بالحكومة العربية التي نشأت في دمشق بزعامة الأمير فيصل بن الشريف حسين بعد المؤتمر الوطني السوري 17جمادي الثاني

[1] الصليبي، بيت بمنازل كثيرة... ص 45.
[2] ديب، مرجع سابق، ص 89.
[3] الصليبي، بيت بمنازل كثيرة... ،ص 42.
[4] طرابلسي، مرجع سابق، ص 137.

1338 هـ / 8 مارس 1920 م[1]، والذي أعلن عن استقلال سوريا الموحدة في نفس هذا التاريخ[2].

وكان الأمير فيصل يُروج لفكرة العروبة والاستقلال، والوحدة العربية الشاملة[3]. وجاء هذا الموقف الأرثوذكسي نتيجة الخشية من هيمنة الموارنة على مفاصل الدولة الجديدة برعاية فرنسا، خاصة بعد أن فقدت هذه الطائفة حاميتها روسيا القيصرية التي انهارت بعد الثورة الشيوعية 1335 هـ / 1917 م[4]. فلم تكن علاقة الموارنة مع الأرثوذكس أحسن حالا من علاقاتهم بالدروز، فقد شابها الكثير من الخصومات المذهبية.

وأما المسلمون السنة الذين أجبروا على الالتحاق بهذا الكيان[5]، فقد تعلّقوا بمحيطهم ووطنهم بلاد الشام، وأيدوا حكومة الأمير فيصل في دمشق على غرار الأرثوذكس، خاصة بعد أن أدركوا أنّ الدولة العثمانية أصبحت من الماضي[6]. فكان من البديهي أن يستتبع ذلك تبني السُنّة لأطروحات الأمير فيصل لمشروع لبنان الكبير، مُنطلقين من الرؤية التي تؤكد أنّ بلاد الشام كتلة واحدة، تجمع سكانها روابط جامعة.

كما أصرّ السنة على أنّ لبنان مهما كان له من تاريخ، فإنه لن يعدو كونه جزء من تاريخ عربي أرحب وأوسع من ذلك الذي سعى الموارنة إلى تصغيره، وِفق رؤية تاريخية مُؤسسة على مفهوم القومية اللبنانية[7]. فلم يكن بمقدور السنة فصل

---

[1] Dominique Vidal et Alain Gresh, *Les 100 portes du Proche-Orient*, Les Editions de l'Atelier, Paris, 1996, p. 123.

[2] Collelo , op.cit., p. 19.

[3] الحداد، مرجع سابق، ص 53.

[4] ديب، مرجع سابق، ص 93. وأنظر أيضا

Picaudou ,op.cit., p. 63.

[5] حوراني، الفكر العربي...ص 380. وأنظر أيضا طرابلسي، مرجع سابق، ص 135.

[6] الصليبي، بيت بمنازل كثيرة... ص 72.

[7] نفسه، ص 16.

العروبة عن الإسلام. فكان لبنان بالنسبة إليهم كيانا مصطنعا، أتْمَمَ الاستعمار تكوينه لخدمة مآربه بعد انهيار الدولة العثمانية.

وإلى جانب ذلك، ارتاب السُنة في الكيان الجديد الذي أقامه الموارنة بدعم فرنسي لاعتبارات أخرى عديدة، في مقدمتها أنهم أصبحوا أقلية في دولة أغلبيتها نصرانية مارونية تعيش على وفاق تام مع القوى الاستعمارية التي كانت مكروهة من جميع المسلمين[1]. وأيضا لأنهم سيصبحون أقلية في الدولة الجديدة التي يحكمها النصارى والأجانب، منفصلة دينيا عن بقية بلاد الشام التي تعتبر امتدادهم الطبيعي، بعد أن كانوا أغلبية مطلقة إبّان الحكم العثماني[2].

زيادة على ذلك، الإهانات التي صدرت من قادة الجيش الفرنسي بحقهم، من مثل وقوف قائد الجيش أمام قبر صلاح الدين الأيوبي في دمشق، وتذكيره بالحروب الصليبية التي حلّ أوان استكمالها. وتصريحات أخرى تُجمِع كلها في أولوية الموارنة في العناية والرعاية، فكان الدخول الفرنسي إلى لبنان يحمل طعما ومذاقا صليبيا[3].

كما تعمّد الموارنة الإساءة للمسلمين، وبقية الطوائف، عندما نزلت الجيوش الفرنسية في بيروت 2 مُحرم 1337 هـ / 8 أكتوبر 1918 م لتُطيح بالحكومة العربية التي أقامها أنصار الأمير فيصل في المدينة[4]. حيث دسّ الفرنسيون الموالين لهم بين الناس لنشر الإشاعات الطائفية لاستمالة النصارى[5]، وتأجيج مخاوفهم من هذه الحكومة التي ستقضي على حقوقهم.

---

[1] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 111.

[2] الصليبني، تاريخ لبنان... ص 214. وأنظر أيضا ديب، مرجع سابق، ص 91.

[3] ديب، ص 91.

[4] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 299. وأنظر أيضا

Collelo , op.cit., p. 20.

[5] حلاق، مرجع سابق، ص 54.

تلبية لهذه الدعوات الطائفية، اجتمعت أعداد غفيرة من الموارنة وغيرهم من النصارى، يحملون الأعلام الفرنسية ويُلوحُون بها، ويهتفون لجيوش فرنسا، الأم الحنون[1]، معلنين رفضهم لأيّ حكومة دينية رجعية بزعامة الأمير فيصل[2].

ولعلّ ما حزّ في نفوس المسلمين أيضا هو تلك التظاهرات النصرانية في بيروت بإيعاز من فرنسا أيضا، التي ردّدوا فيها أناشيد تسب المسلمين وتذُمُهُم[3]. وقاموا بالتهجم على الأمير فيصل العائد من أوربا بعد حضوره مؤتمر الصلح، وشنوا عليه هجوما حادا، وأطلقوا في حقهِ كلاما ينطوي على استخفاف وسخرية.

كما وُصف الأمير فيصل بالحجازي الغريب والبدوي، الذي تتستّرُ وراءه بريطانيا، فهو أداة بيدها، تستخدمها لتحقيق مآربها الاستعمارية، ولتنفيذ سياساتها[4]، مُتهمين إياه بأنه يخطط لإفشال مشروعهم في بناء لبنان الكبير، وأنه يرمي لإعادة الاحتلال العربي لوطنهم[5].

بلغت العتبة الطائفية لدى الموارنة مداها وحدّ التطرف ضد العرب والأتراك عندما ظهرت مواقف مارونية مُغالية، منها ما كان لزعامات دينية، تتحدث عن أنّ لبنان أرض نصرانية خالصة، لاسيما الموارنة دون سواهم، رافضين العروبة، لأنها في نظرهم كانت رديفا للإسلام[6]. كما تعاطت هذه المواقف مع المسلمين الذين وقفوا مُعارضين لمشاريعهم، من منطلق التعالي، فنظروا إليهم نظرة دونية.

---

[1] الصليبي، بيت بمنازل كثيرة... ص 52.
[2] حلاق، مرجع سابق، ص 54.
[3] نفسه، ص 61.
[4] حوراني، الفكر العربي...ص 346.
[5] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 315.
[6] حلاق، ص 48.

وأمام هذه الظروف الصعبة، سعى بعض القوميين العرب إلى إجراء اتصالات سرية مع الكماليين[1] للتصالح مع الأتراك، والتفاهم معهم على مشروع يُوحد الصف لمواجهة القوى الغربية وطردها من المنطقة، ثم تكوين دولة مستقلة يعيش فيها الأتراك والعرب على أساس المساواة. لكن بريطانيا تفطنت للأمر وأفشلته[2]، لما له من خطورة على مشاريعها الاستعمارية في هذه المنطقة.

وأمّا الدروز فكانوا الطائفة الوحيدة التي رفعت السلاح ضد الفرنسيين مرارا، ووقفت ضد مشروعهم في لبنان، وما سيترتّب عليه من وضع الموارنة، شركاءهم وخصومهم التقليديين التاريخيين في صدارة الكيان الجديد، وامتعاضهم أيضا من العناية الخاصة التي أولاها الفرنسيون لهؤلاء الخصوم[3].

أعلن الدروز المقاومة المسلحة في السنوات الأولى من ميلاد هذا الكيان، أبرزها وأشدها تلك التي اندلعت عام 1343هـ / 1925 م في جبل الدروز، واتخذوا من السنة حلفاء لهم باسم العروبة، ورحّبوا مثلهم بالالتحاق بالحكومة العربية التي أقامها الأمير فيصل في دمشق[4].

ونفس الموقف الدرزي أبدته الطائفة الشيعية، حيث اعتبرت إقامة لبنان الكبير طعنة للوحدة السورية، فقاومت الفرنسيين إلى جانب الدروز، وتركزت المقاومة الشيعية التي اندلعت في وجه فرنسا، بالهجوم على مواقع جيشها[5]، بتاريخ 5شعبان 1338 هـ / 24 أفريل 1920 م، داعية إلى الالتحاق بسوريا[6]. كما اتخذ الموقف

---

[1] الكماليون: نسبة إلى كمال أتاتورك(1931-1853 م)، القائد والزعيم التركي الذي تولى رئاسة تركيا الحديثة بعد إلغاء الخلافة عام 1924 م. أنظر: البعلبكي، مرجع سابق، ص 369.

[2] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص ص 330-337.

[3] الصليبي، تاريخ لبنان...ص 215.

[4] نفسه، ص 77.

[5] Picaudou ,op.cit., p. 56.

[6] طرابلسي، مرجع سابق، ص 131.

الشيعي شكل الصراع المحلي مع سكان القرى النصرانية التي سلّحتها إدارة الاحتلال[1].

وكانت الجرائد التي يُصدرها النصارى تحرّض الاحتلال على مزيد من القسوة في التعامل مع العدو الجاهل (الشيعة)، وعدم الاكتفاء بالحملات والقرارات التأديبية[2]. غير أنّ فرنسا أخذت في الاهتمام بالطوائف الأخرى لإنجاح مشروعها في لبنان، فسارعت إلى التقرّب من الشيعة من خلال إدماجهم في إدارة الكيان الجديد بعد اعترافها بهم كطائفة دينية مستقلّة عن المسلمين السنة[3]، ويُحاكمون في دوائر الأحوال الشخصية بموجب أحكام مذهبهم.

زيادة على ذلك، بدأ الشيعة يدركون أنّ حالهم كأقلية كبيرة في دولة لبنان أفضل من حالهم كأقلية غير معتبرة في سوريا الكبرى[4] عانت من التهميش والتمييز الذي وقع عليهم خاصة عدم الاعتراف بملتهم. وهكذا قدّمت الخطوة الفرنسية تجاه الشيعة طريقة جديدة ومهمة للانخراط والمشاركة في الحياة السياسية داخل الكيان اللبناني.

انتشرت الانتفاضات في كل أرجاء لبنان على شكل حرب عصابات، وكان عمادها الجماهير الإسلامية، فعمدت فرنسا إلى إنشاء فرق عسكرية محلية من الطوائف الدينية الموالية لها، فاتخذ هذا الاقتتال المحلي طبيعة صليبية وطائفية[5].

ظلّ المسلمون السنة والدروز في لبنان متمسكون بالوحدة السورية وبعروبة لبنان كغيره من البلدان العربية الأخرى[6]، حتى فرضت عليهم الظروف الالتحاق

---

[1] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 337..
[2] نفسه، ص 339..
[3] ديب، مرجع سابق، ص ص 92-97.
[4] الصليبي، تاريخ لبنان...ص 215.
[5] كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية... ص 337.
[6] لونغريغ، مرجع سابق، ص 109.

بلبنان الكبير. بينما ظلّ النصارى خاصة الذين يعيشون في الجبل يعتقدون بأنّ لبنان جزء من الحضارة الغربية، وليس عربيا وإنْ كان أهله يتحدثون العربية[1].

وأمّا بالنسبة للأمير فيصل، فبعد طرده من دمشق من قِبل القوات الفرنسية، لجأ إلى أوربا، وبقي فيها حتى استدعته بريطانيا لتعيّنه ملكا على العراق[2]، كما استدعت شقيقه عبد الله وجعلت منه ملكا على إمارة أنشأتها في أراضي شرق الأردن، بعد اقتطاعها من فلسطين عام 1339 هـ /1921 م، وهي الإمارة التي تحوّلت إلى المملكة الأردنية الهاشمية سنة 1368 هـ / 1949 م[3].

مع فوز منطق لبنان الكبير، ونجاح التخطيط الطائفي لصنع لبنان بصيغة طائفية نصرانية مارونية، وانتشاء هذه الطائفة بالانتصار الذي حققته في تكوين لبنان الذي لطالما سعَت إلى إقامته، شعرت من جهة أخرى بأنها خسرت الأكثرية التي تمتعت بها، بعد أن أُلحقت بلبنان مناطق أغلبية سكانها من السنة والشيعة، مما يُخلّ بالتوازن الطائفي.

كان النصارى يمثلون 80 % من سكان جبل لبنان، لكنه منذ إنشاء لبنان الكبير تقلّصت نسبتهم سنة 1339هـ / 1921 م إلى 55 %، ثمّ إلى 50.7 % فقط في إحصاء 1350 هـ / 1932 م. وهو الأمر الذي أثار مخاوف النصارى وحرّك هواجسهم، وهي الحالة التي لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا[4].

بدأ الكيان اللبناني يلقى قبولا لدى جميع الطوائف المعارضة، التي وجدت نفسها مضطرة إلى الاندماج في لبنان الكبير، بعد أن لَوَت القوى الأجنبية الاتجاهات العروبية والوحدوية، وأجهزت على مشروعها، وأسقطت راياتها، وحوّلت لبنان

[1] حلاق، مرجع سابق، ص 108.

[2] Collelo , op.cit., p. 19.

[3] حتي، ج 2، مرجع سابق، ص 354.

[4] Picaudou ,op.cit., p. 58.

الكبير إلى أمر واقع لا مناص منه. ومع هذه الظروف، أضحت الطائفية إحدى المقومات الأساسية للاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي في هذا الكيان.

من الثابت أنّ لبنان لم يكن كيانا صنعته الدول الكبرى عقب نهاية الحرب العالمية الأولى فحسب، بل استندت صناعته إلى فكرة تعود إلى تاريخ مديد تقاطعت مع رغبة جامحة للطائفة المارونية في الاستقلال عن الدولة العثمانية، وهذا من خلال الارتكاز على مرويات وسرديات تاريخية مبتكرة وموضوعة، مع رغبة فرنسية في غرس قاعدة متقدمة لها في المشرق، تصون مصالحها على غرار ما فعلت بريطانيا في فلسطين.

لقد بات التوافق في هذا البلد يعتمد نظاما سياسيا يقوم على ركيزة الطائفية وليس على ركيزة المواطنة. ولقد ترتّب عن هذه التناقضات والمعضلات تشكُّل مجتمع لبناني غير متماسك وغير منسجم، جعل كل لبناني يُقدّم الولاء الطائفي على ما سواه، وينتخب طائفته ويرتبط بها على حساب الوطن، وهو المدخل الواسع الذي تتسلل منه القوى الإقليمية والدولية المتصارعة على أرض لبنان.

المبحث الثاني: آثار الطائفية على بلاد الشام.

من بين المُسلمات في حياة بلاد الشام أنّ الطوائف وُجدت فيها منذ فجر التاريخ ولم يسجل تاريخ هذه المنطقة قبل 1256 هـ / 1840 م صدامات ومذابح متبادلة بين هذه الطوائف على النحو الذي شهده القرن 13 هـ / 19 م، ولم يكن الدّين عبر هذا التاريخ الطويل الذي صنعته دول نشأت على أرضها أو دول سعَت إلى توسيع نفوذها إليها، أيّ دور في الصراعات التي كانت تنشأ بين هذه الدول، فالأغراض السياسية الرامية إلى التوسع، والدوافع الاقتصادية هي التي كانت تُحرّك هذه الصراعات وتُشعلها.

منذ القرن 13 هـ / 19 م اكتسحت الطائفية بلاد الشام، وانغمست الجماعات الدينية في الحروب الأهلية، بعد أن انغلقت على نفسها ومحيطها، وطوّرت لنفسها مركزا جغرافيا بحيث تعيش بشكل عام كأكثرية، حتى أصبح الفرد في هذه التجمعات لا يعرف عن الدولة المركزية شيئا.

ومع مرور الوقت تحوّل تاريخ العلاقات بين هذه الجماعات إلى مجال مليء بالعنف الطائفي، الذي تقطُرَ سطوره دمًا، وتاريخه مذابح وأشلاء، بعد أن تحوّلت هذه الطوائف تدريجيا من طوائف دينية بالدرجة الأولى إلى طوائف سياسية تلعب دورا كبيرا في التغيرات السياسية، فاندفعت إلى مواجهة بعضها البعض.

1- المجازر الطائفية

أ- مجازر 1840-1859.

ما إن نجحت الدولة العثمانية، بمساعدة بريطانِيَة في إجبار الحملة المصرية على إخلاء بلاد الشام، حتى أمست هذه البلاد فريسة للاضطرابات الطائفية. فقد عاد الدروز إلى مواطنهم ومحالهم في جبل لبنان، بعد أن كانوا قد أخلَوْهُ بسبب السياسة المصرية التي تحالفت مع الموارنة ضدّهم.

طالب الدروز، ومعهم السلطة العثمانية، باستعادة نفوذهم التقليدي في الجبل وتطلّعوا إلى تحصيل حقوقهم وامتيازاتهم وإقطاعاتهم التي خسروها، غير أنّ ما صعّب طلب الدروز هو أنّ ممتلكاتهم كانت في يد النصارى[1]. إلى جانب ذلك طالب الدروز بتقليص سلطة الموارنة التي اتسعت في عهد المصريين[2]، لكن الأمير الشهابي رفض إعادة امتيازاتهم وممتلكاتهم، وأساء إليهم[3]. ولهذا فما إن أطلّت سنة 1257 هـ / 1841 م حتى تفاقمت الخصومة بين الطائفتين، وانتقلت الخصومات الإقطاعية التقليدية إلى خصومات طائفية مريرة.

قبل هذه المرحلة كانت دوافع الصراعات تعود إلى تناقضات قَبلية وعائلية، وتتم بين الأسر الإقطاعية المنتمية إلى الطائفة الواحدة[4]، غير أن طبيعة الصراع تبدّلت، ففي 27 رجب 1257 هـ / 14 سبتمبر 1841 م[5]، بعد خروج المصريين بقليل، تطايرت شظايا الفتنة الطائفية، فقد كان تحالف الموارنة مع الحملة المصرية لا يزال ماثلا في أذهان الدروز.

---

[1] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 35. وأنظر أيضا: الصليبي، تاريخ لبنان...، ص 77. وكذلك طرابلسي، مرجع سابق، ص 26.

[2] ديب، مرجع سابق، ص 76.

[3] مكاريوس، مصدر سابق، ص 82.

[4] ديب، ص 76.

[5] مكاريوس، ص 80. وأنظر أيضا مشاقة، مصدر سابق، ص 146.
تطرّق الدكتور سيار الجميل، في محاولة منه لتبرير تنامي الولاء الطائفي، وما صاحبه من صدامات دموية بعد سنة 1840 م، فردّ هذا الأمر إلى العلاقات الطائفية قبل هذه المرحلة، من خلال شيوع الولاء السياسي المرتبط بشدّة بالعائلات الإقطاعية، التي فرضت نفسها وهيبتها على العامّة، فهي من كان يتحكّم في كل ما يرتبط بالطائفة من شؤون. ثم حدث الانفجار الطائفي بعد تراجع منزلة تلك العائلات لصالح المؤسسة الدينية، زيادة على تأثيرات الحملة المصرية على أوضاع المنطقة خصوصا الأحقاد الطائفية التي زرعتها، وأيضا إقرار السلطة العثمانية، وبضغط أوربي، لتقسيمات إدارية قائمة أساسا على قاعدة طائفية. أنظر: الجميل، تكوين العرب...، ص 316.

اندلعت المواجهات الدامية في جبل لبنان بين الدروز والموارنة بعد شِجَار فردي، بين ماروني ودرزي، حيث تصادف أنّ رجلا مارونيا ذهب لصيد الطير في منطقة مأهولة بالدروز، فتصدّى له الدرزي ممّا أدّى إلى خصام عنيف، فقام الموارنة بالهجوم على مناطق الدروز، وقتلوا جماعة منهم[1].

وما لبث أن انضم إلى كلٍ طرف ذووُهُ وأنصاره، وتحول هذا الخلاف البسيط إلى خلاف جماعي، سرعان ما اتجّه اتجاها طائفيا[2]. فاتّسع القتال في أيام معدودة وأصبحت البلاد بأكملها في فتنة مستعرة الأُوَار. فقام الموارنة بالهجوم على بلدات درزية وقتلوا 17 درزيا[3].

على الرّغم أن البطريرك الماروني اعتذر عن الحادث، إلا أن الدروز تظاهروا في بداية الأمر بقبول الاعتذار والصلح، وراحوا في السرّ يستعدون للثأر. فردّوا بالهجوم على قرى وبلدات نصرانية، وقتلوا نحو 100 ماروني[4]. ثمّ اتسعت دائرة المواجهات الطائفية لتشمل كامل قرى الجبل[5]، ومع انتشارها، زاد عدد القتلى

---

[1] مشاقة، مصدر سابق، ص 145. وأنظر أيضا ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 36. وكذلك ديب، مرجع سابق، ص 79.

إنّ تتبُعنا لتاريخ هذه الحوادث جعلنا نلمس تناقضا واضحا في مواقف المؤرخين الموارنة والدروز من الأحداث الدامية التي وقعت بين الطرفين. فكلٌ منهما يُحمّل مسؤوليتها للخصم، ويلقي عليه بالأسباب والتفاصيل التي أسهمت في تفجير الوضع. فالطرف الماروني مُمَثلا في المؤرخين المذكورين حمّلوا الدروز مسؤولية ما حدث، فصوروهم على أنهم متهورون يرغبون في الانتقام لما حدث لهم خلال الحكم المصري، ويَسْعون إلى فرض سلطتهم على الجبل. أمّا المؤرخ يوسف خطار أبو شقرا، وهو مؤرخ درزي، فإنّه يُلقي باللائمة على الموارنة والكنيسة في المجازر المُتبادلة. أنظر. أبو شقرا، مصدر سابق، ص 37.

[2] ريمون هاشم، ص 36.

[3] ديب، ص 77.

[4] نفسه، ص 77.

[5] تشرشل، مصدر سابق، ص 41.

والدمار. وخلال الأحداث، وقفت القوات العثمانية إلى جانب الدروز - على رواية مشاقة وغيره من مؤرخي الواقعة من النصارى - بهدف تحطيم الاستقلال الذي كان يتمتّع به الجبل منذ عقود[1].

وبذلك تكون تلك الأحداث هي أول وأكبر المواجهات الطائفية في جبل لبنان[2]. وحدث أن كان القنصل العام البريطاني في المنطقة، فأسرع إلى مكان المواجهات مُصطحبا معه أحد مشايخ الدروز ليتوسّطا بين المتحاربين، وتمكّنا من وقف القتال.

وهنا وجبت الإشارة إلى أنّ هذه الحوادث كانت مدفوعة بما تركه الحكم المصري في النفوس من أحقاد وضغائن طائفية بين الجانبين[3]. وأيضا بما قاله البطريرك الماروني من أنّ النصارى سوف يُبيدُون الدروز في الجبل[4]. وتعتبر هذه الأحداث هي منطلق المخططات والمشاريع الطائفية، والتدخلات الأوربية في قضايا الجبل.

وممّا يُظهِر استحكام العداوة بين الطرفين، هو أنه بعد هذه الأحداث، بعث البطريرك الماروني برسالة إلى السلطان العثماني يُشدّد فيها على أنّ الموارنة كانوا عبر تاريخهم ضمن الدولة العثمانية موالون للباب العالي على عكس الدروز الذين

---

[1] مشاقة، مصدر سابق، ص 146. وأنظر أيضا مكاريوس، مصدر سابق، ص 119.. وكذلك محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 76. وكذلك ديب، ص 83.
اتّسمت الكتابات التي أشارت إلى مؤامرات عثمانية خفية كانت تجتهد لتهييج أطراف الصراع في جبل لبنان لترسيخ الحكم العثماني المباشر، باتهام السلطة بالتهاون المقصود، وتهويل أمره. غير أنّ تلك الكتابات لجأت مقابل ذلك التهويل بحق السلطة العثمانية إلى التهوين من المواقف الخارجية من تلك الأحداث، ودورها الكبير في تفجير الاوضاع. فالمنافسة بين هذه الدول كانت قائمة على قدم وساق سعيا وراء الحصول على النفوذ بأيّ ثمن، وتجسيد الأهواء الاستعمارية، ولو كان ذلك يستدعي دق الأسافين للمزيد من التمزُق والعنف بين المكونات الطائفية للجبل.

[2] Picaudou, op.cit., p. 29.

[3] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 36.

[4] تشرشل، مصدر سابق، ص 31. وأنظر أيضا:
Un témoin oculaire, op.cit., p. 26.

تظاهروا بموالاته عقب اندحار الحملة المصرية. وبالمقابل بعث الدروز بعريضة يعلنون فيها افتخارهم بالدفاع عن السلطنة ضد الموارنة أعداء الإسلام الذين تحالفوا مع أوربا[1].

تحت الضغط الأوربي، وباقتراح من النمسا - التي طرحت موقفها ليكون حلا وسطا بين البريطانيين المؤيدين للدروز في مطلبهم بتولية الحكم في الجبل لِموظف عُثماني وبين الفرنسيين المتمسّكين بعودة حكم الشهابيين[2] - أصدرت السلطة العثمانية نظاما إداريا يُقسَّم بموجبه الجبل إلى مُقاطعتين إداريتين، واحدة درزية أسندت إدارتها لدرزي، وأخرى مارونية أسندت إدارتها لنصراني.

وتبعا لهذا الإجراء، أعلنت السلطة العثمانية عن القضاء على الإمارة الشهابية وإلغاء الوضع الخاص الذي تمتّع به جبل لبنان، في ذو القعدة 1257 هـ / جانفي 1842 م، وإعادة حكمها المباشر للجبل من خلال تعيين موظف عثماني لإدارته [3]. وفي هذه المرحلة، التي أعقبت سقوط الشهابيين، ظهرت النوايا الفرنسية في تكوين إمارة كاثوليكية في جبل لبنان.

لم يكن بمقدور هذا الإجراء أن يوقِف الخلافات بين الطائفتين، بل ضاعفها. حيث رحّب الدروز بالتنظيم الجديد، ورفضه الموارنة الذين ألّحوا على عودة الإمارة الشهابية بدعم من الكنيسة[4]. ووصل الحال إلى أنّ بعض رجال الدين الكاثوليك الأجانب كانوا يجوبون البلاد لتحريض الموارنة ضد الدروز، وأيضا لرفض هذا التنظيم[5].

---

[1] المقدسي، مرجع سابق، ص 131.

[2] طرابلسي، مرجع سابق، ص 46.

[3] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 37. وأنظر أيضا طرابلسي، ص 28. وكذلك
Picaudou, op.cit., p. 29.

[4] الصليبي، تاريخ لبنان...، ص 86. وأنظر أيضا ديب، مرجع سابق، ص 86.

[5] ديب، ص 89.

اعتمد هذا التقسيم على قاعدة دينية طائفية، قضت على الروابط القديمة التي كانت تحكم العلاقات بين الطائفتين قبل الحملة المصرية. كما أنّ هذا التنظيم لم يكن لينجح في منطقة فيها تداخل سكاني كبير بين الطائفتين، وهو ما نتج عنه اضطهاد النصارى في المنطقة الدرزية، وإذلال الدروز في المنطقة النصرانية.

إنّ النجاح كان سيُحالف هذا التقسيم، لو أنّ جميع النصارى كانوا متركزين في جهة واحدة، وكذا بالنسبة للدروز، ولأضحى هذا الحل معقولا ونافعا[1]. ولهذا سَعَى الموارنة في المناطق الدرزية إلى المطالبة بإخضاعهم إلى الإدارة في الشطر الماروني، وطالب الدروز بدورهم بالخضوع للإدارة الدرزية.

وهكذا أصبح أبسط احتكاك بين هذين المُكَوِنَيْن كفيل بإضرام نار الحرب بينهما. زيادة على ذلك، فقد فتح هذا التنظيم الباب أمام بقية الطوائف إلى المطالبة بمقاطعة إدارية خاصة، حيث طالبت روسيا هي الأخرى بإنشاء مقاطعة بإدارة مستقلة للرّوم الأرثوذكس، على غرار الدروز والموارنة[2].

إنّ محاولة الموارنة بقيادة البطريرك تهميش الدروز والإمعان في إضعافهم لبسط السيطرة المارونية على الجبل باء بالفشل، بعد أن كلّفت تلك المواجهات الدامية مقتل ثلاثة آلاف من النفوس، وتخريب الممتلكات، إلا أنّ الأخطر من ذلك هو أنّ الأحداث زرعت بذور العداء بين الطائفتين المتعاديتين[3].

ومن بين صور ذلك العداء الذي استشرى بين الطرفين، هو صدور قرار في المجتمع الماروني مُوجّه لأتباع الطائفة، يفرض على كل ماروني عدم مُخالطة الدروز أو إقامة صداقة معهم، وكل من يعترض على هذا القرار ولا يلتزم به

---

[1] تشرشل، مصدر سابق، ص 47. وأنظر أيضا ديب، مرجع سابق، ص 77-78. وكذلك ريمون هاشم ص 42.

[2] الصليبي، تاريخ لبنان...، ص 98. وأنظر أيضا ديب، ص 98.

[3] تشرشل، مصدر سابق، ص 41.

يُعرّض نفسه للموت، كما أقنعت الكنيسة رعاياها بأنّ الحرب ضد الدروز دينية، لأن هؤلاء أعداء الصليب وكُفار يجب استئصالهم[1].

وفي 4 ربيع الثاني 1261هـ / 12 أفريل 1845 م[2]، تجدّد الاقتتال بين الموارنة والدروز خصوصا في القرى المختلطة[3]، وأتَت هذه الأحداث على إثر تمسّك الموارنة بعودة الأمراء الشهابيين إلى حكم الجبل، وأقسموا أن لا يرجعوا عن موقفهم حتى ولو كان الثمن هو إفناء الدروز. فهاجموا قرى الدروز بقيادة رجل دين نصراني يحمل الصليب في يده، وارتكبوا فظائع في حق 24 قرية درزية.

لم يَدُم انتصار الموارنة طويلا، فقد اجتمع الدروز وردّوا بتدمير قرى مارونية وحصار قرى أخرى، وقتل جُمُوع من الموارنة، واستمر القتال ستة أشهر[4]. ولمّا بلغت الأخبار إلى القنصل العام البريطاني تدخّل مرّة أخرى لدى الدروز لتوقيف الاقتتال، وإرجاع السكينة للجبل [5].

اجتمع ممثلو القوى الأوربية في بيروت، وتمّ استدعاء زعماء الطائفتين للتباحث في توقيف القتال، فتقرّر نزع السلاح من أيدي المتقاتلين وجمعِه[6]، وبقاء نظام الإدارتين، مع إضافة مجلس من القضاة والمستشارين يمثلون الطوائف[7] فعادت السكينة إلى الجبل.

---

[1] تشرشل، مصدر سابق، ص 50.

[2] مكاريوس، مصدر سابق، ص 119.

[3] مشاقة، مصدر سابق، ص 252. وأنظر أيضا ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 49.

[4] ديب، مرجع سابق، ص 78.

[5] مكاريوس، ص 119-120.

[6] Edwards, Richard, op.cit., p. 101-102.

[7] ديب، ص 78. وأنظر أيضا طرابلسي، مرجع سابق، ص 49.

لم يدُم الهدوء في الجبل طويلا، فقد اندلعت الفتنة مرة أخرى بعد أن انتقلت إلى مدينة حلب في 1276 هـ / 1850 م، حيث نُهبت أحياء النصارى وأحرقت كنائسهم[1]. وفي خلال السنوات الموالية استمرّت الحوادث الطائفية، واستمرّ معها القتل والتدمير، وصولا إلى الفتنة العظمى في 1860 م.

ب- مجازر 1860.

تعود جذور هذه الفتنة الدامية إلى عام 1272هـ / 1856 م ، عقب حرب القرم عندما أصدرت السلطة العثمانية قرارا تعلن فيه المساواة الكاملة بين جميع رعايا الدولة، مهما كانت عقائدهم في مسائل الضرائب والقضاء والحقوق والواجبات[2]. وفي هذا المضمار يذكر مخائيل مشاقة - وهو رجل دين ومؤرخ نصراني، عاش في هذه المرحلة - أنّ هذه الترتيبات والتنظيمات التي أقرّتها السلطة العثمانية، أدّت إلى تمادي النصارى، وحَملتهُم **" إلى المظاهرة ونفخ صدورهم تعنتا وزاد عقولهم تصلبا وصاروا يَتَبَاهون وظنوا أنهم قبضوا على مفاتيح السماء"**[3].

وجاءت هذه التدابير العثمانية سعيا من السلطة لقطع الطريق أمام التدخلات الأجنبية، وتهدئة العلاقات بين الطوائف لتجنُب الفتن بينها[4]، وهو القرار الذي رسّخ الانقسام الطائفي بين المسلمين والنصارى، وبعث جوا من عدم الثقة والحقد والضغينة.

لقد حنَقَ المسلمون على تزايد ثراء النصارى بفعل ارتباطاتهم التجارية بأوربا وتنامي نفودهم وعُلُو سطوتُهِم منذ زمن الحملة المصرية[5]، حتى أنّ الأمر بلغ ببعض

---

[1] محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 76-77.

[2] مشاقة، مصدر سابق، ص 157. وأنظر أيضا محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 78. وكذلك الحداد، مرجع سابق، ص 31. وكذلك الخوند، ج 10، مرجع سابق، ص 26.

[3] مشاقة، ص 169.

[4] الحداد، ص 32.

[5] طرابلسي، مرجع سابق، ص 63.

علماء دمشق، في بداية رجب 1272 هـ / مارس 1856 م، إلى إصدار فتوى تنُصُّ على أن هذه الإصلاحات تتعارض تماما مع أصول الشريعة الإسلامية[1]، وأنها مؤامرة أوربية نصرانية على الإسلام[2].

وتلى ذلك القرار، قيام الفلاحين في المناطق المارونية في جبل لبنان بثورة عام 1273 هـ / 1857 م[3] ضد النظام الإقطاعي والأمراء، مُطالبين بإصلاح النظام الاجتماعي وتخفيض الضرائب، ومنح الفلاحين المزيد من الحقوق.

دعّمت الكنيسة المارونية - التي كانت القوة الأكثر فاعلية على الساحة [4]- هذه الثورة التي رُفِعت فيها الأعلام الفرنسية لكسب تعاطف فرنسا. ثمّ تحوّل الصراع بين الفلاحين والعائلات الإقطاعية المارونية إلى صراع امتدّ لهيبه إلى المناطق الدرزية، لتتحول هذه الانتفاضة تدريجيا إلى حرب طائفية[5].

إنّ ما زاد في حالة الاحتقان الطائفي واستمرار الفوضى، هو اختيار زعماء هذه الانتفاضة لخطاب سياسي ديني نصراني لحشد الأنصار، إذ غدى العامل الطائفي هو من يُعزّز مكانة الزعامات الطائفية، سواء الدينية أو المدنية. ولسوء الحظ تعدّى هذا الخطاب المقاطعات المارونية إلى المناطق المختلطة، خاصة تلك

---

[1] النفزاوي، مرجع سابق، ص 100.

[2] طرابلسي، مرجع سابق، ص 63.

[3] الخوند، مرجع سابق، ج 10، ص 26.

[4] المقدسي، مرجع سابق، ص 163.

يعود الدور الكبير الذي أصبحت تنهضُ به الكنيسة المارونية، إلى امكانياتها الاقتصادية الهائلة، وحيازتها لأراضي واسعة، ومزارع الحرير وصناعته، زيادة على المدارس والمكتبات والطباعة التي احتكرتها لفترة طويلة... وهذه الأدوات هي التي حوّلت الكنيسة إلى مؤسسة اقتصادية منظمة، خوّلت لها القدرة على التأثير في المجتمع الماروني، وتحديد مساراته ومطالبه السياسية. فقد أيقنت الكنيسة بأنها القوة الوحيدة القادرة على التصدّي والصمود في ميادين الصراعات السياسية. وتعاظم هذا الدور الكنسي يعود بدرجة كبيرة إلى تراجع تأثير العائلات الاقطاعية، وانخراطها في صراعات المصالح والنفوذ، ممّا أفقدها الكثير من مكانتها وهيبتها. أنظر: طرابلسي، مرجع سابق، ص 39-40.

[5] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 58. وأنظر أيضا المقدسي، ص 170.

التي يغلب عليها الدروز. ولهذا يمكن القول بأن هذه الانتفاضة هي مَنْ عجّل بنشوب أحداث 1860 م[1]، وعليه، يبدو أنّ الخصام التافه، الذي سَنَسُوقُهُ، لم يكن أكثر من شرارة أشعلت هذا الصراع الطائفي الأليم.

بدأت تلك الحوادث الفضيعة، التي جرت في 1860 م بخلاف بسيط بين غلامين، ماروني ودرزي في بلدة بيت مري، إحدى بلدات الجبل، ثم تطور الخلاف إلى اشتباكات بين أهالي كل منهما[2]. وعلى إثرها قامت الكنيسة بتوجيه النشاط الماروني، فدعت في مناشيرها التي وزعتها بين الموارنة إلى إعلان الجهاد المقدس ضد كل من يخالف عقيدتهم في الجبل[3].

قام الدروز بالهجوم على قرية مارونية يوم 1 صفر 1276 هـ / 30 أوت 1859 م، لينفجر الوضع بعد انتقال الاضطرابات من قرية إلى أخرى، وانتشار أعمال النهب والحرق والتخريب. غير أنّ الدرروز انهزموا وتراجعوا بعد أن أحرقوا الكثير من القرى، وقتلوا عددا من النصارى[4].

وبإيعاز من الإدارة العثمانية، اجتمع الدروز وقرّروا مُعاودة الهجوم والفتك بالموارنة، فانتشروا في الطرقات والقرى يقتلون وينهبون، وعجز الموارنة عن الردّ بعد أن نُزعت منهم أسلحتهم[5]. وكان ممّا زاد في اشتعال الفتنة وتفاقمها هو توفر السلاح لدى المتخاصمين، بعد أن تدفقت كميات كبيرة منه إلى المنطقة[6].

---

[1] المقدسي، مرجع سابق، ص 198.

[2] أبو شقرا، مصدر سابقً، ص 100. وأنظر أيضا ابكاريوس، مصدر سابق، ص 88. وكذلك ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 60.

[3] مكاريوس، مصدر سابق، ص 75. وأنظر أيضا النفزاوي، مرجع سابق، ص 100.

[4] تشرشل، مصدر سابق، ص 75. وانظر أيضا محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 79.

[5] مشاقة، مصدر سابق، ص 158.

[6] مشاقة، ص 158. وأنظر أيضا محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 80.81.

كان لأخبار هذه الفتنة صداها في سوريا، فما لبثت أن امتدّت في الأسبوع الأول من شهر جويلية 1860 م[1]، شرارتها إلى مُدنها، وفي مقدمتها دمشق، والتحق المسلمون بها بسبب حقوق المساواة التي أضحى يتمتع بها النصارى، واستطالتهم على مقدسات المسلمين، وعبثهم بالشريعة عقب ما نَالُوه من حقوق على إثر حروب القرم، وهي ممارسات أثارت حنق المسلمين[2]. أمّا في فلسطين، فإنّ نزول فرق عسكرية هولندية فيها حَالَ دون وقوع مواجهات طائفية بين المسلمين والنصارى[3].

وهنا وجب علينا التذكير بالدّور التاريخي والمُميّز الذي قام به الأمير عبد القادر الجزائري في تلك الأحداث التي عصفت بدمشق، ومواقفه المشرفة وأعماله البطولية و الإنسانية في السعي لتجنب الفتنة قبل حدوثها، وفي حماية النصارى أثناء تلك المحنة. وهي المواقف التي جعلت منه مفخرة للبشرية ومحل إشادة عالمية[4].

ساهمت فتنة جبل لبنان وأحداث دمشق الطائفية في منح الدول الأوربية المزيد من الحجج للتدخل في الشؤون الداخلية للسلطنة العثمانية. فقد استغلت هذه الدول تلك الفاجعة الأليمة، فنظرت إليها على أنها دليل على فشل السلطة العثمانية في حماية الطوائف النصرانية، ونظرت إليها فرنسا على أنها فرصة لوضع يدها على سوريا وتحقيق حلمها الاستعماري.

---

[1] طرابلسي، مرجع سابق، ص 62.

[2] مشاقة، مصدر سابق، ص 169. وأنظر أيضا محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص ص 82-84.

[3] تشرشل، مصدر سابق، ص 115.

[4] في هذا الموضوع يُراجع:

Un témoin oculaire, op.cit., p. 488.

وأيضا: عبد الحفيظ دحدح، " *موقف الأمير عبد القادر الجزائري من فتنة 1860 م الطائفية على ضوء الكتابات الأجنبية* "، مجلة جيل للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع 28 فيفري 2017 ص ص 101-108.

ففي 15 مُحرم 1277 هـ / 3 أوت 1860 م، عقد مؤتمر في باريس، حضره مندوبو: بريطانيا، وفرنسا، والنمسا، وبروسيا، وروسيا والدولة العثمانية لإيقاف تلك المصادمات الطائفية وحماية النصارى في سوريا[1]. وبذلك تحوّلت قضية لبنان إلى قضية دولية، وأصبحت هذه الأحداث ذريعة للدول الكبرى للتدخل في شؤون الباب العالي لفرض مزيد من الشروط والقرارت التي تخدم مصالحها[2].

حاصرت الأساطيل البريطانية والفرنسية وسِواها من البوارج الأوربية سواحل لبنان[3]، وقادت فرنسا حملة عسكرية برية إلى لبنان، بتفويض من الدول الأوربية لوضع حد لهذه الفتنة الطائفية، ونزلت قواتها في مدينة بيروت بتاريخ 22 محرم 1277 هـ / 10 أوت 1860 م[4]، وهي تردّد الأناشيد الحربية الحماسية ضد الدروز وتتعهد بحماية النصارى[5].

وعندما شعر النصارى بالأمان، بعد انتشار القوات الفرنسية، قاموا بارتكاب الكثير من التجاوزات في حقّ الدروز، فذبحوا أعدادا من الشيوخ والنساء والأطفال[6]. والملاحظ أنّ موقف الباب العالي كان يتسّم بالضعف، فلم يكن بمقدوره حتى الإحتجاج على هذا التدخل، وفي ما كان يحدث في مقاطعاته[7].

وقد تزعّمت فرنسا هذا التدخل على أساس أنّها صاحبة الحق التاريخي في حماية الكاثوليك في الشرق[8]. عندها أسرعت السلطة العثمانية إلى فرض الهدوء بين

---

[1] تشرشل، مصدر سابق، ص 116-117.

[2] Jean Luquet, La politique des mandats dans le Levant, Editions de la Vie universitaire, Paris, 1923, p. 52.

[3] تشرشل، ص 116. وأنظر أيضا الصليبي، تاريخ لبنان...، ص 145.

[4] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 588.

[5] تشرشل، ص 131.

[6] نفسه، ص 131.

[7] النفزاوي، مرجع سابق، ص 62.

[8] وجيه كوثراني، بلاد الشام في مطلع القرن العشرين، ط 3، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2013، ص 201.

أطراف المواجهة خوفا من تطور التدخلات الأوربية في شؤون سوريا، خصوصا بعد أن هدّدت فرنسا بالتوّغل في الداخل السوري، حينها اكتفى قائد القوات الفرنسية بالتمركز في جبل لبنان لحماية الموارنة[1]، واستمرّ وجودها في هذه المنطقة لمدة ستة شهور[2].

بناءً على تلك الأحداث، اجتمع بتاريخ 19 ربيع الأول 1277 هـ / 5 أكتوبر 1860 م ممثلو الدول الكبرى الخمس: بريطانيا، فرنسا، روسيا، النمسا، بروسيا والدولة العثمانية في بيروت من أجل مناقشة الأزمة ووضع حد لها، وإعادة تنظيم جبل لبنان ككيان سياسي له وضع خاص داخل النظام العثماني[3].

طرحت روسيا تقسيم جبل لبنان إلى ثلاث مقاطعات: مارونية ودرزية وأرثوذكسية، لكن الاقتراح رُفض، كما عارضت السلطة العثمانية وبريطانيا والنمسا اقتراحا فرنسيا ينص على عودة حكم الشهابين إلى الحكم في الجبل[4].

واستقرّ القرار على منح الجبل استقلالا إداريا[5]، يُعيّن فيه الباب العالي متصرفا نصرانيا من غير اللبنانيين، يحظى بموافقة الدول الكبرى[6] لمدة خمس سنوات ويساعده اثنى عشر عضوا يمثلون الطوائف[7]، وهو ما عُرف بنظام المتصرفية الذي أُعلن عنه في 10 مُحرم 1278 هـ / 18 جويلية 1861 م[8].

---

[1] Creasy, op.cit., p. 544.

[2] Dentu, op.cit., p. 14.

[3] ريمون هاشم، مرجع سابق، ص 63.

[4] أبو شقرا، مصدر سابق، ص 138. وأنظر أيضا ريمون هاشم، ص 63-64. وكذلك الصليبي، تاريخ لبنان...، ص 147.

[5] للاطلاع على النظام الأساسي المنظم لمتصرفية لبنان، يُراجع: الحداد، مرجع سابق، ص 34-35.

[6] النفزاوي، مرجع سابق، ص 103.

[7] الصليبي، تاريخ لبنان...، ص 148.

[8] مشاقة، مصدر سابق، ص 194. وأنظر أيضا محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 88. وكذلك المقدسي، مرجع سابق، ص 255.

وتواصل العمل بهذا النظام حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وإعلان الانتداب. وبعد أن مُنح جبل لبنان هذا الوضع الخاص داخل الدولة العثمانية، ظهرت تسمية لبنان بخلفيتها السياسية والجغرافية، وهو ما يُثبت بانّ تسمية لبنان لم تظهر في أي وثيقة رسمية قبل هذه المرحلة، وهو ما كنا قد أشرنا إليه في المباحث السابقة.

لقد جعل هذا النظام جبل لبنان مستقلا وقائما بذاته، كما تمّ فصله عن سلطة الباب العالي المباشرة من النواحي الإدارية والمالية والعسكرية. ومع استقرار الوضع الجديد، انتشرت في أذهان النصارى، خاصة منهم الموارنة، فكرة القومية اللبنانية، وكذا مشروع إنشاء كيان يكون حصنا لهم في الشرق. ومع مرور الوقت تحوّل هيكل المتصرفية إلى حاضنة للنظام الطائفي، وأضحت الطائفية هي من يهيمن على جبل لبنان.

وفي أعقاب هذه المواجهات، وبعد استعادة السكينة، أصدر القضاء أحكاما قاسية في حق الزعماء الدروز، لكنّ تدخل بريطانيا في هذا الموضوع حَالَ دون مواصلة الإعدامات[1]. ومنذئذ عمّت ثقافة الطائفية وسادت في جميع جوانب الحياة، في الإدارة والتعليم و سائر الوظائف.

كما تجدر الإشارة هنا، إلى أنّ اليهود اعتبروا إنشاء متصرفية لبنان تحت الرّعاية الأوربية سبيلا وحافزا لحل المشكلة اليهودية، عن طريق إقامة كيان جديد لهم في بلاد الشام على غرار جبل لبنان، فأخذت الكتابات اليهودية تُروّج لهذا المشروع الذي وجد تجاوبا قويا لدى الصحافة في أوربا، خصوصا في فرنسا[2].

[1] بروكلمان، مرجع سابق، ص 573.
[2] النفزاوي، مرجع سابق، ص 324-325.

لقد منحت كل هذه الظروف للثقافة الطائفية القدرة على إعادة إنتاج نفسها في كل فرصة تُتاح لها، خصوصا بعد تراجع سطْوة العائلات الاقطاعية مقابل تصاعد أهمية الانتماء الطائفي، وأيضا في ظل دولة عثمانية مُتداعية، همّها الوحيد هو إخضاع البلاد لسلطانها ولو على حساب التعايش الطائفي.

وفي مقابل هذه الظروف الداخلية، احتشدت المؤامرات والتحالفات الطائفية الخارجية التي تسعى إلى السيطرة وتوسيع النفوذ. وانطلاقا من ذلك، تقاطع التدخل الخارجي في شؤون البلاد، مع تهاوي السلطنة، في تحديد الإطار الذي يتحرّك فيه العنف الطائفي المُتبادل.

2- الدويلات الطائفية.

كان العرب يترقّبون نيل ثمار جُهدهم بعد إغرائهم بالثورة ضد السلطة العثمانية والمشاركة في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء، وتأليف دولة خاصة بهم لكنهم أدركوا عشية نهاية الحرب أنّ تلك التصريحات والوعود المتضاربة التي أطلقها زعماء الدول الحليفة، لم تكن سوى سرابا، غداة إخضاع سوريا للانتداب، وبداية تنفيذ المعاهدات السرية.

لقد بَنَت السياسة الفرنسية مشروعها الاستعماري في مناطق انتدابها على قاعدة التركيز والاهتمام بالخصوصيات الطائفية، وترسيخها تحت مظلة حماية مصالحها وهو المرتكز الذي كان سيُتيح لها ضبط الوضع وتأمينه، والحيلولة دون نشوء أي تحرك جماعي ضد مشاريعها، خصوصا عَقَبة التلاحم القومي التي اشتدّت على يد الأمير فيصل.

في 25 ذو الحجة 1336 هـ / 1 أكتوبر 1918 م دخلت الجيوش العربية دمشق بعد اندحار الجيش التركي، وبعد يومين التحق بها الأمير فيصل[1]، وفي 4 جمادي

[1] هاشم عثمان، تاريخ سورية الحديث، ط 1، رياض الريس للطباعة والنشر، بيروت، 2012، ص 20.

الثاني 1337هـ / 7 مارس 1919 م أعلن المؤتمر السوري العام عن تعيين الأمير فيصل ملكا باسم فيصل الأول[1]. وحظي لبنان في قرارات المؤتمر بوعود تُراعي مصالح سكانه، على أن ينأى بنفسه عن الخضوع للقوى الأجنبية[2].

وفي نفس العام أعلن الأمير فيصل عن إنشاء حكومة عربية مستقلة، تتألف من جميع أرجاء سوريا. حينها تأكّد لدى فرنسا أنّ ثمّة ضرورة لتصفية مشروعه هذا لإنجاح خططها، وتذرّعت بإخفاق الأمير في التحكم في أوضاع سوريا، وارتأت لتأمين البلاد، منح مختلف الطوائف والجماعات الحرية في تشكيل كيانات مستقلة تُرافقها وتُشرف عليها، وهو ما كان يتوافق مع مصالحها[3].

توجّهت القوات الفرنسية صوب دمشق، وتمكّنت من هزيمة الجيوش العربية في معركة ميسلون في 8 ذوالقعدة 1338 هـ / 24 جويلية 1920 م[4]، واحتلال المدينة في اليوم الموالي[5]، ليبدأ معها عهد الإنتداب. أمّا الأمير فيصل فقد خرج من

---

[1] محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 168. وأنظر أيضا هاشم عثمان، مرجع سابق، ص 37. وكذلك

Collelo, op.cit., p. 19.

[2] طرابلسي، مرجع سابق، ص 132.

[3] كوثراني، بلاد الشام في...، ص 227.

لاشكّ في أنّ الوثائق والمستندات الفرنسية هي أهم المصادر والمرتكزات المرتبطة بقراءة تاريخ سوريا في هذه المرحلة، قراءة تقرّبنا أكثر من فهم السياسات الاستعمارية ومخططاتها. وقد قام الدكتور وجيه كوثراني بتضمين الكثير من تلك المستندات في كتابه، ففي مضمار تقسيم سوريا، يورد المؤلف جملة من الرسائل المُتبادلة بين السياسيين الفرنسيين، فيها إشارات وتوصيات تنصح بأولوية تحديد النظام الذي يستجيب بصورة أفضل للمصالح الفرنسية، وهو في هذه الحالة إقامة سلسلة دول مستقلة جمهورية الشكل، تتناسب مع تنوع الأعراف والديانات والحضارات.

وفي موضع آخر تؤكد هذه المراسلات على أهمية الخصوصيات الطائفية والعرقية في ضرب الوحدة القومية التي روّج لها الأمير فيصل، وهو أمر لا يمكن إنجازه إلا من خلال إعطاء كل مجموعة من هذه المجموعات التنظيم الخاص الذي يناسبها، ومنح هذه التجمعات حرية تشكيل كياناتها الوطنية بمرافقة ورعاية فرنسية. أنظر: كوثراني، بلاد الشام في...، ص ص 223-231.

[4] هاشم عثمان، مرجع سابق، ص 45.

[5] Collelo, op.cit., p. 20.

سوريا وتوجّه نحو أوربا، وبقي فيها حتى استدعته بريطانيا لتُنصّبهُ ملكا على العراق في 1921 م، و تُنصّب شقيقه عبد الله ملكا على الأردن[1].

وما كادت الأمور تستقر للإدارة الجديدة حتى بدأت في تقطيع أوصال البلاد على أساس طائفي. فحوّلت فرنسا سوريا الى مقاطعات وأوطان بصبغة طائفية، تكون ركيزة لتوسيع وجودها في المنطقة، وقد برّرت ذلك باختلاف المجموعات البشرية ورغباتها[2]، وصيانة حقوق الطوائف الصغيرة، وتجنيبها الظلم الذي تُمارسه ضدها الطوائف الكبرى[3]. إلى جانب ذلك كان الدروز والعلويون يصرّون على عدم الخضوع لأيّ حكومة عربية[4].

إنّ تحالف المسلمين السنة والنصارى الأرثوذكس على تهميش الطائفة العلوية وتنزيل مكانتها وإخضاعها لسيطرتهم جعلها توغِلُ في عَلَوِيَتِهَا وعزلتها، فلم يكن يُنظر إليهم على أنهم مسلمون[5]. ولهذا اعتبرت فرنسا العلويين جماعة دينية مستقلة عن الإسلام، ولا تنتمي إليه سوى من الناحية النظرية [6]، ولهذا لا ينبغي دمجهم في كيان واحد مع المسلمين. وعلى هذا الأساس، أعلنت إدارة الانتداب بتاريخ 17 ذو الحجة 1338 هـ/ 1 سبتمبر 1920 م عن إنشاء دولة العلويين في المنطقة الساحلية الجبلية المشكلة من أراضي اللاذقية.

وفي 24 ذو الحجة / 8 سبتمبر من نفس السنة، شكلت دولة حلب الممتدة في حلب ودير الزور واسكندرون، ودولة دمشق في 21 ربيع الأول/ 3 ديسمبر،

---

1 Collelo, op.cit., p. 20.

2 Note du Département sur les affaires syriennes pendant le ministère de M. Leygues Ministère des affaires étrangères, Documents diplomatiques français, T1, 1921 (16 janvier-30 juin), PIE-Peter Lang Paris, p. 20.

3 محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 178. وأنظر أيضا لونغريغ، مرجع سابق، ص 150.

4 Luquet, op.cit., p. 63.

5 النفزاوي، مرجع سابق، ص39- 40.

6 كوثراني، بلاد الشام في...، ص 231. وأنظر أيضا لونغريغ، مرجع سابق، ص 160.

والمُشكلة من حماة وحمص ودمشق وطرابلس. وعلى الرغم من أنّ هذه المناطق تسيطر عليها الطائفة السُنية، إلا أنّ الانتداب أقْدم على هذا التقسيم بذريعة الغيرة والتحاسُد الذي يميّز علاقات السكان في حلب ودمشق![1].

وتماشيا مع هذا السياق، وبتاريخ 11 شعبان 1339 هـ / 20 أفريل 1921 م أتشأت إدارة الانتداب دولة جبل الدروز، المحصورة بين دمشق وحدود شرق الأردن وعاصمتها السويداء[2]، لها حاكم محلي ومجلس تمثيلي منتخب، مقابل اعتراف الدروز بالانتداب، والموافقة بوجود مستشارين فرنسيين في الإدارة، ونشر الجيش الفرنسي بمناطقهم[3].

ومن بين الأسباب الأخرى التي دفعت إدارة الانتداب إلى إنشاء الدولة الدرزية هو رغبة فرنسا في سحب الدروز من تحت النفوذ البريطاني. وزيادة على هذه التقسيمات التي أقرتها دولة الانتداب، كانت الإدارة الفرنسية تخطط لإنشاء دول أخرى في سوريا[4].

ولكي تؤكد دولة الانتداب على تبعية هذه الدول المُصطنعة لها، قامت بإنشاء عَلَم خاص بكل دولة، ويحمل كلٌ منها في زاوية من زواياه العلم الفرنسي[5]. كما تولّى موظفون فرنسيون وحكام محلّيون موالون للانتداب السلطة في هذه الدول الطائفية[6]. وزيادة على ذلك، قامت دولة الانتداب بتشجيع الموالين لها من رجال

[1] كوثراني، بلاد الشام في...، ص 231. وأنظر أيضا لونغريغ، مرجع سابق، 161.
[2] محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 185. وأنظر أيضا هاشم عثمان، مرجع سابق، ص 56-57.
[3] الاتاسي، مرجع سابق، ص 97.
[4] Note du Département sur les affaires syriennes…, op.cit., p. 21.
[5] محمد كرد علي، مصدر سابق، ج 3، ص 186.
[6] بروكلمان، مرجع سابق، ص 763. وأنظر أيضا الاتاسي، ص 93.

الدين والسياسة بكتابة رسائل يُثنون فيها على الانتداب ومحاسنه إزاء الأصوات التي كانت تنادي برفض التفتيت، وتُصرّ على وحدة سوريا[1].

مع تزايد حدة المعارضة، وكثرة الناقمين على تقطيع سوريا، واصطدام هذه التجزئة مع المشاعر الوطنية ومرارة التفتيت، قامت إدارة الانتداب في 3 ذو القعدة 1340 هـ / 28 جوان 1922 م، للقضاء على هذه المعارضة، بتشكيل مجلس اتحادي من دول: دمشق وحلب والعلويين، واتخذت القرار بتنزيل هذه الدول إلى رتبة الولايات[2]. ولم يبق خارج هذا الاتحاد سوى الدروز، الذين امتنعوا عن الانحراط فيه[3].

غير أنّ الانتداب مالبِث أن عاد وفصل العلويين عن هذا الاتحاد في 10صفر 1341هـ / 2 أكتوبر 1922 م وأقام لهم دولة تألفت من اللاذقية وطرسوس وجبلة وبانياس وصافينا ومصياف[4]، فالعلويون كانوا يفضلون الاندماج مع لبنان وليس

---

[1] Le mandat devant les faits : la France en Syrie et au Liban 1916-1926, Emile Larose, Editeur, Paris.

تضم هذه الوثائق مراسلات من زعماء وشخصيات وحكام محلّيون في الدول التي أنشأها الانتداب الفرنسي في سوريا، وهم من الذين رحّبوا بالانتداب، إلى عصبة الأمم ورئيس الجمعية الوطنية الفرنسية والمفوض السامي الفرنسي في بيروت، وهي رسائل يُؤكّد فيها أصحابها وقوفهم إلى جانب دولة الانتداب، وأشاروا إلى محاسن الإدارة الفرنسية للمنطقة.

إنّ هذا التواطؤ من قِبَل تلك الاطراف يبرز قدرة إدارة الانتداب على تجنيد المراجع الدينية وبعض القوى السياسية في صفّها. وجاءت هذه المراسلات كرد فعل على حضور أعضاء من اللجنة السورية الفلسطينية في اجتماع مجلس عصبة الأمم، بجنيف في خريف 1921 م للنظر في شروط الانتداب المفروض على سورية، وهو الاجتماع الذي تقدّم فيه الوفد العربي بمطالب يرفض فيها سياسة التفتيت التي تبنتها دولة الانتداب منذ أن وضعت يدها على سوريا. وإلغاء الانتداب وتحقيق الاستقلال لكل المكونات الطبيعية لسوريا.

[2] بروكلمان، مرجع سابق، ص 763. وأنظر أيضا لونغريغ، مرجع سابق، ص 165. وكذلك Collelo, op.cit., p. 20.

[3] Luquet, op.cit., p. 76.

[4] كوثراني، بلاد الشام في...، ص 231.

سوريا[1]. وفي 5 جمادي الثاني 1343هـ / 1 جانفي 1925 م أصدرت قرارا بدمج وبتوحيد حلب ودمشق تحت اسم الدولة السورية، وعاصمتها دمشق[2].

بقي الوضع السابق على حاله حتى 22 جمادي الثاني 1355 هـ / 9 سبتمبر 1936 م، حيث عادت المقاطعات الدرزية والعلوية إلى الدولة السورية بعد توقيع اتفاقية مع دولة الانتداب. كما نصّت تلك الاتفاقية على استقلال سوريا، غير أنّ جماعات المصالح الاستعمارية في فرنسا عارضتها، وتصدّت لها بقوة، ممّا حال دون التصديق عليها في الجمعية الوطنية[3].

واليوم، نرى أنّ المسألة الطائفية تُطرح في هذه المنطقة بشكل لم يسبق في أي حقبة من حقب التاريخ، من حيث الحدّة والخطورة. إذ تعالت الأصوات الداعية إلى الهويات العرقية والدينية والمذهبية، التي تنامت وتكاثرت، وراحت كل جماعة تطالب بتفعيل هويتها، انطلاقا من طلب العون والنجدة من الأطراف الخارجية لتعزيز موقفها.

إنّ مصلحة القوى الخارجية كانت على الدوام، تقتضي منها السعي لتكريس الصراعات الطائفية وتعميقها، فباتت تلك التقسيمات الاستعمارية، التي أشرنا إليها تُستدعى وتُبعث لوضع المنطقة برمتها على مشرحة التقسيم مُجدّدا. فنحن نشهد منذ مّدة توجهات وسياسات خطيرة لتمزيق هذه البلاد وغيرها، من خلال تغذية الطائفية ودَقّ الأسافين.

---

[1] لونغريغ، مرجع سابق، ص 165.

[2] كوثراني، بلاد الشام في...، ص 270 - 271. وأنظر أيضا: هاشم عثمان، مرجع سابق، ص ص 63-65.

[3] الاتاسي، مرجع سابق، ص 136-137 وأنظر أيضا: طرابلسي، مرجع سابق، ص 169.

خاتمة

إن ما طمح إليه هذا العمل، هو إلقاء الضوء على الطائفية في بلاد الشام خلال القرن 13 هـ / 19 م، في مرحلة حسّاسة ودقيقة من تاريخ الدولة العثمانية بغرض دعم ثقافة التسامح والمواطنة، كمعالم رئيسية نحو نهضة إسلامية طال انتظارها. وأيضا المساهمة في التراكم المعرفي لجهة فهم هذه الظاهرة وتشخيصها، وإدراك سياقاتها التاريخية، ثمّ محاولة علاجها. وقد قادتنا فصول العمل ومضامينه إلى جملة من الاستنتاجات والخُلاصات، يمكن حصرها في النقاط التالية:

أولا: يعتبر التجانس داخل المجتمع أحد أبرز ركائز تماسك المجتمع والسلطة، وممّا لا ريب فيه أنّ التعامل غير السليم من طرف الجماعة الحاكمة مع التنوع الطائفي يجلب ويلات ومصائب كثيرة على الطرفين، انطلاقا من شعور طائفة ما مختلفة عن الأغلبية السائدة، بالتهميش الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي.

ولا شك في أنّ ردّ فعل الطائفة المُستهدفة بالعنصرية على ذلك التهميش، هو الإغراق في التمركز حول النفس والمصلحة، والدوران حول هوية جارفة وقاتلة أو بالتطرف في المطالب السياسية أو بالانطواء على الذات، بل قد يتطور ردّها إلى الانخراط في العنف.

وممّا لا يخفى أنّ النّزَعَات الطائفية في عموم عالمنا الإسلامي لا تزال ماثلة بقوة، تُبعثُ في كل وقت، وتنتظر فقط الفرصة المناسبة لتفجير السلم وبُنيانِه وإعادة عقارب الساعة إلى الوراء. ولهذا لا يمكننا أن نُنْكر بأنّ الطائفية من أشدّ وأنكى الآفات التي كانت ولاتزال تنخر جسد الأمة، وتَتَسَبب في فتن دموية. ودراسة هذه الظاهرة، والإحاطة بها من جميع الجوانب بَاتَ أكثر من ضرورة. فإذا لم نفقه هذه الحالة، وعَزَفنا عن محاولة فَهْمها في منطقتنا، فإننا نحكم على أنفسنا بإعادة مآسيها.

إنّ الاهتمام بقضايا الطائفية في بلاد الشام يقتضي منا الإقرار بوجود الطوائف وعدم إنكار الحقائق التاريخية، ولا شك أن التنوع في المجتمع يُفترض به أن يكون سبيل لإغناء الحياة في أوطاننا، لكنه تحول في هذه البقعة، في الفترة الزمنية محل الدراسة، الى مصدر للشرور، بعد أن اكتسحها الوباء الطائفي، وفرضت على الفرد التشبُث بجماعته والذوبان فيها، بحيث أصبحت كلٌ منها تشكل وحدة متماسكة في مواجهة الجماعات الأخرى، فالطائفة تحوّلت إلى الوطن في حياة الأفراد في هذه البلاد.

ثانيا: حين نتحدث عن العوامل التي تغذى الطائفية، فإننا نتحدث عن تضافر مجموعة مُركبة من المولّدات وفي صدارتها تلك الداخلية. فالمشروع الاستعماري زرع بذور الطائفية في أرض كانت مهيأة لتقبلها، وصالحة لإنتاجها من خلال نظام الملل والترتيبات الإدارية العثمانية التي ارتكزت على تقسيم السكان الى رعايا وملل على قاعدة طائفية وليست جغرافية، ممّا ساعد الامتيازات الممنوحة، والارساليات النشطة والمدارس التعليمية في تفكيك بنية تلك التنظيمات.

لقد كان أساس نظام الملل العثماني هو منح الطوائف غير المسلمة نوعا من الحرية في تدبير وإدارة شؤونها الدينية الداخلية بالدرجة الأولى، إلا أنه كان الثغرة التي وجدت فيها بعض الطوائف مدخلا للاستقلال، واعتبار نفسها أمة منفصلة عن الدولة، لها الحق في ترتيب علاقاتها الخارجية مع القوى الأجنبية، وكانت هذه الثغرة هي الفرصة الذهبية للأعداء للتسلل وبث السموم الطائفية.

لقد وظفت هذه الطوائف امتياز وسماح السلطة العثمانية لدول أوربا بلعب دور الرعاية للطوائف الشامية. فعلى الرغم من حسنات السلطنة العثمانية في تسامحها مع المكونات الطائفية، فقد كانت مسألة الطوائف وترتيب شؤونها في إطار نظام المِلل، عامل سقوط، بعد أنْ أحدث ذلك التدبير زلزالا كبيرا في النسيج الاجتماعي للدولة، وفرز سكان السلطنة طائفيا.

ثالثا: إنّ حركة الإصلاحات العثمانية خلال القرن 13 هـ / 19 م ساهمت في تمتين الروابط داخل الطائفة الواحدة وتقويتها من جانب، وهشاشة الولاء السياسي والاجتماعي للدولة في جانب آخر، وهذا على الرّغم من أن هذه الاصلاحات كانت محاولة لبناء رابطة تُوحد عناصر المجتمع المتنوعة ضمن الانتماء العثماني.

لقد أضحت الأقليات، نتيجة تلك الإصلاحات، حرّة في تسيير شؤونها الداخلية وبناء مؤسساتها وتكوين هوية مستقلة، سرعان ما تحركت صوب مطلب الاستقلال والانفصال. وعليه، يمكننا أن نشدّد في هذا السياق على أنّ الإصلاحات التي أجرتها السلطة العثمانية كانت هي الباب الواسع الذي دخلت منه القوى الأجنبية لتفكيك نظام الملل العثماني.

لم يكن أمام السلطة العثمانية مَفَر من الإصلاح، فقد كانت تواجه خلال هذا القرن في أكثر من منطقة، وبالأخص في الأقاليم البلقانية، مشكلة الثورات وتنامي الروح القومية، فكانت على استعداد لاستخدام كل الوسائل المتوافرة لتمنع تفتت بلاد الشام وخروجها من قبضتها، وكان من هذه الأساليب الاعتماد على طائفة معينة ضد بقية الطوائف. فالنظام العثماني الذي قلّدَ الإصلاحات الأوربية، والقوانين المتلاحقة في هذا المضمار، جعلته يقف عاجزا عن السيطرة على الطوائف وضبطها، خاصة في عصر اشتدّت فيه التيارات القومية، وتعاظم فيه الهَوَس الاستعماري.

عندما ظهر بأنّ السلطة العثمانية مُشرفة على الزوال، وطمعت كل واحدة من الدول الأوربية أن يكون لها نصيب الأسد في تركتها، اجتهدت هذه السلطة في تجهيز العُدّة لمواجهة هذا الظرف، منطلقة من قاعدة (فرق تسد) لتحافظ على كيانها، فراحت تغذي الصراعات الطائفية حتى تستعيد هيمنتها على المناطق التي كانت تتمتع بالاستقلالية، مثل جبل لبنان، الذي كان على الدوام محل صراع ونزاع بين الدروز والموارنة. لذا يمكننا التأكيد على أنّ الطائفية في بلاد الشام هي حصيلة

تقاطع الطمع الاستعماري الأوربي مع حركة التحديث والإصلاح داخل السلطنة.

رابعا: لا يمكننا الحديث عن الطائفية بمعزل عن الوجه الآخر لها، والمتمثل في الاستبداد. فالأخير، وعلى الدوام، يَعْجز عن إنتاج مُناخات ثقافية واجتماعية وسياسية بعيدة عن الولاء الطائفي. فلطالما لجأ المُستبدون إلى تأجيج الطائفية في سبيل استخدامها لخدمة مصالحهم وأغراضهم، ولو كان ذلك على حساب وحدة المجتمع وتماسكه، وهو ما يؤكده الشاعر في قوله:

بَلَـدي كَـمْ صَـنَـمًا مَجّـدتَـهُ لا يَحْـمِلُ طُـهْـر الصّنَـمِ

لا تَلُومي الذئبَ في عُدْوانِهِ إن يَكُ الرّاعِي عَدُوَ الغَنَمِ

فمن الثابت تاريخيا أنّ الدولة العثمانية وضعت مواثيق والتزمت بها تُجاه رعاياها في مختلف أطوار تاريخها، وعلى رأسها التسامح الديني الذي انعكس إيجابا على كل الطوائف والمذاهب، إلا أنّ ذلك لم يمنع ظهور تصرفات وتجاوزات مُنحرفة عن تلك المواثيق، خصوصا من طرف المسؤولين والحكام المحليين، الذين يتواصلون بشكل مباشر مع الرعية.

خامسا: لم تكن الطائفية وليدة مولّدات داخلية فحسب، بل كانت وليدة عوامل خارجية أيضا، لأن تفجيرها، أي الطائفية، تمّ في إطار مشروع استعماري لتفكيك الدولة العثمانية، وعليه فقد تعددت صِيَغ التعامل الوظيفي مع الطوائف لخدمة هذا الغرض. إذ وجدت الدول الأوربية أنّ الخطوة الأولى في مشروعها للسيطرة على بلاد الشام تستوجب توظيف الطائفية عن طريق كل أشكال التحريض، وإثارة طائفة ضد أخرى، أوفي رعاية طائفة على حساب أخرى.

منذ القرن 13 هـ / 19 م، وهو القرن الذهبي لبداية التواصل بين أوربا وبلاد الشام، وانطلاق الرحلات الأوربية صوبها، خاصة جبل لبنان، توسّلت هذه الدول الطائفية في الصراع فيما بينها، وفي صراعها مع الدولة العثمانية على هذه الأرض

فَغَذّت الطائفية وتعهدتها بالمال والدسيسة. فلا مشاحة في أنّ للسياسة الدولية يد ملموسة في إثارة واستثمار المشاعر الطائفية بما يخدم مصالحها، من خلال التفرقة وتفجير العداوات بين مختلف الطوائف.

فالتدخلات الخارجية أضرّت بوضع الأقليات الدينية في بلاد الشام بعد أن استخدمت كأدوات في صراع القوى الأوربية، إلى جانب أنّ هذه التدخلات كانت عاملا في تحديد موقف الأغلبية المسلمة المُريب والمُشكّك بشأن ولاء النصارى الذين اتهموا بالتآمر والتحالف مع أعداء الإسلام، لا سيما بعد الحملة المصرية التي جعلت من بلاد الشام جزءا من المسألة الشرقية، حيث اشتدت وتيرة التدخل الأجنبي إمعانا في تفكيك نظام الملل، خصوصا مع بداية الصِّدامات الدموية الطائفية بين الدروز والموارنة.

زيادة على ما سلف، فقد تعرضت بلاد الشام في هذه المرحلة إلى حملة حضارية شرسة، صوّبت جلّ اهتمامها ودراساتها إلى عنصر التعدد الطائفي، وتقسيم المجتمع الشامي لجماعات متعددة، تتحكم فيه أغلبية طاغية مقابل أقليات مطحونة. ووظفت تلك الدراسات في الترويج لصورة نمطية عن هذه البلاد، مبنية على رؤية طائفية، مُتعمّدَة فيها إبراز النصارى كضحايا للأكثرية المسلمة في جانب، وتغوّل السلطة العثمانية في جانب آخر، وهو الأمر الذي شكّل نقطة البداية للمشروع الطائفي، وذريعة لتبرير التدخل. ولذلك وجب التأكيد على أنّ السياسة الدولية كان لها يد ملحوظة في تفجير المشاعر الطائفية، بما يخدم مصالحها من خلال التفرقة واثارة العداوات بين مختلف الطوائف.

سادسا: كان جبل لبنان دوما هو منطلق الصراع الطائفي في الشام، فلم يكن نظام تقسيم جبل لبنان بين الدروز والموارنة بقرار عثماني أوربي، وإعادة رسم حدوده على أساس ديني طائفي، بعد خروج الحملة المصرية، سوى مخطط سياسي سمح

بمزيد من الصدامات بين سكانه، وبمزيد من التدخل الأجنبي على صعيد إثارة الأحاسيس الطائفية.

زيادة على ذلك، فإنّ التنافس بين الزعامات الروحية المحلية والأمراء داخل الجبل أدى الى قيام عصبيات إقطاعية استندت في خلافاتها إلى الطائفية كورقة رابحة لكسب ميل الشعب، وصيانة مكاسبها، ومع مرور الوقت تسربت تلك الخلافات إلى طبقات المجتمع. وقد بَدَتْ تلك الانقسامات جَلّيَة، في وجه من وجوهها، حَيالَ مسألة تأسيس لبنان الكبير. فبقدر ما كان الموارنة بزعامة الكنيسة يُساندون قيام هذا الكيان، كان مُعارضوه من السنة والدروز متمسكون بالعروبة، ومشروع الأمير فيصل في سوريا الموحدة المستقلة.

سابعا: ورث العالم الإسلامي، مثلما ورثت شعوب العالم جميعها، تكوينات بشرية متباينة ومتخاصمة أحيانا، ولا يوجد مجتمع اليوم غير قائم على جماعات متعددة ومختلفة. والبحث عن مخارج واقعية ومناسبة لمشكلات الطائفية، من خلال التسامح وتبني التعددية السياسية والثقافية، هو المدخل الصحيح لقيام مجتمع قوي. فالطائفية ليست أزمة فِطرية غير قابلة للعلاج، ولا هي قدر لا مهرب منه، مكتوب علينا فيه مُكابدة مآسيها، بل هي نتاج خيارات وعصبيات بشرية، ولهذا يمكن التخلص منها بنشاطات وأفعال بشرية مناسبة.

إنّ فهمنا للطائفية على ضوء ما ورد في مضامين هذا العمل لا ينفصل عن قناعتنا العميقة بأنّ العمل يفرض علينا مسالك جديدة في التعاطي مع هذه الحالة تقود الى تغيير أدوات العمل والخطاب. فالسائد اليوم - مثلا - هو تَوهُّم الكثير منّا أنّ تعزيز الخصائص الثقافية للطوائف بأبعادها المختلفة، قد يؤدي إلى تفكك المجتمع والوطن عِوضا عن وحدتهما، فانتشرت في وقت من الأوقات باسم القومية وغيرها من العناوين، الدعوة إلى فرض ثقافة الأغلبية على الطوائف الصغيرة

بدعوى الانصهار الثقافي، وهي دعوى لا يمكننا وصفها إلا بأنها ضرب من المستحيلات.

ولا غَرْو في أنّ هذا الانصهار الذي يطرحُه هؤلاء غالبا ما يتحول الى قهر ثقافي تحت مُسميات الوحدة والتماسك، فليس المطلوب تنميط المجتمع وإخضاع مكوناته لنمط ديني أو ثقافي واحد. فالوحدة، في تقديري، ممكنة من خلال التنوع ذاته، باحترام الخصوصيات الثقافية والدينية، والحِراك الاجتماعي المبني على الحوار، وتبادل الخبرات الثقافية.

إنّ بُلوغ ذلك الهدف لا يمكن تحقيقه إلا تحت سقف قَبول الآخر بدَل النُفور والإلغاء، وهو بدوره سقف لا يمكن تجسيده إلا بالتحرر من مرض العنصرية والمساواة ومسائل حقوق الانسان والديموقراطية وتكافؤ الفرص، وهي السُبُل الوحيدة للخروج من التّركة التاريخية الموروثة.

إنّ ما ذكرناه آنفا يجب أن يكون مبنيا على تكوين وعي جديد وإيمان راسخ بدولة المواطنة في إطار الدولة الحديثة المرتكزة على القانون، وعلى رابطة جامعة تعلو على الروابط الطائفية والمذهبية والعرقية. إذ أنّه من ضمانات الحلول الأوّلية لمشاكل الطائفية، قيام مشروع إصلاح سياسي ينبني على الدولة المدنية الحديثة التي يكون أساس وجودها المساواة بين المواطنين، والتّعامل معهم كأفراد ضمن رابطة سياسية واحدة، لا يكون فيها لأحد منهم علامة فارقة أو امتياز على الآخر.

فلا شك في أنّ تبنّي الدولة لعصبية طائفية معينة هو الذي يُوجِد عصبيات اجتماعية تُدخل الدولة لمستنقع الطائفية، على عكس طبيعة الدولة المدنية التي تتعالى عن جميع الانتماءات والهويات، وتجتهد في بناء إجماع سياسي تتلاشى فيه العصبيات، وتذوب فيه المشاعر الطائفية، بما لا يتناقض مع هوياتها الخاصة.

ومن العِلاجات الأخرى للمشكلة الطائفية لإحداث مناعة ضدها، اللجوء إلى التخلّص من الارتهان للموروثات التاريخية، التي كانت دوما عوامل إشعال الفتن وتعميق الأحقاد التاريخية. فنرى الأمة اليوم تَحْتكِم إلى تلك الموروثات في إدارة اختلافاتها، على الرغم من أنّ استدعاء تلك المرويات والسرديات السلبية هو مجرّد جدل بيزنطي عقيم، لن يغير في حال الأمة، فقد غَدَت تتجاهل ما يجمعها، وتصرّ على التمسّك بطرح ما يُشتتها ويمزقها.

الملاحق

المُلحق رقم 1: خريطة الدولة العثمانية خلال القرن 10 هـ / 16 م.

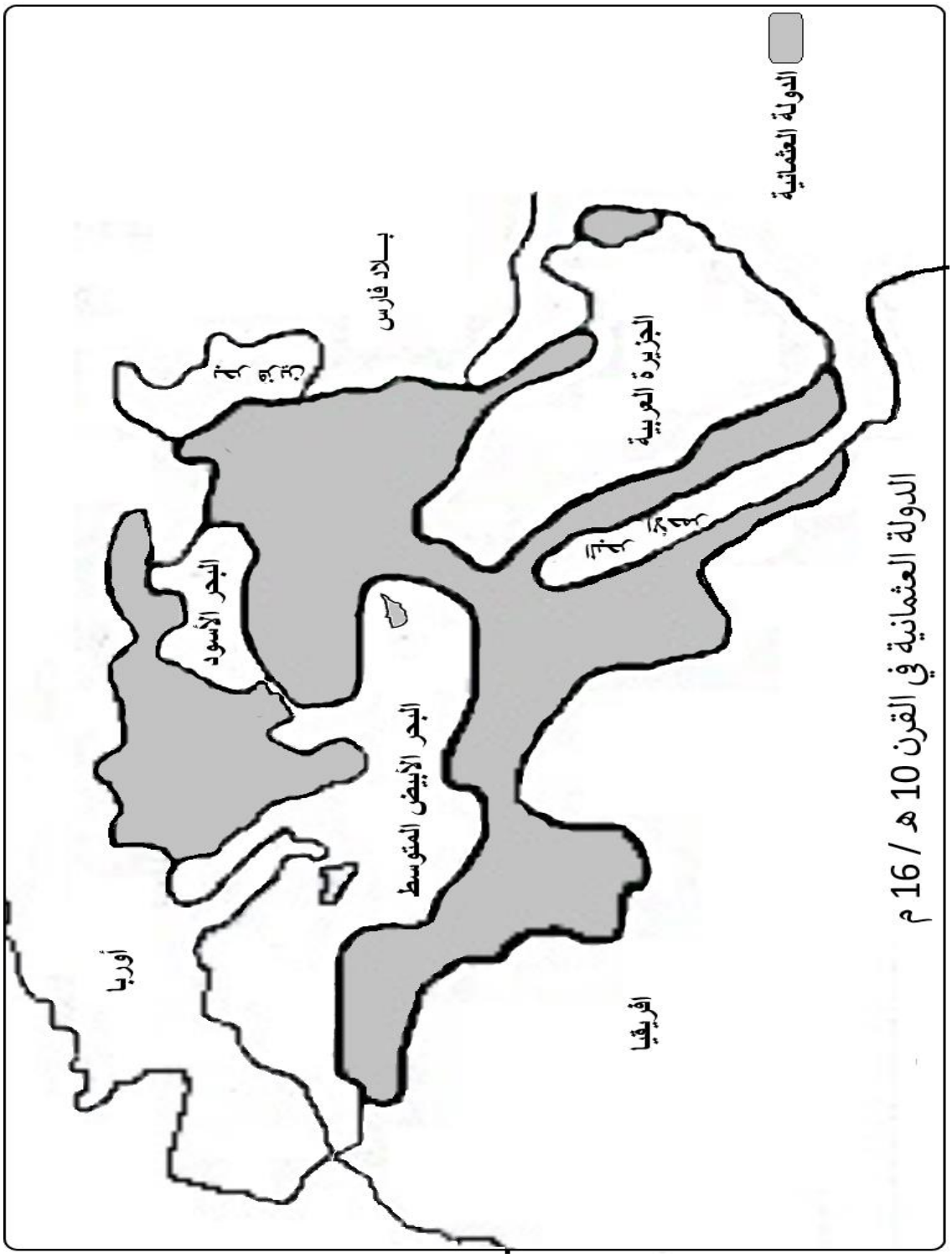

إنجاز الطالب

المُلحق رقم 2: خريطة الدولة العثمانية في أواخر القرن 13 هـ / 19 م.

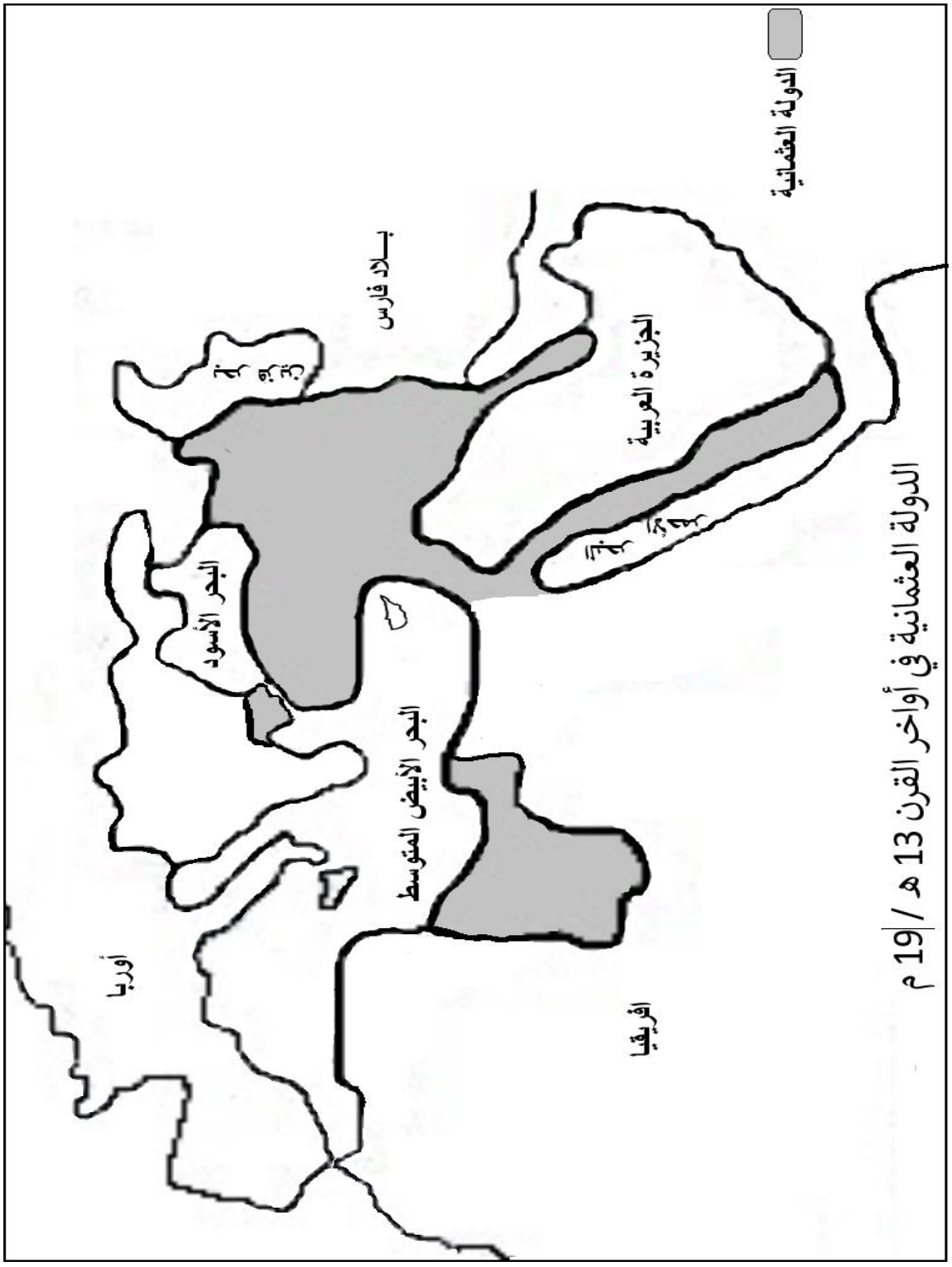

إنجاز الطالب

المُلحق رقم 3: خريطة بلاد الشام من خلال التخوم الواردة في المذكرة.

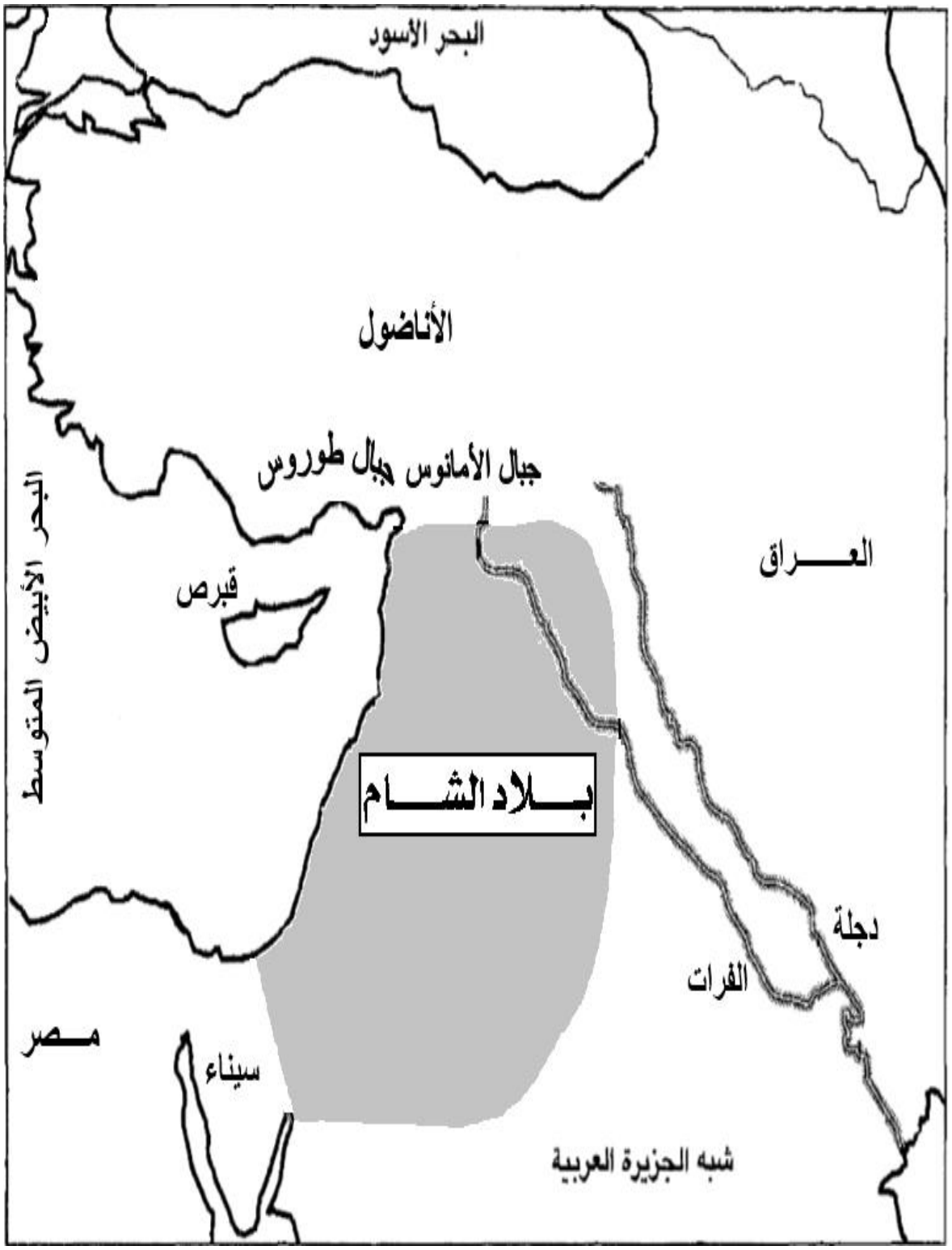

إنجاز الطالب

المُلحق رقم 4: خريطة اتفاقية سايكس-بيكو 1334 هـ / 1916 م[1].

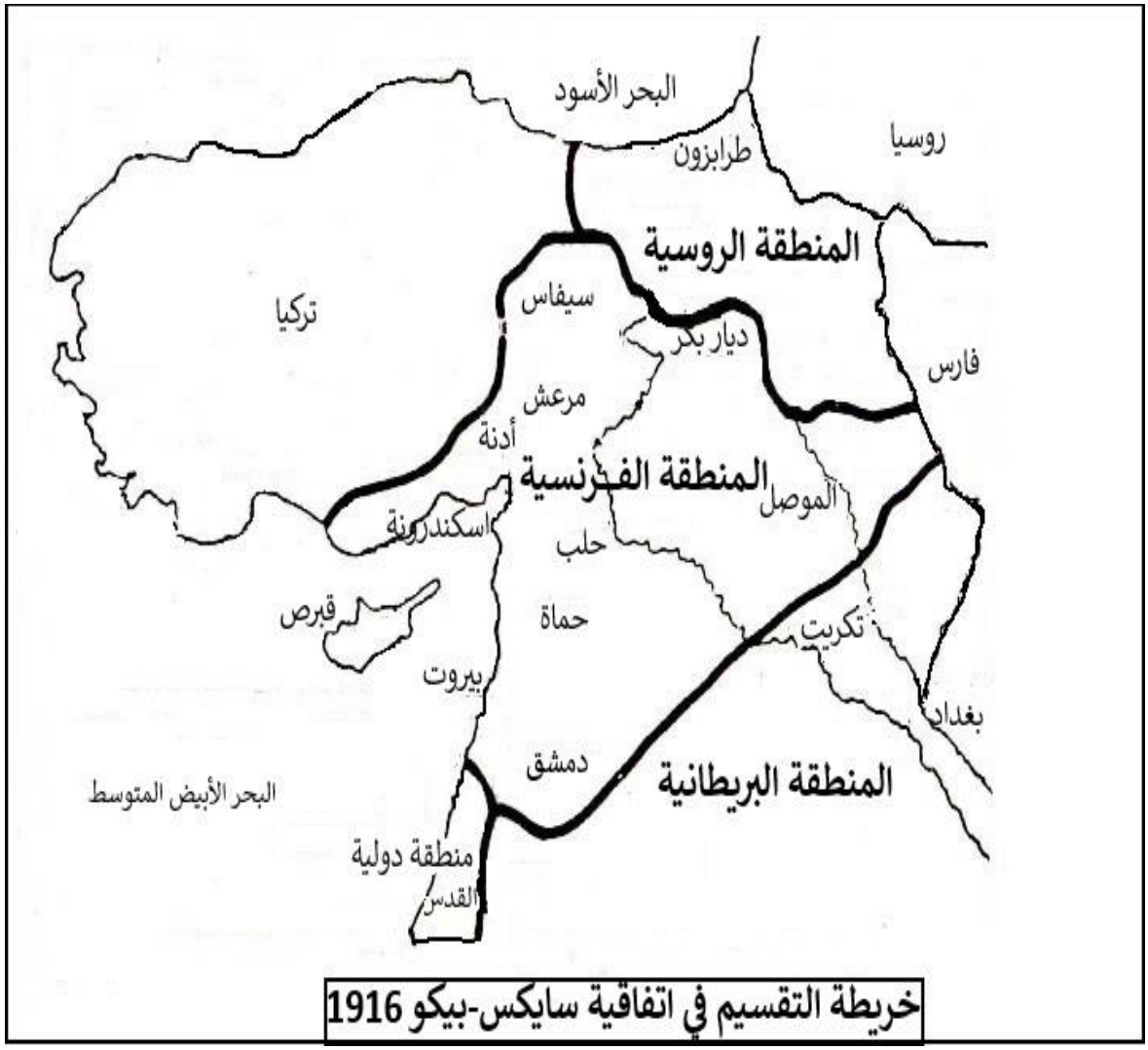

إنجاز الطالب

[1] أنجزت الخريطة من خلال المعطيات التاريخية الواردة في الكتاب التالي:
Dominique Perrin, op.cit., p. 130-131.

المُلحق رقم 5: خريطة تقسيم بلاد الشام في عام 1338 هـ / 1920 م[1].

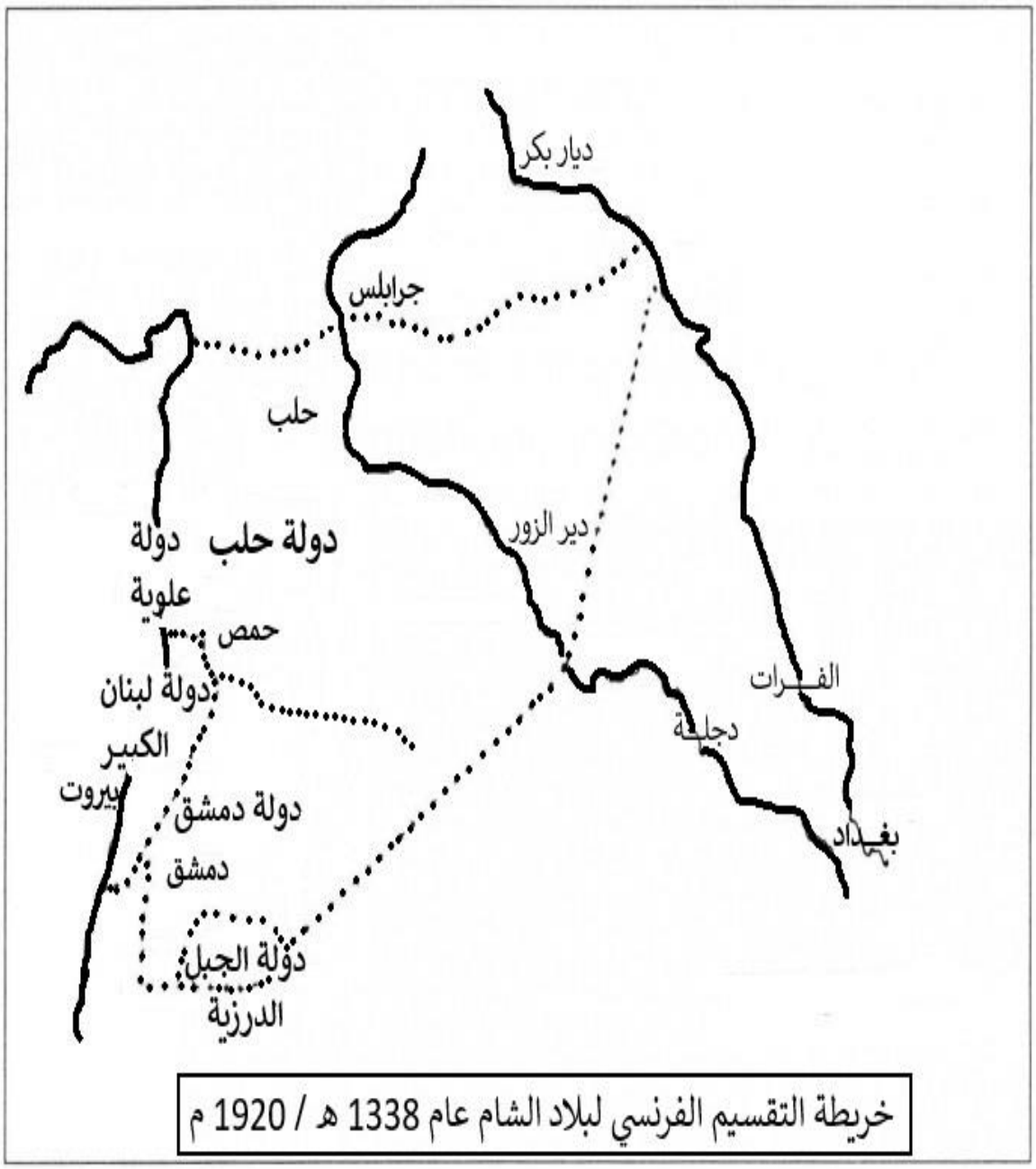

إنجاز الطالب

[1] أنشأت فرنسا الاتحاد السوري بين دويلات حلب ودمشق والعلويين، بينما أبقت على لبنان الكبير ومنطقة الدروز خارج هذا الاتحاد. وقد أنجزت هذه الخريطة من خلال المعطيات التاريخية الواردة في الكتاب التالي:
Nadim Shehadi and Dana Haffar-Mills, ***Lebanon: A History of Conflict***, the Centre for Lebanese Studies and I B Tauris, 1988, p. 7-8.

المُلحق رقم 6: الخريطة الحالية لبلاد الشام.

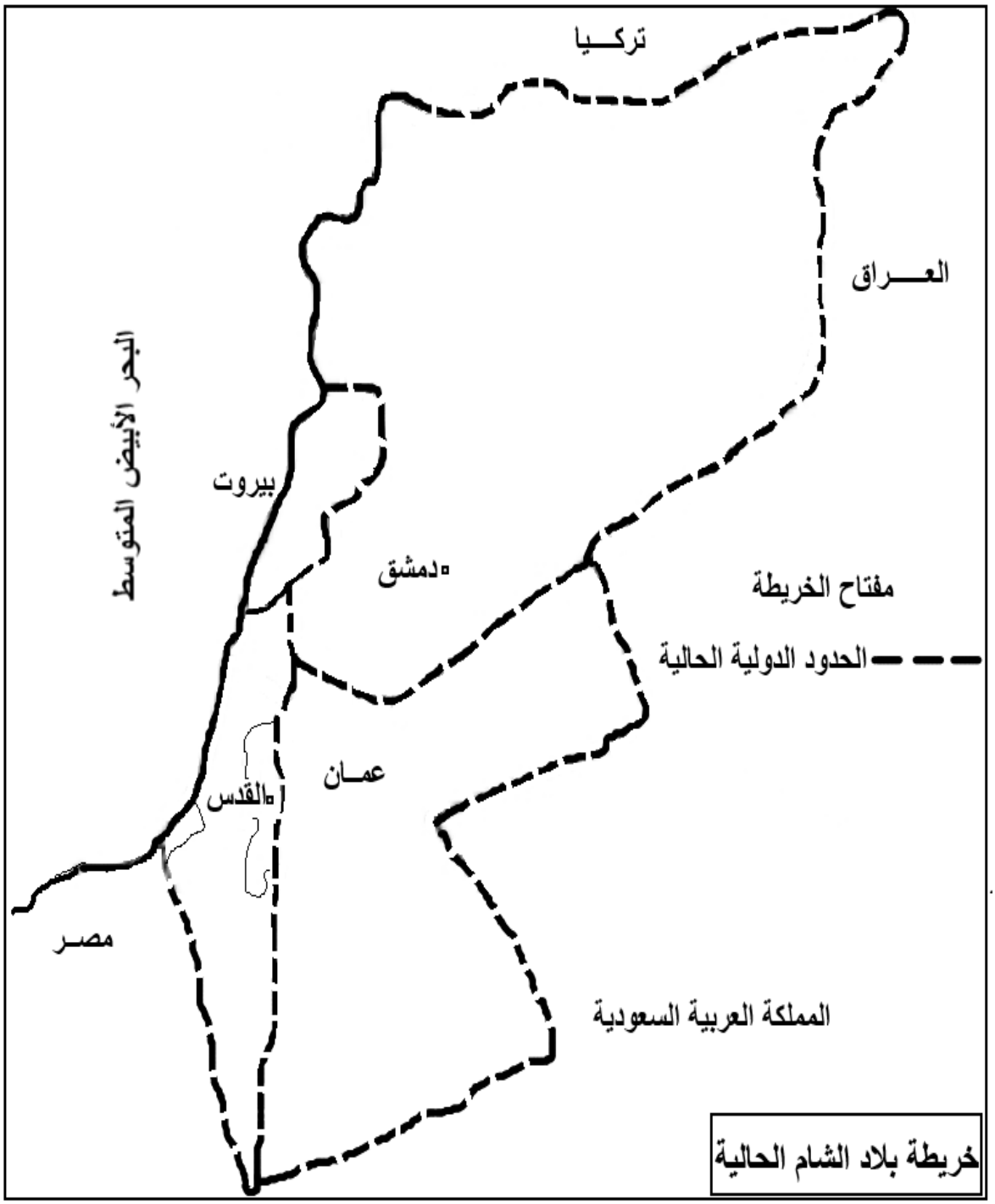

إنجاز الطالب

المُلحق رقم 7: خريطة مقترحة لتقسيم المنطقة من منظور طائفي[1].

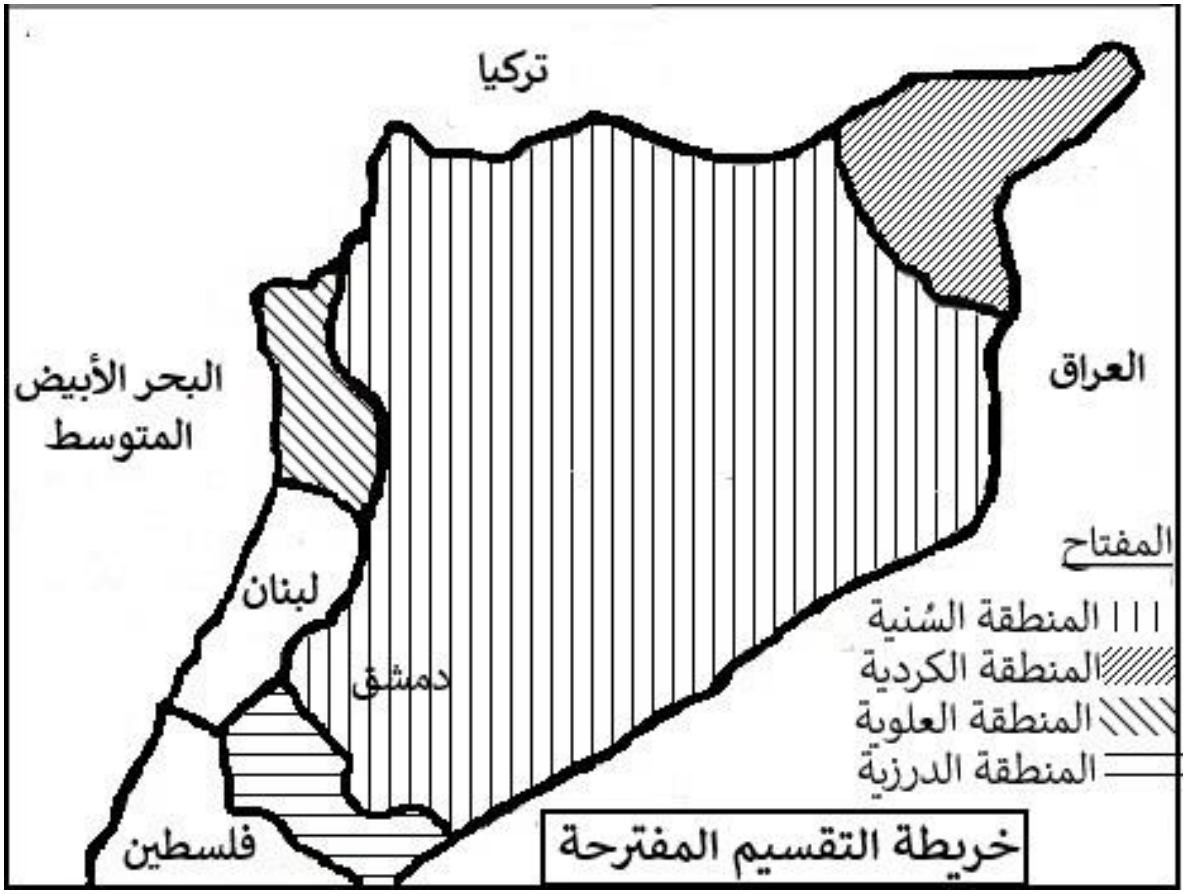

إنجاز الطالب

[1] يمكننا أن نجزم، ونحن نري بأعيننا ما يجري في بلاد الشام، أن القاعدة التي يتعاطى من خلالها الغرب مع العالم الإسلامي، مبنية على اعتقاد قديم وثابت، بأن التقسيم والتفكيك هو فعل ضروري وحتمي لاستمرار سيطرته وهيمنته. ولهذا يتسابق المؤرخون والساسة وغيرهم، في وضع تصاميم وتصورات مستقبلية لما أُطلق عليه الشرق الأوسط الجديد. وقد اخترنا في هذا السياق آخر تلك التصاميم، التي ظهرت على الساحة، وهو لرالف بيترز (Ralph Peters)، نشره في مجلة القوات المسلحة الأميركية. ففي قراءة متأنية لهذا االمقال نجد صاحبه يتحدّث عن كيف يكون الشرق الأوسط الأفضل، ويبدأ مقاله بالأسى والحسرة على وضع الأقليات الدينية والعرقية في المنطقة، وأنّ التقسيمات السابقة البشعة، ويقصد هنا تقسيم سايكس-بيكو، كانت مُجحفة في حقّ هذه الأقليات. ثم يستعرض تصوره للوضع الذي يجب أن يكون عليه الشرق الأوسط، ويطرح تقسيما تظهر فيه دويلات طائفية جديدة. ويُنهي مقاله بالتصريح بأن مُقترحهُ هذا لا يمكن تجسيده في الواقع إلا بسفك دماء كثيرة. وهو ما نراهُ ماثلا وواقعًا أمامنا تماما. والملاحظ هو التشابه الكبير بين ما اقترحه صاحب المقال في تصوُرِه للتقسيم، وبين خريطة التقسيم الفرنسي لعام 1338 هـ / 1920 م. أنظر المقال:

Ralph Peters, "***How a better Middle East would look***", Armed Forces Journal, June 1 2006, pp. 1-5.

المُلحق رقم 8: خريطة لأهم حواضر بلاد الشام.

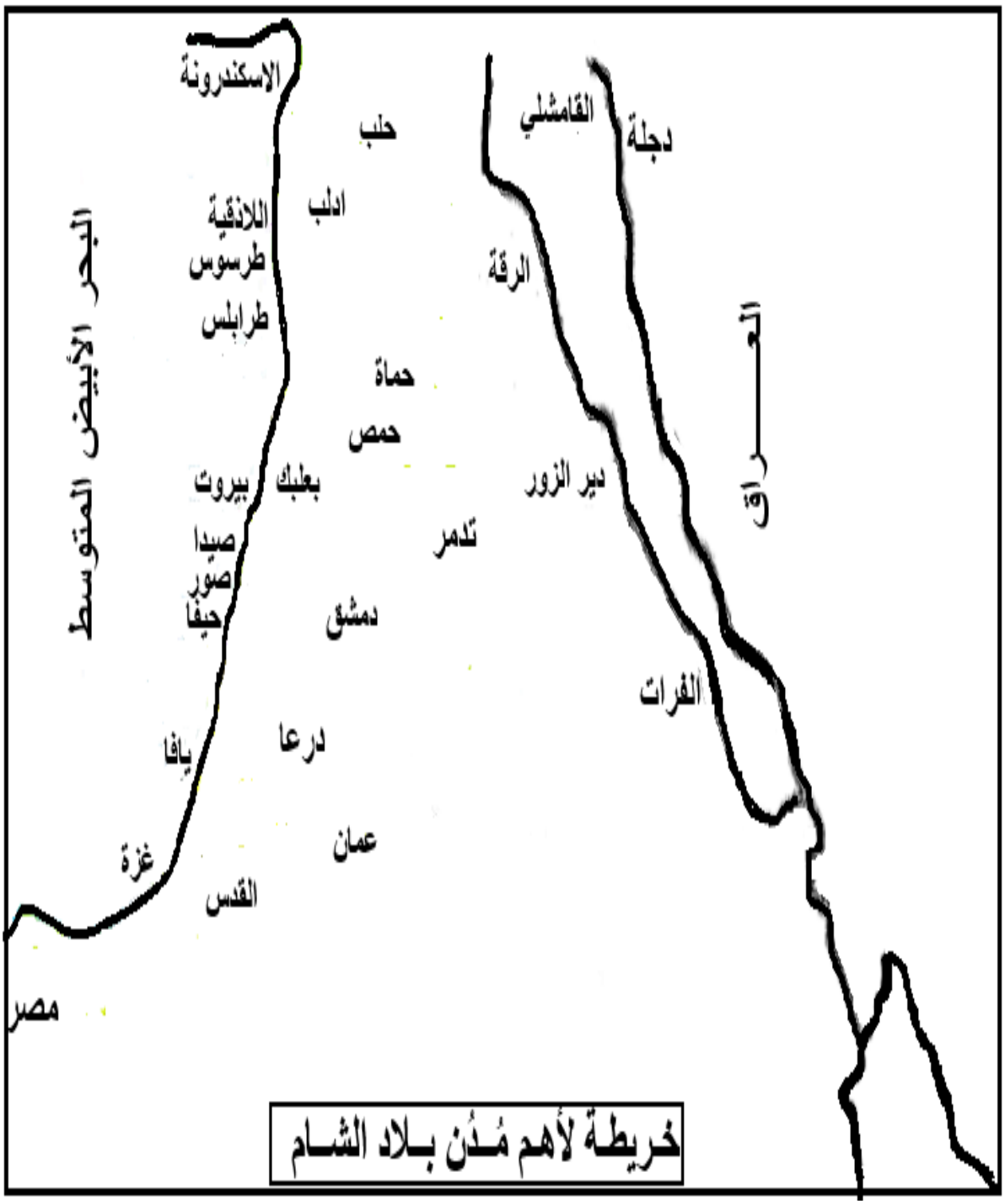

إنجاز الطالب

المُلحق رقم 9: خريطة التوزيع الطائفي في بلاد الشام خلال القرن 13 هـ / 19 م على ضوء التوزيع الوارد في المبحث الأول من الفصل الثاني.

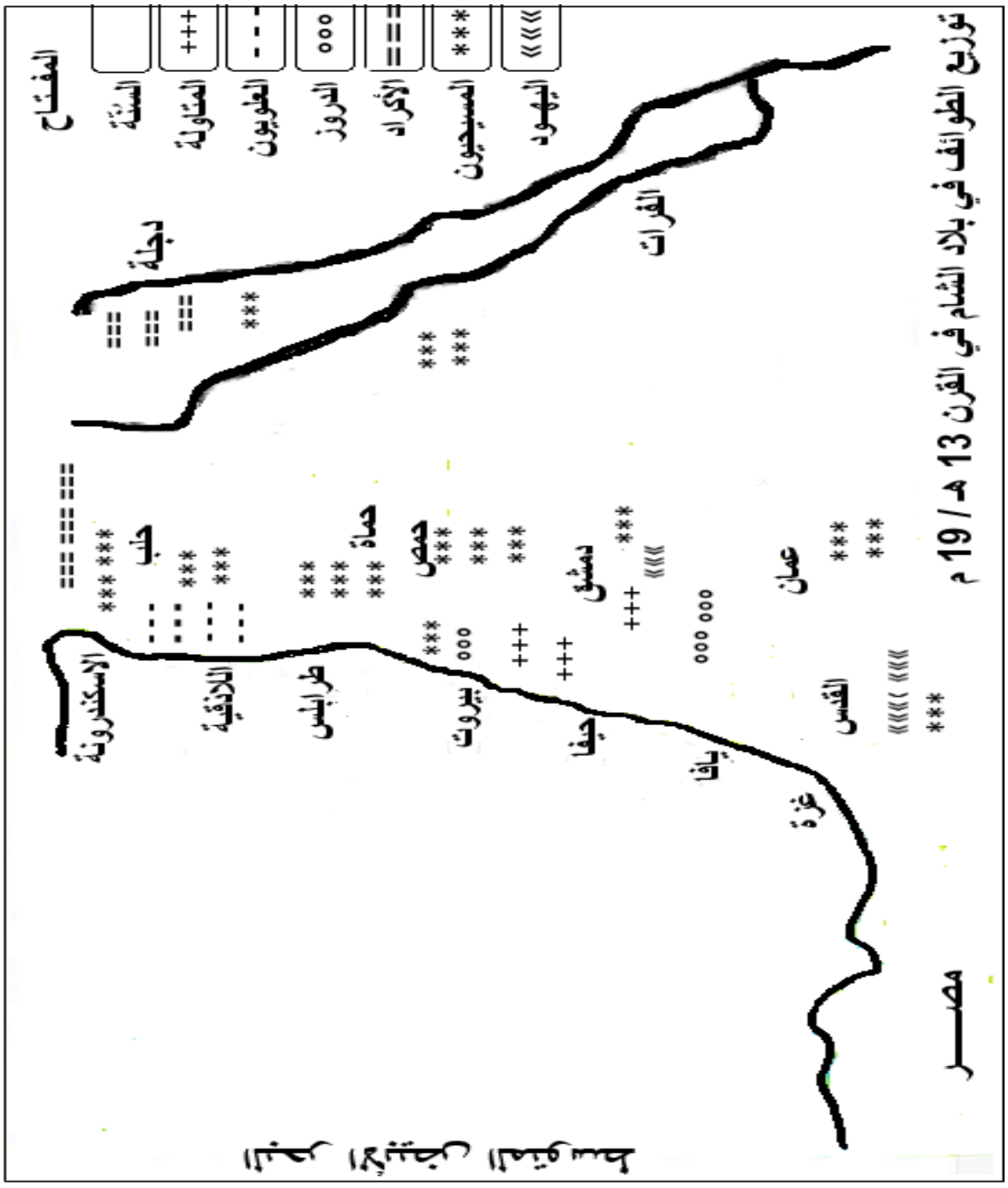

إنجاز الطالب

المُلحق رقم 10: التوزيع العرقي والديني الحالي في بلاد الشام[1] (الخريطة بتصرّف).

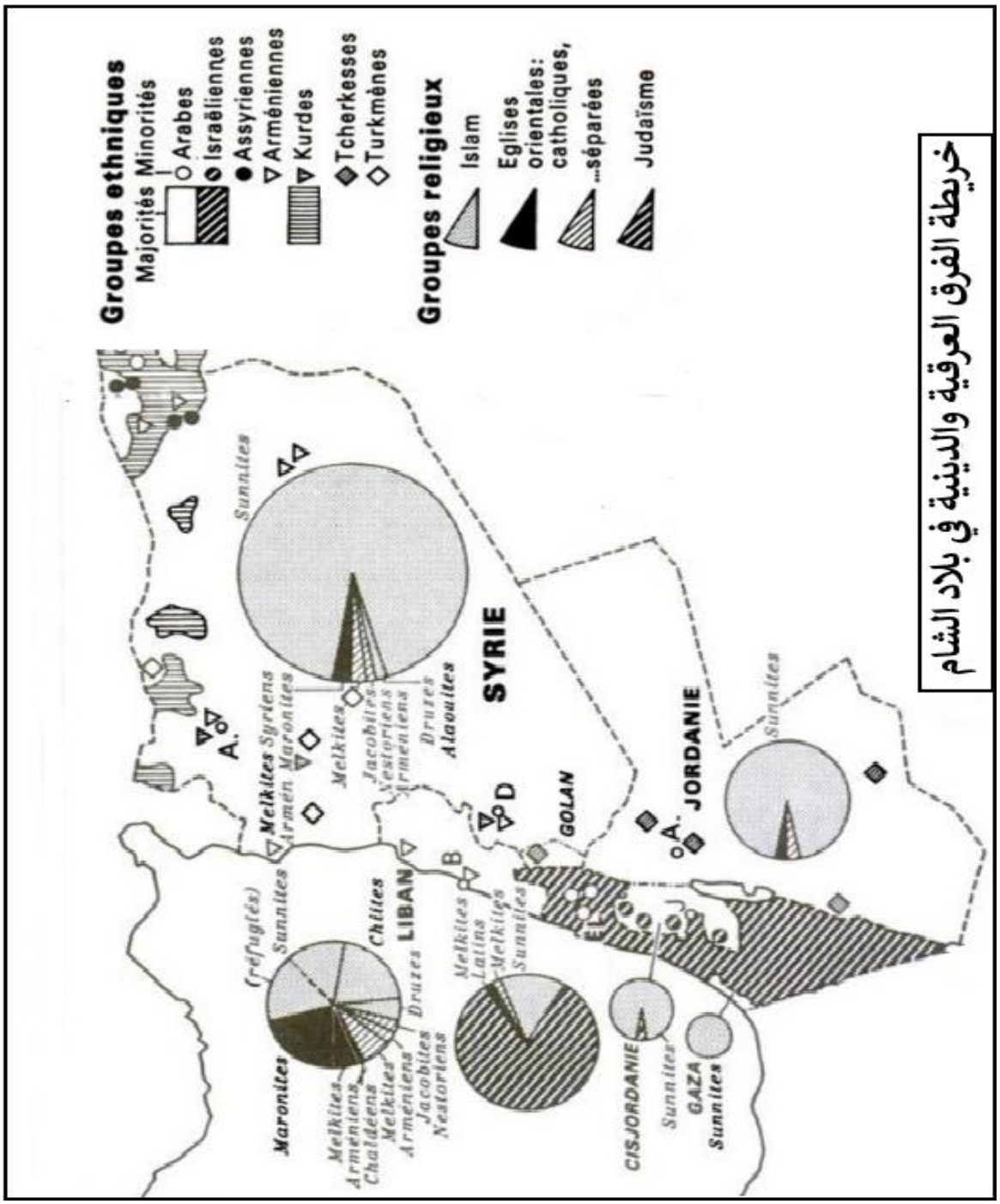

[1] Dominique et Gresh, op.cit., p. 250.

المُلحق رقم 11: خريطة جبل لبنان.

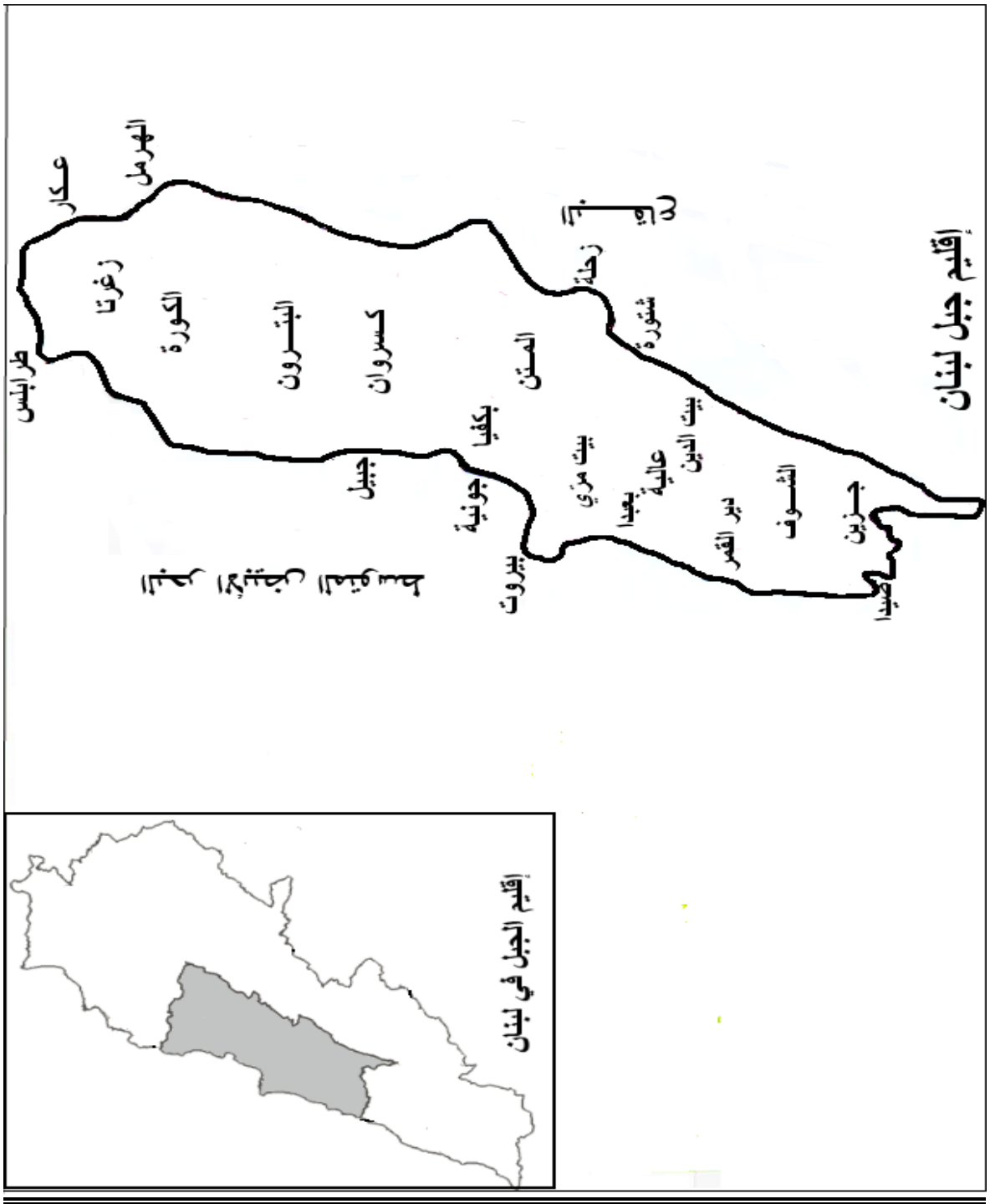

إنجاز الطالب

المُلحق رقم 12:جدول يُجمل أتباع الطوائف في بلاد الشام خلال القرن 13 هـ/ 19 م.
(الوحدة: نسمة)

المسلمون السنة	1,118,000	الروم الأرثوذكس	240,000
المتاولة الشيعة	200,000	الروم الكاثوليك	13,000
الإسماعيليون	150,000	السريان الأرثوذكس	80,000
النُصيريون	130,000	السريان الكاثوليك	40,000
الدروز	100,000	اللاتين الكاثوليك	4,000
الموارنة	500,000	الكلدانيون	15,000
اليونان الكاثوليك	70,000	الإيزيديون	10,000
اليونان الأرثوذكس	85,000	بروتستانت	1.500
الأرمن الأرثوذكس	35.000	اليهود	75.000
الأرمن الكاثوليك	45.000		

المُلحق رقم 13: أعمدة بيانية لأتباع الطوائف في بلاد الشام خلال القرن 13 هـ/19 م.

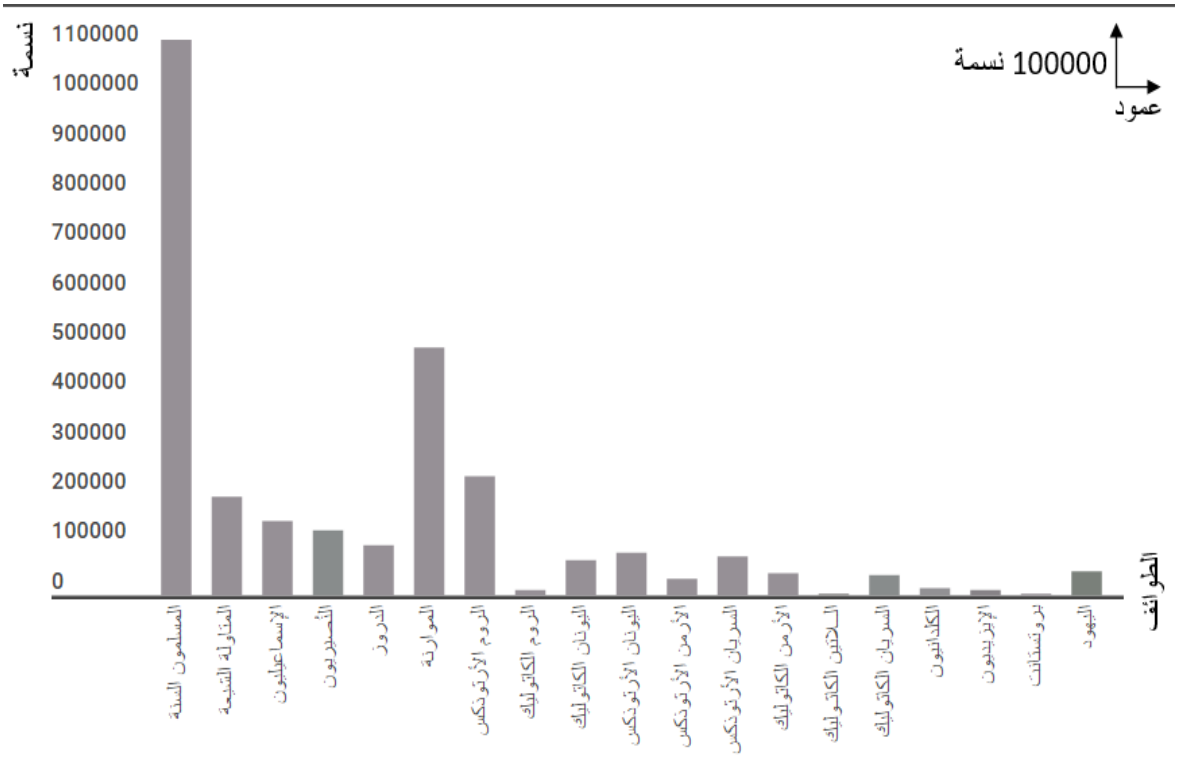

إنجاز الطالب

المُلحق رقم 14: جدول مقارنة بين سلاطين الدولة العثمانية خلال مرحلتين[1].

بعض سلاطين الدولة العثمانية خلال مرحلة القوة

اسم السلطان	فترة الحكم	مدة الحكم
محمد الثاني-الفاتح	1451-1481 م	30 سنة
بايزيد الثاني	1481-1512 م	31 سنة
سليم الأول	1512-1520 م	08 سنة
سليمان القانوني	1520-1566 م	46 سنة
المجاميع 4 سلاطين	155 سنة	155 سنة

سلاطين الدولة العثمانية خلال القرن 13 هـ / 19 م

اسم السلطان	فترة الحكم	مدة الحكم
سليم الثالث	1203-1222 هـ / 1789-1807 م	18 سنة - خُلِع
مصطفى الرابع	1222-1223 هـ / 1807-1808 م	01 سنة - خُلِع ثمّ قُتل
محمود الثاني	1223-1255 هـ / 1808-1839 م	31 سنة
عبد المجيد الأول	1255-1277 هـ / 1839-1861 م	22 سنة
عبد العزيز	1277-1293 هـ / 1861-1876 م	15 سنة - خُلِع ثمّ قُتل
مراد الخامس	1293-1293 هـ / 1876-1876 م	03 أشهر - خُلِع
عبد الحميد الثاني	1293-1327 هـ / 1876-1909 م	33 سنة - خُلِع
المجاميع 7سلاطين	120 سنة	120 سنة

[1] محمد فريد بك، مصدر سابق، ص 778.

الملحق رقم 15: جدول للولاة العثمانيين في بلاد الشام خلال القرن 13 هـ / 19 م[1].

اسم الوالي	فترة ولايته	اسم الوالي	فترة ولايته
روم ايليلي علي باشا	1234-1231 هـ	أحمد عزت باشا	1274-1273 هـ
حافظ علي باشا	1235-1231 هـ	كوتاهية علي باشا	1275-1274 هـ
شيشمان مصطفى باشا	1235-1235 هـ	خليل كاملي باشا	1275-1275 هـ
معدنلي صالح باشا	1236-1235 هـ	أحمد عزت باشا – دفعة 2	1276-1275 هـ
صدر أسبق درويش باشا	1238-1236 هـ	معمر باشا	1277-1276 هـ
بيلاني مصطفى باشا	1241-1239 هـ	شبطية مشيري أسبق	--
ولي الدين باشا	1243-1241 هـ	محمد باشا	1279-1278 هـ
صالح باشا – دفعة 2	1244-1243 هـ	شرواني محمد رشدي باشا	1282-1279 هـ
صدر أسبق عبد الرؤوف باشا	1245-1244 هـ	محمد راشد باشا	1288-1283 هـ
سليم باشا	1247-1246 هـ	عبد اللطيف صبحي باشا	1289-1288 هـ
حاجي علي باشا	1247-1246 هـ	محمد حالت باشا	1292-1289 هـ
مصرلي إبراهيم باشا	1256-1247 هـ	أحمد حمدي باشا	1293-1292 هـ
حاجي علي باشا – دفعة 2	1257-1256 هـ	راشد ناشد باشا	1293-1293 هـ
نجيب باشا	1257-1257 هـ	ضياء باشا	1293-1293 هـ
أحمد باشا	1258-1257 هـ	عمر فوزي باشا	1295-1294 هـ
بغدادي علي رضا باشا	1261-1258 هـ	أحمد جودت باشا	1295-1295 هـ
خالد باشا	1261-1261 هـ	صدر أسبق مدحت باشا	1296-1295 هـ
علي باشا	1262-1261 هـ	أحمد حمدي باشا – دفعة 2	1301-1296 هـ
موسى صفوتي باشا	1264-1862 هـ	راشد ناضد باشا – دفعة 2	1304-1301 هـ
عثمان باشا	1266-1265 هـ	لطيف باشا	1305-1304 هـ
داماد محمد سعيد باشا	1267-1266 هـ	مصطفى عاصم باشا	1307-1305 هـ
ارزنجانلي أحمد عزت باشا	1268-1267 هـ	إسماعيل كمال بك - بالوكالة	1308-1308 هـ
إسحاق باشا	1268-1268 هـ	رؤوف باشا	1310-1308 هـ
علي عشقر باشا	1270-1268 هـ	عثمان نوري باشا -دفعة 2	1312-1310 هـ
محمد وامق باشا	1272-1271 هـ	خصوصي بك - بالوكالة	1312-1312 هـ
صدر أسبق محمود نديم باشا	1273-1272 هـ	حاجي حسن رفيق باشا	1312-1312 هـ
مصطفى باشا	1273-1273 هـ	حسين ناظم باشا	1325-1313 هـ

عدد الولاة: 54 واليا	المدة التي حكموا فيها 94 سنة

[1] صلاح الدين المنجد، ولاة دمشق في العهد العثماني، د.ن، دمشق، 1949، ص ص 90-93.
خلال 94 سنة تقلّب على بلاد الشام 54 واليا، ولم يثبت الواحد منهم في وظيفته سوى عام وبضعة شهور، وهو وضع يؤشر إلى عجز السلطة عن ضبط شؤون البلاد.

المُلحق رقم 16: جدول لأهم عقائد الطوائف الدينية الأساسية في بلاد الشام.

الطائفة	ركائز عقائدها
الطوائف الإسلامية	
السُنّة[1]	سمُوا باهل السنة لتمسك أتباعها بسنة النبي. عقائدها: - التوحيد – مصدر العقيدة هو الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح – الإيمان قولا وعملا – الإمامة بإجماع الأمة أو بيعة ذوي الحل والعقد.
الشيعة[2]	لكثرة فرقهم، نقتصر على الإمامية الأكثر انتشارا. عقائدها: - التوحيد – عصمة القرآن من التحريف – الإمامة أصل فى الدين – عصمة الأئمة – التقية واجبة لدفع الضرر.
الطوائف المسيحية[3]	
الأرثوذكسية	انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية في عام 1054 م، بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية. عقائدها: المسيح ابن للرّب - فداء المسيح - المسيح له طبيعة واحدة، وإرادة واحدة فهو الله والله هو المسيح - الروح القدس منبثق من الآب فقط - مريم العذراء ترثُ الخطيئة الأصلية مثل بقية البشر - تسمح بزواج الكهنة - تُحرم الطلاق ما عدا في حالة الزنا - لا تعترف بسيادة بابا روما.
الكاثوليكية	عقائدها: المسيح ابن للرّب - فداء المسيح - المسيح له طبيعتان وإرادتان، إلهية وبشرية - الروح القدس منبثق من الآب والابن معا - مريم العذراء لا تحمل الخطيئة الأصلية - تسمح بزواج الكهنة - تُحرم الطلاق حتى في حالة الزنا– تعترف بسيادة البابا.
البروتستانتية	ظهرت في القرن 16 م كحركة احتجاجية على ممارسات الكنيسة الخاطئة. عقائدها: المسيح ابن للرّب - فداء المسيح - المسيح له طبيعتان وإرادتان، إلهية وبشرية - الروح لقدس منبثق من الآب والابن معا - مريم العذراء ترثُ الخطيئة الأصلية، وتُنكر لقب والدة الإله وشفاعتها- لكل فرد الحق في فهم الإنجيل، وليس حسب فهم رجال الكنيسة – تُحرّم التماثيل والصور في الكنائس - تُنكر تحوُل الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح (التناول).

يجب التنويه في هذا السياق، خاصة وأنَّ الأمر يتعلّق بمسألة العقائد، إلى أنه لا يصح الرجوع إلى مؤلفات من خارج الطائفة، كأن يُستعان بكتابات لخُصوم هذه الطائفة. فالكتابة في هذا الموضوع تقتضي الابتعاد التام عن التحيُز، وأيضا عن الدسّ وإلصاق النعوت والأكاذيب، سعيا للتشهير الذي يخدم المصلحة الطائفية. ولهذا آلينا على أنفسنا استخدام مؤلفات تعود إلى كُتاب من الطائفة ذاتها.

[1] الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف مانع بن حماد الجهني، ط 4، مج 1، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 1420هـ (1999 م)، ص ص 36- 45.

[2] محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، مركز الأبحاث العقائدية، قُم (إيران)، 1422 هـ (2001 م)، ص ص 27، 28، 62، 73، 75، 100.

[3] ايمار وأوبويه، مرجع سابق، مج 3، ص ص 51-53. وأنظر أيضا:

Robert S. Ellwood et Gregory D. Alles, The Encyclopedia of World Religions, Book Builders Incorporated, New York, 2003, p p. 71-73.

المصادر والمراجع

1/ الكتب المقدسة

- القران الكريم، الحجرات، الآية 13، هود، الآية 118، الإسراء، الأية 1، التين، الأية1، الحاقة، الآية 26.

-التوراة (العهد القديم)، سفر التكوين 11، الأعداد 1-9، سفر أخبار الأيام الأول، اصحاح 18، العدد6.

2/ الوثائق

- Communication De L'ambassade De Grande-Bretagne, Ministère des affaires étrangères, Documents diplomatiques français 1871-1914, 1er série (1871-1900), T XIII, Imprimerie Nationale, Paris.

- **Le Mandat Devant Les faits : la France en Syrie et au Liban 1916-1926**, Emile Larose, Éditeur, Paris.

- Le Ministre Des Affaires Étrangères aux Representants de l'empereur a Londres, **Vienne**, **Saint petersburg et Berlin**, Documents diplomatiques communiqués par le gouvernement français au Sénat et au corps législatif a l'ouverture de la session de 1862, Ministère des affaires étrangères, Amyot Éditeur, Paris, 2 Avril 1861.

- M. De Noailles, Ambassadeur De France a Berlin, a M. Hanotaux, Ministre Des Affaires Étrangéres, N° 37, Documents diplomatiques français.

- Note du Département sur les Affaires Syriennes pendant le Ministère de M. Leygues, Ministère des affaires étrangères, Documents diplomatiques français, T1, 1921 (16 janvier-30 juin), PIE-Peter Lang, Paris.

- **Policy in The Middle East**, IOR/L/18/B219, Qatar National Library, (http://www.qnl.qa/)

3/ المصادر

أالعَربيـــــةُ:

- ابكاريوس، اسكندر بن يعقوب، **نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان**، تحقيق عبد الكريم إبراهيم السمك، ط 1، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1987.

- ابن الأثير، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تقديم علي بن حسن ين عبد الحميد الحلبي الأثري، ط 1، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الرياض، 1421 هـ (2000 م).

- ابن منظور، محمد بن مكرّم، **تاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع الحافظ، ط 1، ج 1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984.

- أبو شقرا، يوسف خطار، **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية**، تحقيق عارف ابوشقرا، مطبعة الإتحاد، بيروت، د.ت.ن.

- أبي الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، **تقويم البلدان**، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1820.

- أفندي، ابراهيم، **مصباح الساري ونزهة القاري**، ط 1، د.ن، بيروت، 1272 هـ (1855 م).

- الآلوسي، محمود شكري، **تاريخ نجد**، تحقيق محمد بهجة الاثري، ط 4، د.م.ن 2005.

- الأندلسي، أبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري، **معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع**، ط 3، ج 3، تحقيق مصطفى السقا، دار عالم الكتب، بيروت، د.ت.ن.

- البشاري، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ط 2، مطبعة بريل، ليدن(هولندا)، 1906.

- البغدادي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرّومي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977.

- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن، **مراصد الاطِلاع على أسماء الأمكنة والبقاع** تحقيق محمد على البجاوي، ج 2، ط 1، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1954.

- البلاذري، أبي العباس أحمد بن يحي بن جابر، **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1987.

- الترك، نقولا، **ذكر تملّك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الإسلامية**، ط 1، دار الفارابي، بيروت، 1990.

- التميمي، رفيق و بهجت محمد، **ولاية بيروت**، دار لحد للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 1335 هـ (1917 م).

- الجبرتي، عبد الرحمن، **عجائب الآثار في التراجم والاخبار**، ج 3، المطبعة العامرية الشرفية، مصر، 1322 هـ (1904م).

- الحصني، محمد اديب آل تقي الدين، **منتخبات التواريخ لدمشق**، ج 1، المطبعة الحديثة، دمشق، 1927.

- الحلبي، ابن أجا محمد بن محمود، **العِراك بين المماليك و العثمانيين الأتراك** تحقيق محمد أحمد دهمان، ط 1، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، د.ت.ن.

- الحِمْيَري، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عبّاس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.

- الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، **الدرر السُنية في الأجوبة النجدية**، ج 1، ط 6، د.م.ن، 1996.

- الحنبلي، عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، ج 1-2، ط 4، دار الملك عبد العزيز، 1982.

- الرّيكي، حسن بن جمال بن أحمد، **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب**، تحقيق عبد الله الصّالح العثيمين، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 2005.

- الزركلي، خير الدين، **الاعلام**، ج 6، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002.

- الشدياق، أحمد فارس، **كنز الرغائب في منتخبات الجوائب**، جمعه سليم فارس الشدياق، ط 1، ج 6 مطبعة الجوانب، الأستانة، 1295 هـ (1878 م).

- الشدياق، طنوس، **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، ج 1، المطبعة الكاثوليكية بيروت، 1970.

- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، **الملل والنحل**، تصحيح أحمد فهمي محمد، ط 2، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

- العظم، حقي، **تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان**، ط 1، مطبعة التّرقي مصر، 1902.

- الفراهيدي، أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، ج 6، مؤسسة الأعلمي بيروت، د.ت.ن.

- المانع، محمد، **توحيد المملكة العربية السعودية**، ترجمة عبد الله العثيمين، ط 2 د.د.ن، السعودية، 1415 هـ (1994 م).

- المحامي، محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقّي، ط 1، دار النفائس، بيروت، 1981.

- النّصيبي، أبي القاسم بن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992.

- بن سحمان، سليمان، **ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان**، تصحيح عبد الرحمن بن سليمان الرويشد، مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية، د.ت.ن.

- بن عتيق، حمد بن علي، **النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك** تصحيح ومراجعة إسماعيل بن سعد بن عتيق، ط 7، إدارة البحوث العلمية والإفتاء الرياض، 2002.

- بن غنّام، حسين، **تاريخ نجد**، تحقيق ناصر الدين الأسد، ط 4، دار الشروق بيروت-القاهرة، 1994.

- جودت باشا، أحمد، **تاريخ جودت باشا**، مطبعة جريدة بيروت، بيروت، 1308 هـ (1890م).

- حليم، ابراهيم بك، **تاريخ الدولة العثمانية العلية**، ط 1، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، 1988.

- خوجة، حمدان بن عثمان، **المرآة**، تعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006.

- دحلان، أحمد بن السيّد زيني، **الدّرر السُنية في الرد على الوهابية**، ط 1، دار غار حراء، دمشق، 2003.

- رستم، أسد، **الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا**، مج 1-2 منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1931.

- كامل، مصطفى، **المسألة الشرقية**، ط 1، مطبعة الآداب، مصر، 1898.

- كرد، علي محمد، **خطط الشام**، ط 2، مكتبة النوري، دمشق، 1983.

- محمد، أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، ك 1، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.ن.

- مشاقة، ميخائيل، **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**، د.ن، مصر، 1908.

- مكاريوس، شاهين، **حسر اللثام عن نكبات الشام**، ط 1، د.ن، مصر، 1895.

- وهبه، حافظ ، **جزيرة العرب في القرن العشرين**، دار المصري للطباعة، الهرم (مصر)، د.ت.ن.

- مؤلف مجهول، **مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا**، ط 1، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، 1900.

ب- المُعـــــرَّبةُ:

- بوركهارت، جوهان لودفيج، **مواد لتاريخ الوهابيين**، ترجمة عبد اله الصالح العثيمين، جامعة الملك سعود، د.م.ن، د.ت.ن.

- سرهنك، الميرالاي إسمعيل، **تاريخ الدولة العثمانية**، تقديم حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988.

- صبري، أيوب، **تاريخ الوهابيين**، ترجمة مسعد بن سويلم الشامان، دار ترجمان حقيقت، د. م .ن، د.ت.ن.

- علوي، ناصر خسرو، **سفرنامة**، ترجمة يحي الخشاب، ط 2، الهيئة العامة للكتاب القاهرة، 1943.

- فيلبي، سانت جون، **بعثة إلى نجد**، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، ط 2، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998.

4/ المراجع

أ- الرسائل الجامعية

- بعيو، غانية، **التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية (الشام والعراق نموذجا 1839-1876م)**،رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر2، الجزائر 2009.

- دحدح، عبد الحفيظ، **العلاقات السياسية العثمانية الصفوية خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2016.

- غراب، عبد الفتاح إسماعيل، **العمل التنصيري في العالم العربي، رصد لأهم مراحله التاريخية والمعاصرة**، رسالة ماجستير منشورة، مكتبة البدر، د.م.ن 2007.

ب-المـــــقالات

- أبو نهرا، جوزيف، ***"المسيحيون وهاجس الحرية في العهد العثماني"***، ملتقى دولي، مركز الشرق المسيحي للبحوث والمنشورات، جامعة القديس يوسف بيروت، 24-26 كانون الثاني، 2013.

- إسماعيل، منير، ***" التحولات السياسية في مجتمع الإمارة الشهابية 1697-1842"***، في المؤتمر الأول للجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية، ط 1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، 1996.

- دحدح، عبد الحفيظ، " ***موقف الأمير عبد القادر الجزائري من فتنة 1860 م الطائفية على ضوء الكتابات الأجنبية*** "، مجلة جيل للعلوم الإنسانية والاجتماعية ع 24، أكتوبر، 2016.

- الريكاني، علي عبيد شكري، ***" الطائفة المارونية في لبنان منذ النشأة إلى نهاية الحروب الصليبية 398-1292 م "***، مجلة قضايا تاريخية، ع 3، سبتمبر 2016 المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة (الجزائر).

- الصائغ، غانم أحمد، ***" سياسة بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية"***، مجلة التربية والعلم، مج 19، ع 5، جامعة الموصل، الموصل، 2012.

- الضامن، حاتم صالح، ***" باب اشتقاق أسماء البلدان من مختصر الزاهر للزجاجي"***، مجلة العرب، ج 3-4، مج 41، أكتوبر- نوفمبر 2005، دار اليمامة الرياض.

- القضاة، أحمد، ***"الطوائف المسيحية في القدس"***، مجلة فلسطين، ع 18، تشرين الأول 2011، دار العروة الوثقي، بيروت.

- ظاهر، مسعود، ***" الحركة السكانية في المشرق العربي في أواخر العهد العثماني نموذج الهجرة إلى بيروت في القرن 19"***، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، ع 1121، الشركة التونسية لفنون الرسم 1988.

ج- العَربيـــــةُ:

- أبو علية، عبد الفتاح حسن، **محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى**، ط 2 دار المريخ، الرياض، 1991.

- ----------، **الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير**، دار المريخ، الرياض، 2008.

- الاتاسي، نشوان، **تطور المجتمع السوري 1831-2011**، ط 1، أطلس للنشر والإنتاج الثقافي، د.م.ن، 2015.

- البستاني، يوسف، **تاريخ حرب البلقان الأولى**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة، 2012.

- البهنسي، عفيف، **الشام الحضارة**، ط 1، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق 1986.

- الجميل، سيار، **تكوين العرب الحديث**، ط 1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان 1997.

- ----------، **بقايا و جذور التكوين العربي الحديث**، ط 1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمَّان، 1997.

- الحداد، حكمت البير، **لبنان الكبير**، ط 3، دار نظير عبود، د.م.ن، 1996.

- الحويري، محمود محمد، **الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر من الميلاد**، دار المعارف، القاهرة 1979.

- الخيون، رشيد، **الأديان والمذاهب في العراق**، ط 2، منشورات الجمل، كولونيا (المانيا)، 2007.

- الرافعي، عبد الرحمن، **عصر محمد علي**، ط 5، دار المعارف، القاهرة، 1989.

- السودا، يوسف، **تاريخ لبنان الحضاري**، ط 1، دار النهار للنشر، بيروت، 1972.

- الشناوي، عبد العزيز محمد، **الدولة العثمانية: دولة إسلامية مفترى عليها**، ج 1 مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، 1980.

- الصليبي، كمال، **تاريخ لبنان الحديث**، ط 7، دار النهار للنشر، بيروت، 1991.

- ----------، **منطلق تاريخ لبنان**، ط 2، نوفل، بيروت، 1992.

- العناني، أشرف، **سيناء...حيث أنا (سنوات التيه)**، ط 1، دار الكتب خان القاهرة، 2015.

- العودات، حسين، **العرب النصارى(عرض تاريخي)**، ط 1، دار الأهالي للنشر و التوزيع، دمشق، 1992.

- المانع، محمد، **توحيد المملكة العربية السعودية**، ترجمة عبد الله العثيمين، ط 2 د.د.ن، السعودية، 1415 هـ (1994م).

- المنجد، صلاح الدين، **ولاة دمشق في العهد العثماني**، د.ن، دمشق، 1949.

- النعيمي، أحمد نوري، **السياسة الخارجية الإيرانية 1979-2011**، ط 1، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمّان، 2012.

- حسّون، علي، **العثمانيون و الرّوس**، ط 1، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق 1982.

- حلاق، حسان، **تاريخ لبنان المعاصر 1913-1952**، ط 3، دار النهضة العربية بيروت، 2010.

- خاطر، نصري ذياب، **تاريخ أوربا الحديث**، ط 1، الجنادرية للنشر والتوزيع عمّان، 2011.

- ديب، كمال، **هذا الجسر العتيق، سقوط لبنان المسيحي**، ط 1، دار النهار، بيروت 2008.

- رفعت، عبد العزيز محمد، **الجيش المصري و حروب الشام الأولى - دراسة في وثائق عابدين**، ط 1، عين للدراسات، القاهرة، 1999.

- ريمون، أندريه، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ط 1، دار الفكر للدرات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.

- زايد، عبد الحميد، **الشرق الخالد**، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.ن.

- زيادة، خالد، **إكتشاف التقدم الأوربي**، ط 1، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت 1981.

- سواعد، محمد يوسف ، **البدو في فلسطين في الحقبة العثمانية 1516-1914**، دار زهران للنشر والتوزيع، عمّان، 2008.

- شاكر، محمود، **التاريخ الإسلامي**، ط 2، ج 21، المكتب الإسلامي، بيروت 1994.

- طقوش، محمد سهيل، **تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة** ط 2، دار النفائس، بيروت، 2008.

- عثمان، هاشم، **تاريخ سورية الحديث**، ط 1، رياض الريس للطباعة والنشر بيروت، 2012.

- عصفور، محمد أبو المحاسن، **معالم حضارات الشرق الأدنى القديم**، دار النهضة العربية، بيروت، 1987.

- علي، أحمد إسماعيل، **تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي**، ط 2، دار دمشق، دمشق، 1994.

- عوض، عبد العزيز محمد، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914** م تقديم أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.ن.

- فغالي، جورج، **تاريخ جيش المشرق في لنان 1919-1921**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1997.

- كوثراني، وجيه، **الإتجاهات الإجتماعية-السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (1860-1920)** ط 1، معهد الانماء العربي، بيروت، 1976.

- ----------، **السلطة و المجتمع و العمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام**، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988.

- ----------، **بلاد الشام في مطلع القرن العشرين**، ط 3، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2013.

- لورنيت، **أرض الذكريات 300 لوحة رائعة من القرن الماضي(سوريا، لبنان فلسطين، الأردن)**، ط 2، شركة لمطبوعات للنشر و التوزيع، بيروت، 1995.

- محمد، الحاج يوسف خليل، **الأنباء الخفية عن الشيعة العلوية**، ط 1، الدار الإسلامية، بيروت، 1996.

- مدني، أمين، **التاريخ العربي وجغرافيته**، ط 2، ج 3، دار القوافل للنشر والتوزيع الرياض، 2008.

- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، **في أصول التاريخ العثماني**، ط 1، دار الشروق القاهرة، 2003.

- هاشم، ريمون، **جوانب من تاريخ جبل لبنان بين 1820-1860**، ط 1، ج 1 منشورات الجامعة الأنطونية، بعبدا(لبنان)، 2007.

- السواح، فراس، **الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم**، ط 3، دار علاء الدين دمشق، 1997.

طرابلسي، فواز، **تاريخ لبنان الحديث**، ط 1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت 2008.

المظفر، محمد رضا، **عقائد الإمامية**، مركز الأبحاث العقائدية، قُم (إيران) 1422 هـ (2001 م).

- ياغي، إسماعيل أحمد، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، ط 1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1996.

د- المُعرَّبـــةُ:

- أوزتونا، يلماز، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عدنان محمود سلمان، ط 1 مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1988.

- ----------، **موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري**، ترجمة عدنان محمود سلمان، ط 1، الدار العربية للموسوعات بيروت، 2010.

- اوغلي، أكمل الدين احسان، **الدولة العثمانية تاريخ و حضارة**، ترجمة صالح سعداوي، ج 2، إرسيكا، استانبول، 1999.

- ايمار، أندريه و أوبويه جانين، في كتاب **تاريخ حضارات العالم**، إشراف موريس كروزيه، ترجمة فريد م. داغر وفؤاد ج. أبو ريحان، ط 2، مج 1، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1986.

- بوركهارت، جوهان لودفيج، **مواد لتاريخ الوهابيين**، ترجمة عبد اله الصالح العثيمين، جامعة الملك سعود، د.م.ن، د.ت.ن.

- تشرشل، تشارلز، **بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي، من 1840 - 1860** ترجمة فندي الشعار، دار المروج للطباعة النشر والتوزيع، د.م.ن، 1984.

- جارشلي، إسماعيل حقّي، **أشراف مكة وأمرائها في العهد العثماني**، ترجمة خليل علي مراد، ط 1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2003.

- حتي، فيليب، تاريخ سورية و لبنان و فلسطين، ترجمة جورج حدّاد وعبد الكريم رافق، ج 1، دار الثقافة، بيروت، د.ت.ن.

- حوراني، ألبرت، **الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939**، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، د.ت.ن.

- ----------، **تاريخ الشعوب العربية**، تعريب أسعد صقر، ط 1، دار طلاس دمشق، 1997.

- ديورانت، ول وايريل، **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، ج 2، مج 1، مطابع الدجوي، القاهرة، 1971.

- ستودارد، لوثروب، **حاضر العالم الإسلامي**، تعريب عجّاج نويهض، ط 4، مج 1 ج 1، دار الفكر للطباعة و النشرو التوزيع، د.م.ن، 1973.

- الصليبي، كمال، **بيت بمنازل كثيرة، الكيان اللبناني بين التصور والواقع**، ترجمة عفيف الرزاز، ط 6، دار نوفل، بيروت، 2013.

- عازوري، نجيب، **يقظة الامة العربية**، تعريب أحمد بوملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت.ن.

- فيلبي، سانت جون، **بعثة إلى نجد**، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، ط 2، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998.

- لابيداس، أيرام، **تاريخ المجتمعات الإسلامية**، ترجمة فاضل جتكر، ط 2، مج 2 دار الكتاب العربي، بيروت، 2011.

- لوبون، غوستاف، **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013.

- لونغريغ، ستيفن هاسلي، **تاريخ سوريا ولبنان تحت الإنتداب الفرنسي**، ترجمة بيار عقل، دار الحقيقة بيروت، د.ت.ن.

- مانتران، روبير، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة بشير السباعي، ج 2، ط 1، دار الفكر، القاهرة، 1993.

- مدحت باشا، **مذكرات مدحت باشا**، تعريب يوسف كمال بك حتاته، ط 1، مطبعة هندية، القاهرة، د.ت.ن.

- مواريه، جوزيف ماري، **مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر**، ترجمة كاميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

5/ المصادر والمراجع الأجنبية :

أ- المصادر

- Bibliothèque Nationale, **Le centenaire de Navarin 1827-1927**, Édition Albert Morancé, Paris, 1927.

- Claude-Denis Raffenel, **Histoire des événémens de la Grèce**, Dondey-Dupré père et fils, Paris, 1822.

- Conde Josiah r, **Syria and Asia Minor**, V 2, W. Clowers, 1819.

- Creasy Edward, **History Of The Ottoman Turks**, 1stEdi, Henry Holt And Company, New York, 1878.

- De Baudicour Louis, **La France au Liban**, E-Penta libraire, Paris, 1879.

- De Basterot Le Vicomte, **Le Liban, La Galilée et Rome**, journal d'un voyage en orient et en Italie, septembre 1867-mars 1868, Charles Douniol, Libraire-Editeur, Paris, s.d.e.

- De Chasseboeuf Constantin François, **Oeuvres completes de Volney précédées d'une notice sur la vie et les écrits de l'auteur**, Firmin Didot frères, Paris, 1857.

- Dentu Édouard, **La Syrie devant l'Europe**, Bibliothèque nationale de France, paris, 1861.

- E. De Valmy, **Réformes de l'empire ottoman(leur influence sur les progrès de la civilisation et le maintien de l'équilibre européen)**, Imprimerie de soye, Parris, 1850.

- Gouin Édouard, **L'Égypte au XIXe siècle, histoire militaire et politique, anecdotique et pittoresque de Méhémet-Ali, Ibrahim Pacha, Soliman Pacha**, Paul Boizard, Paris, 1847.

- Jobin M.L'abbé, **La Syrie en 1860 et 1861(Lettres et Documents)**, L. Lefort Imprimeur - Libraire,1862 .

- K. T.Khairallah, **La Syrie. Territoire. Origines ethniques et politiques, évolution. Esquisses: La vie sociale et littéraire. La vie politique en Syrie et au Liban**, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1912.

- Laorty-Hadji R.P, **La Syrie, la Palestine et la Judée**, Bolle-Lasalle Éditeur, Paris, 1853.

- L'avallee Tèophile, **L'empire ottoman depuis les temps anciens jusqu'à nos jours**, Garnier frères,librairie éditeurs, paris, 1855.

- Lemaître Alfred**, Musulmans et chrétiens: notes sur la guerre de l'indépendance grecque,** Librairie G.Martin, Paris, 1895.

- Louet Ernest, **Expédition de Syrie 1860-1861**, Amyot Éditeur, Paris, 1862.

- Luquet Jean, **La politique des mandats dans le Levant**, Editions de la Vie universitaire, Paris, 1923.

- Marie Jouannin Joseph et Van Gaver Jules, **Turquie**, Firmin Didot frères, Paris, 1840.

- Métaxa Contantin, **Souvenirs de la guerre de l'indépendance de la Grèce (1821-1830)**,Traduit du grec par Jules Blancard, Ernest leroux editeur, Paris, 1888.

- Moutran Nadra, **La Syrie de demain**, Libraire plan, Paris, 1916.

- Renan M. Ernest, **Mission de Phénicie**, Michel Lévy Fréres, Paris, s.d.é.

- Richard Edwards**, La Syrie 1840-1862, histoire, politique, administration, population religions et moeurs, événements de 1860 d'après des actes officiels et des documents authentique**, Amyot (Paris), 1862.

- Volney C.F., **Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785**, 5ème Édi, T 1, Bossange frères, Paris, 1822.

- Laurie Thomas, **Historical Sketch of the Syria Mission**, The American Board of Commissioners for Foreing Missiovs, 1864.

ب- المراجع

- Carter Terry and others, **Syria & Lebanon**, 3rd ed, Lonely Planet Publications, 2008.

- Collelo Thomas, **Syria : a country study**, 3rd Édi, Federal Research Division, Washington, D.C,1988.

- Fillaire Bernard et Tavernier Janine, **Les Sectes**, Le Cavalier Bleu Éditions.

- Hakim Carol, **The Origins of the Lebanese National Idea: 1840–192**, The University of California, California, 2013.

- Perrin Dominique, **Palestine une terre, deux peuples**, Presses Univ. Septentrion, Paris, 2000.

- Picaudou Nadine, **La déchirure libanaise**, Editions Complexe, Bruxelles, 1989.

- Rejouis Jean Albert, **Diverses Religions Du Monde, (Le Vaudou Haitien - La Franc Maconnerie)**, AuthorHouse, Bloomington (U.S.A), 2013.

- S. Ellwood Robert et D. Alles Gregory, **The Encyclopedia of World Religions**, Book Builders Incorporated, New York, 2003.

- Samman Mouna Liliane, **La population de la Syrie : étude géo-démographique**, o.r.s.t.o.m, Paris, 1978.

- Shehadi Nadim and Haffar-Mills Dana, **Lebanon: A History of Conflict**, the Centre for Lebanese Studies and I B Tauris, 1988.

- Stanford. J. Shaw & Ezel Kural Shaw, **History of the ottoman empire and modern turkey**, 1st Edi, v 2, Cambridge University Press, New York, 1977.

- Tomić Yves, **La Serbie du prince Miloš à Milošević**, 2ème édi,Presses Inter-universitaires Européennes, Bruxelles, 2004.

- Vidal Dominique et Gresh Alain, **Les 100 portes du Proche-Orient**, Les Editions de l'Atelier, Paris, 1996.

ج- المقالات

- N. Frye Richard, "***Assyria and Syria: Synonyms***", Journal of Near Eastern Studies, The University of Chicago, Vol. 51, No. 4, Oct 1992.

- Peters Ralph, " ***How a better Middle East would look*** ", Armed Forces Journal, June 1, 2006.

6- الموسوعات والقواميس

أ- العربية

- الأمين، حسن، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، ط 6، دار التعارف للمطبوعات بيروت، 2002.

- البستاني، بطرس، **دائرة المعارف**، مج 7، مطبعة الأدبية، بيروت، 1876.

- البعلبكي، منير، **مُعجم أعلام المورد**، ط 1، دار الملايين، بيروت، 1992.

- بن محمد، أبو القاسم الحسين، **المفردات في غريب القرآن**، ج 1، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، د.م.ن د.ت.ن.

- الحفني، عبد المنعم، **موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية**، ط 1، دار الرشاد، القاهرة، 1993.

- الخوند، مسعود، **الموسوعة التاريخية الجغرافية**، ج 9، دار رواد النهضة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.ن.

- الفيروزآباديّ، مجد الدّين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث، ط 8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005.

- المصري، أبي الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي، **لسان العرب**، ط 3، مج 9، دار صادر، بيروت، 1414 هـ (1993 م).

- الندوة العالمية للشباب الإسلامي، **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، إشراف مانع بن حماد الجهني، ط 4، مج 1-2، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 1420 هـ (1999 م).

- دار الشروق، **موسوعة الشروق**، ج 1، دار الشروق، القاهرة، د.ت.ن.

- عمر، أحمد مختار، **معجم اللّغة العربية المعاصرة**، ط 1، مج 2، عالم الكتب، القاهرة، 2005.

- مجمع اللغة العربية، **المُعجم الكبير**، ط 1، ج 4، دار أخبار اليوم، القاهرة، 2000.

- ----------، **المعجم الوسيط**، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة 2004.

- نبهان، يحي، **أطلس الوطن العربي الجغرافي و الطبيعي و السياسي**، دار يافا العالمية للنشر والتوزيع، 2010.

- نصار، حسين محمد وآخرون، **الموسوعة العربية الميسرة**، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، 2010.

- وجدي، محمد فريد، **دائرة معارف القرن العشرين**، ط 3، دارالمعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1971.

العفيفي، عبد الحكيم، **موسوعة 1000 مدينة إسلامية**، ط 1، أوراق شرقية، بيروت 2000.

ب- الأجنبية

- A. Ghareeb Edmund , **Historical Dictionary of Iraq**, Scarecrow Press, Maryland (USA), 2004.

- Académie française, **Dictionnaire de l'Académie Françoise**, 4ème Édi, T 2 Imprimeur de l'Académie Françoise, Paris, 1762.

- Brun-Malte, **Précis de la géographie universelle**, T 4, Bureau des blications illustrées, Paris, 1845.

- De La Martiniere M.Bruzen, **Le grand dictionnaire geographique et critique**, T 9, Les libraires Associés, Paris, 1736.

- Droz-Vincent Philippe, **Syrie: Géographie, économie, histoire et politique**, Encyclopaedia Universalis, Les Grands Articles, Charcompix/Shutterstock, 2016.

- François Morenas, **Dictionnaire portatif**, **comprenant la géographie et l'histoire universelle**, 8éme Edi, T 8, Louis Chambeau, Avignon, 1762.

- Gagarin Michael and Fantham Elaine, **The Oxford Encyclopedia of Ancient Greece and Rome**, V 1, Academy - Bible, Oxford, 2010.

- J. Planche, **Vocabulaire des latinismes de la langue française: ou, Des locutions française**, Le Normand imprimeur, Paris, 1822.

- L. Steiner Margreet and E. Killebrew Ann, **The Oxford Handbook of the Archaeology of the Levant**, First Edi, Oxford University Press, Oxford, 2013.

- Marie-Nicolas Bouillet, **Dictionnaire universel d'histoire et de geographie**, 26ème édi, librairie Hachette, Paris, 1878.

- Mikaberidze Alexander, **Conflict and Conquest in the Islamic World: A Historical Encyclopedia**, V 1, ABC-CLIO, California, 2011.

- Necipoğlu Gülru, **Muqarnas (An Annual on the visual culture of the islamic word)**, v 13, E.J.Brill, Leiden, 1996.

- Un témoin oculaire, **Souvenirs de Syrie**, Libraiarie PLON, Paris, 1903.

- W. Bromiley Geoffrey, **International Standard Bible Encyclopedia**, V 2, Wm. B. Eerdmans Publishing Company, Michigan, 1982.

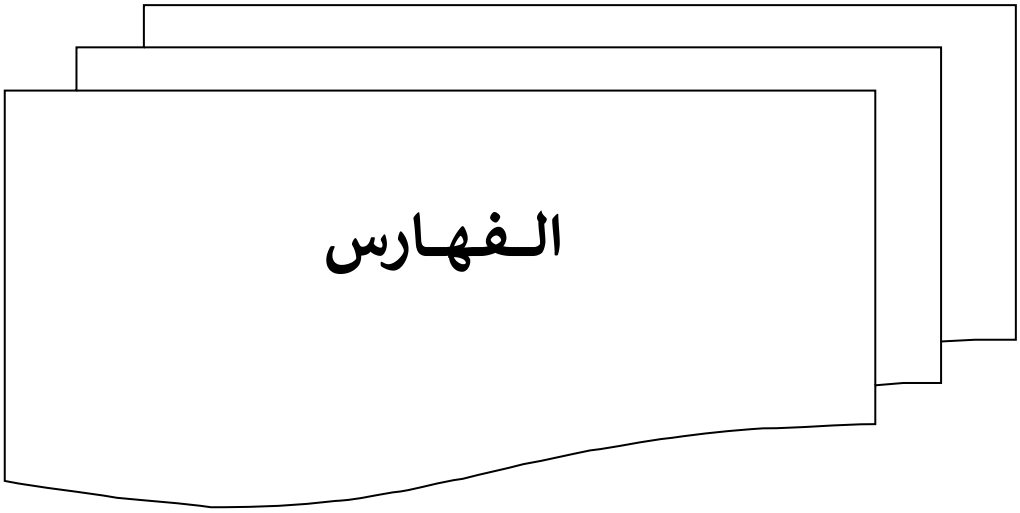
الـفـهـارس

فهرس الأعلام

	اسم العلم	الصفحة
أ	أرام الخامس	79
	أسوريم بن ودان	80
	إبراهيم (النبي)	80
	آرام بن سام	90
	الإسكندر الأكبر	91
	أبو بكر الصديق	94
	أبو ذر الغفاري	118
ب	بشير الشهابي	176-150-148
	بطرس البستاني	156
ت	تحتمس الخامس	79
ج	جيمس آرثر بلفور	174
	جورج بيكو	174
ح	الحسين بن علي	174-24
	الحاكم بأمر الله	100
ز	زيد بن حارثة	93
س	سليمان باشا	24-23
	سليم الثالث	44-43
	سام بن نوح	79-75-74
	سليمان بن داوود	76
	سيف الدين قطز	105
	سليم الأول	176-147-134-117-110-109-108
ش	الشاه اسماعيل	108
ص	صلاح الدين الأيوبي	190-105-104-103

ع	عمر طالب	42
	عمر بن الخطاب	97-96-95
	عثمان بن عفان	118-97
	علي بن أبي طالب	118-97
	عبد الحميد الثاني	116
	عبد القادر الجزائري	107-181-117
	عبد الرحمن الكواكبي	161
	عبد الله بن الحسين	213-194
ف	فيصل بن الحسين	222-211-210-194-192-191-189-188-185-182-174
	فخرالدين الأول	176
ق	قطورة	80
ك	كنعان بن حام	89
ل	لويس فيليب	37
	لويس التاسع	166
م	محمود الثاني	44-35-29-28-34-33-24
	محمد علي باشا	170-149-148-143-130-115-44-37-36-35-29-28-34-33-32-24
	محمد بن عبد الوهاب	25-22-21
	محمد بن سعود	23-22
	مسعود بن سعيد	21
	محمد الثاني	39-38-26-30
	مراد الأول	40
	محمد بن اسماعيل	121
	موسى (النبي)	90
	معاوية بن أبي سفيان	118-97
	محمد المتوكل على الله	110
	ماري يوحنا	123
	مار مارون	126

	ميخائيل جروة	128
	مارك سايكس	175
	ميخائيل مشاقة	204
ن	نابليون بونابرت	167-53-51-50
	نوح (النبي)	90-89
	نورالدين محمود	103
	ناصيف اليازجي	156
هـ	هرقل	95-93-92
	هولاكو	105
ي	يزيد بن معاوية	97
	يوسف فالرجا	129

فهرس الأماكن

	اسم المكان	الصفحة
أ	الأناضول	181-148-126-47-34-33
	استانبول	150-63-34
	أثينا	29
	أدرنة	38
	الأفلاق والبغدان	61-54-39
	أرضروم	49-48
	إيران	58-49-48
	الإسكندرية	60-59-53-51
	أبو قير	53
	اسبانيا	89-72-57-56-55
	ألمانيا	174-65-64-63
	الأردن	213-194-96-78
	أجنادين	121-94
	أنطاكية	124
	أرمينيا	131
	اسكندرون	212
ب	بغداد	105-101-98-23
	بلاد الشام	-85-74-72-71-69-68-67-61-53-35-33-25-23 -98-97-96-95-94-93-92-91-90-89-88-87-86 -107-106-105-104-103-102-101-100-99 -122-119-118-117-116-115-114-112-109 -144-143-141-140-138-134-130-129-125 -155-154-153-152-149-148-147-146-145 -166-165-164-163-162-161-160-159-157 -178-176-175-173-172-171-170-168-167 -209-196-190-189-187-190-189-187-181 221-219-218-217

	البصرة	24
	بريطانيا	29-34-40-48-49-50-52-53-58-59-60-61-89-191-192-194-207-208-209-212
	البلقان	26-38-39-41-63-64-121-160-168-170-172-181
	البوسنة والهرسك	39
	بلغاريا	40
	باريس	44-62-63-174-183-186-207
	بلاد فارس	47-98
	بنزرت	57
	برلين	64
	بابل	75
	بلاد الرافدين	87-90
	بيروت	116-124-125-128-129-130-154-159-180-183-184-186-191-202-208
	بعلبك	116-118-127-145-183
	البقاع	116-121-145-180-183-186
	بشارة	118
	بيت مري	205
	بروسيا	207-208
	بانياس	214
ت	تونس	56-57-58

ج	الجزيرة العربية	117-115-97-94-93-90-87-25-24-23-20
	الجبل الأسود	39-38
	الجزائر	170-57-56-55-54
	جبيل	143-71
	جبل لبنان	-151-150-149-147-146-145-126-125-98 -182-180-179-177-176-175-174-166-164 -209-208-200-198-194-187-186-185-183 221-220-219
	الجولان	116
	جبل عامل	118
	جبل النصيرية	120-119
	جبل حوران	121
	جيزين	128
ح	جبل سمعان	130
	الحجاز	76-25-24-23
	حمص	-213-129-127-124-117-96
	حلب	-128-127-126-125-124-123-117-116-109 215-214-212-203-130-129
	الحيرة	121
	حماة	213-129-127-124
	حيفا	131
	حوران	124
	حاصبيا	134
خ	خناصرة	78
	خراسان	117
	الخليل	118

د	الدرعية	24-22
	دمشق	90-94-95-96-97-98-99-103-109-116-117-120-122-123-124-126-127-129-130-134-174-184-188-189-192-194-204-206-210-211-212-213-213-214-215
	دير الزور	213
ر	روسيا	26-29-38-39-40-48-49-51-54-60-61-62-63-64-116-123-168-170-172-189-201-207-208
	الريدانية	58-109
	رودس	72
	رأس الرجاء الصالح	107
	راشيا	121-143
ز	زحلة	128
س	السليمانية	48-49
	سباستبول	62
	سان استفانو	63
	سوريا	72-78-116-119-120-121-124-128-128-160-182-183-184-185-186-187-189-192-193-206-207-208-210-211-212-213-214-215-222
	سُلمية	78-119-174
	سمرية	118
	السويداء	213
ش	شومار	118
	الشوف	121

ص	صيدا	186-183-180-145-131-125-121-116-71
	صيدون	118
	صفد	131
	صور	186
	صافينا	214
ط	طولون	50
	طرابلس	213-186-145-143-124-120-116
	طبرية	117
	طبرستان	119
	طرطوس	120
	طرسوس	214
ع	العراق	212-194-47-25-24
	عكا	143-124-118-53-35-33
	العريش	85
	عين جالوت	105
	عمّان	116
غ	غزة	91
ف	فرنسا	-63-61-58-57-56-55-53-52-51-50-37-35-29 -169-168-167-128-127-125-121-120-118 -183-182-181-179-178-174-172-171-170 -209-208-207-193-191-189-187-186-185 212-211
	فلسطين	206-195-174-167-144-121-116-96-78-76

ق	القاهرة	60-51
	القرم	206-203-64-63-60
	قبرص	166-124-68
	قيسارية	71
	القسطنطينية	95-92
	القدس	166-131-125-123-105-104-102
	القوقاز	116
ك	كربلاء	24
	كوتاهية	34
	كريت	72-68-29
	كنعان	74
	كسروان	127
	كردستان	129
ل	لندن	-170-35-29
	لبنان	-124-121-121-120-119-118-115-109-78 -182-181-180-179-177-175-148-128-126 -193-192-190-188-187-186-184-183 222-214-211-209-207-195-194
	اللاذقية	214-212-124-120
م	مكة	174-76-24-21
	مصر	-58-54-53-52-51-50-37-36-35-33-32-29-24 -109-106-104-103-101-100-90-88-87-59 181-170-149-121-110
	المدينة المنورة	24
	المورة	72-29-28
	مؤتة	94
	الموصل	103
	مرج دابق	109
	المتن	121

	ماردين	125
	معرّة النعمان	128-127
	ملولة	128
	مصياف	214
ن	نابلس	23
	نافارين	32-30
	النمسا	208-207-200-128-63-40-26
	نيزيب	35
هـ	الهند	170-52
	ميسلون	211
ي	اليونان	160-68-50-47-32-30-29-28 -26
	اليابان	37
	اليمن	121-76-75
	يافا	131-92
	اليرموك	95

فهرس الطوائف

	اسم الطائفة	الصفحة
أ	الأرثوذكسية	208-184-146-124-123-122-92
	الأرمن	99
	الأكراد	164-130-116
	الإسماعيلية	119
	الأرمن الأرثوذكس	124
	الأقباط	125
	الأحباش الأرثوذكس	125
	الأرمن الكاثوليك	127
	الايزيديون	130
ب	البروتستانتية	154-130-129-122
ت	التركمان	117-101
د	الدروز	-144-143-142-129-127-121-109-100 -168-167-164-150-149-148-147-146 -197-196-192-189-184-176-172-169 -209-207-205-202-201-200-199-198 222-221-219-215-214-213-211-210
ر	الروم الأرثوذكس	201-172-169-168-123
	الروم الكاثوليك	172-128
س	السريان الأرثوذكس	128-125
ش	الشيعة	193-192-115-108-102-99
	الشركس	116
ك	الكاثوليكية	-200-187-169-167-125-124-122-102 207

	الكلدانيون	129
ل	اللاتين الكاثوليك	129
م	الموارنة	-146-145-144-142-127-126-102-92 -169-168-167-164-154-150-148-148 -183-182-181-179-178-177-175-172 -192-191-190-189-188-187-186-184 -205-204-202-201-200-199-198-197 222-221-219-209-208
	المسلمون السنة	-192-190-189-169-142-116-115-102 222-212-193
	المتاولة (الاثنى عشرية)	143-119-118-117
ن	النصيرية (العلوية)	215-214-212-120
ي	اليونان الأرثوذكس	124
	اليونان الكاثوليك	128
	اليهود	209-174-144-131

فهرس المواضيع

الموضوع الصفحة

مقدمة 6

الفـَصلُ التمهِيدِيّ: العَوَاملُ المُؤَثّرَة في الوَضعِ العَامِّ للدَّولَةِ العُثمَانِيَة في القَرنِ 13 هـ / 19 م.

المبحث الأول: العوامل الداخلية المؤثرة في الوضع العام للدولة العثمانية.

1- الحركة الوهابية 19

2- ثورة اليونان 26

3- حركة محمد علي في مصر 32

4- ثورات البلقان الأخرى 38

5- حركة الإصلاح والتنظيمات 41

المبحث الثاني: العوامل الخارجية المؤثرة في الوضع العام للدولة العثمانية.

1- الجبهة الإيرانية 47

2- الحملة الفرنسية على مصر 50

3- الغزو الاستعماري (الجزائر – تونس – مصر) 54

4- حرب القرم 60

5- مؤتمر برلين 64

الفصلُ الأوّل: جُغرَافِيَةُ وَتَارِيـخُ بِلَادِ الشَّامِ.

المبحث الأول: جغرافيةُ بلاد الشام

1- أهمية بلاد الشام الجغرافية والحضارية 67

2- تسميات بلاد الشام 74

3- الحدود الجغرافية لبلاد الشام 81

المبحث الثاني: تاريـخُ بلاد الشام.
1- بلاد الشام في القديم.....87
2- الفتح الإسلامي لبلاد الشام.....92
3- الفتح العثماني لبلاد الشام.....106

الفصل الثاني: الطَّائِفِيَّةُ فِي بِلَادِ الشَّامِ فِي القرْنِ 13هـ / 19 م.

المبحث الأول: الطوائف المُشكّلة للمجتمع الشامي في القرن 13 هـ / 19 م.
1- المسلمـون.....115
2- النصـارى.....122
3- الإيزيديون.....130
4- اليـهـــود.....131

المبحث الثاني: المُوَلِّدَات الداخلية للطائفية في بلاد الشام في القرن 13 هـ/ 19م.
1- التنظيم الإداري والديني.....135
2- الحملة المصرية.....141
3- جبل لبنان.....145
المبحث الثالث: المُوَلِّدَات الخارجية للطائفية في بلاد الشام في القرن 13هـ/19م.
1- آليات التدخل الخارجي.....152
2- التدخلات الطائفية الخارجية.....165

الفـَصلُ الثَّالِث: آثَارُ الطَّائِفِيَةِ عَلَى الدّولَةِ العُثمَانِيَة وَبِلَادِ الشَّام.

المبحث الأول: آثار الطائفية على الدولة العثمانية.
1- صعود الطائفية، وإنشاء لبنان الكبير.....175
2- مواقف الطوائف من لبنان الكبير.....187

المبحث الثاني: آثار الطائفية على بلاد الشام.
1- المجازر الطائفية.....196
2- الدويلات الطائفية.....210
خاتمة.....217

الملاحق.....226

المصادر والمراجع.....242

فهرس الأعلام.....263

فهرس الأماكن.....266

فهرس الطوائف.....273

فهرس المواضيع.....275